www.kotobarabia.com

الدين والثورة في مصر ١٩٥٢- ١٩٨١

الحركات الدينية المعاصرة

دكتور حسن حنفي

www.kotobarabia.com

الدين والثورة في مصر

١٩٥٢ - ١٩٨١

٥ - الحركات الدينية المعاصرة

دكتور / حسن حنفي

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

المسلمون في آسيا ٤

في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ٤

نشأة الاتجاهات المحافظة في وطننا العربي الراهن ١٤٦

أثر أبي الأعلى المودودي على الجماعات الدينية المعاصرة ١٩٢

خاتمة ٢٤٦

أثر الإمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة.... ٢٥٥

خاتمة:.. ٤٤٧

المراجع ٤٥٩

النهضة الإسلامية المعاصرة ٤٦٢

(خطة بحث) ٤٦٢

الحركات الدينية المتطرفة ٤٧٥

(ورقة موقف).. ٤٧٥

المسلمون في آسيا

في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

أولاً: مقدمة:

مازال العالم الإسلامي واقعا بين المطرقة والسندان، بين الاستعمار الغربي والهيمنة الشرقية، وكأنه طائر مقصوص الجناحين، جناحه الغربي في إفريقيا وجناحه الشرقي في آسيا، فأصبح جسم الطائر ذاته في مصر، قلب الأمة العربي، ومركز الثقل في العالم الاسمي، لا يقوى على الحراك، يتعثر الخطى، ولا يقدر على النهوض جريحا ينزف دما، ويظن الأعداء ، روحه تفيض وأن أجله قد حان مع أن جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيام.

وإن كنا قد انشغلنا كثيرا بجناحنا الغربي في مواجهتنا الحديثة ضد الاستعمار فإننا قد نسينا جناحنا الشرقي مع أن به أكثر من ستمائة مليون مسلم أي أكثر من ثلاثة أرباع المسلمين في العالم. وقد كان الاستعمار الغربي أيضا في جاوة والفلبين وأندونسيا لا يقل خطورة وعنفًا عن الاستعمار

الغربي في المغرب العربي وفي مصر وسوريا والعراق وفلسطين. أما في آسيا فان الإسلام الصامت هناك، الرابض في قلوب المسلمين جعلنا غير قادرين على سماعه، وإن كنا نشعر به. ألم يكن هناك احتلال مباشر للأراضي ولكن كانت هناك هيمنة وضم للإمارات الإسلامية في أواسط آسيا بعد نشوب ثورة أكتوبر ١٩١٧ تحت لواء الثورة الاشتراكية الكبرى.

وقد آن الأوان أن نعيد إلى وعينا القومي التوازن في اهتماماتنا بين جناحينا الغربي والشرقي، وأن نذكر المسلمين في قلب العالم الإسلامي بالمسلمين في آسيا حتى لا نظل فريسة للاستعمار يجذبنا أمامه، ونتجه بوعينا نحوه، وأن نغفل توجيه وعينا نحوه، وأن نغفل توجيه وعينا نحو عالمنا الإسلامي في الشرق.

وقد انتشر الإسلام أول ما انتشر في آسيا، وانطلقت جيوش المسلمين إلى فارس في معارك نهاوند والقادسية، وانتصر المسلمون على الفرس مع انتصارهم على الروم في اليرموك وعلى أسوار حصن بابليون. وتم فتح فارس في نفس الوقت الذي تم فيه فتح مصر والشام في عهد عمر.

وخرجت الجيوش الإسلامية في عهد عثمان، ووصلت إلـى أواسط آسيا، إلى بلاد ما وراء النهر، خراسان، وأذربيجان. وهناك استقر الصحابة الأوائل، واستشهد التابعون. ومازالوا بقبورهم شاهدي عيان على مـأثرهم، يـزورهم المسـلمون ويتحسرون على ما مضى، ويبكون على ما فات.

وفي آسيا، تكونت إمبراطوريات إسلامية، وفيها انتشـر الإسلام حتى الصين، وهناك تراث تيمورلنك وآثاره حيـث كان الإسلام بؤرة ثورية ينتشر منها الإسلام في كل اتجـاه، الزحف شرقًا إلى الصين. أو غربا إلى العـراق وتركيـا أو جنوبا إلى الهند وفارس أو شمالاً إلى سهول آسيا الوسـطى. وفي تاريخنا الحديث قام السلطان "محمود الغز نـوى" فـي شمال الهند، وقام السلطان "أكبـر" أيضـا بتوحيـد الأمـة الإسلامية في الهند، فاستمرت فتوحات المسلمين فـي آسـيا دون توقف. ولم تتوقف ألا اهتماماتنا بها.

وقد ارتبطت آسيا بالخلافة الإسلامية، رمزا لوحدة الأمة، وكانت فجيعة المسلمين هناك خاصة في الهند بقضاء كمـال أتاتورك عليها. لم يعد لهم مركز جذب في قلب العالم الاسمي فاجتذبتهم مراكز أخرى خارجه، وبدل أن يكونـوا أطرافًـا

للدولة العثمانية أصبحوا أطرافًـا للجمهوريـات الســوفيتية الاشتراكية المتحدة. أعطتهم تركيـا صـورة الإسـلام بـلا مضمون، وأعطتهم الثانية مضمون الإسـلام بـلا صـورة. وتساءل الناس هنا وهناك: مسلمون بلا اسـم فـي تركيـا، وإسلام بلا مسلمين في الصين والاتحاد السوفيتي.

وقد رسخت عقيدة أهل السنة في أواسـط آسـيا بوجـود الصحابة مثل "قثيم بن عباس"، وأئمـة مثـل "البخـاري" و "الترمذي". فآمن المسلمون بالإسلام الواضح الجلي، وتمسكوا بالسنة. وظل الإسلام في قلوبهم حيا، يتمسـكون بالشـعائر، ويحافظون على هويتهم القومية الإسلامية حتى ولو عصفت بهم حوادث الزمان، وضاعت إمـارتهم، وفـر أمـراؤهم، وتبدلت عليهم النظم السياسية، ونسيهم المسلمون.

وقد كان أهل فارس أهل علم. وعلى يديهم نشـأ التـراث الاسمي. وإن كان التعريب لديهم قد تأخر إلى حـين، ولـم ينتشر قدر انتشاره فـي المغـرب الإسـلامي ألا أن اللغـة الفارسية بجوار العربية أصبحت لغـة العلـم. ألـف فيهـا المسلمون عربا وعجما. ونشأ في تراثنـا أنصـار الحكمـة الفارسية مثل ابن مسكويه في مقابل أنصار الحكمة اليونانيـة

وعلى رأسهم الفلاسفة وأخوان الصفا. ومن ثم يرجع جـزء من تكويننا الذهني إلى آسيا. وألف علماء الفرق الإسـلامية في التراث الآسيوي، وتحدثوا عن حضارات الهند والصـين وفارس مثل الشهرستاني "الملل والنُحل" كمـا درس علمـاء المسلمين ومؤرخوهم حضارات آسيا مثل البيروني في كتابه المشهور "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولـة فـي العقـل أو مرذولة".

وقد حاولنا نحن اقتفاء أثر الدماء. فوضعنا في جامعاتنـا "الفكر الشرقي القديم" ضـمن مقرراتنـا، فـي محاضـرة مقصورة على طلاب يبلغون أقل من أصابع اليـد الواحـدة، معتمدين على مراجع تجعل من آسيا مقدمة لأوربا، وتتصور الحضارات الشرقية القديمة على أنها مقدمات دينية لاهوتيـة أخلاقية علمية أسطورية تسلطية الحضارة الغربية قبل بدايتها عند اليونان حيث العلم والمعرفة والنظر والنزاهة والحريـة

والديمقراطية والتي انتهت إلى حضـارة الغـرب العلميـة العلمانية التي ورثت حرية الفرد وديمقراطية المجتمع.•

وعلى العكس منا، اكتشف فلاسفة التـاريخ المعاصـرين "ريح الشرق" Best Wind بعد ثورات الصين وفيتنام ونهاية الشوفينية الغربية، وضرورة إعادة التـوازن فـي التـاريخ العالمي بين حضارة الغرب وحضارة الشرق، وبأنه لا يوجد نموذج واحد للتطور، وهو النموذج الغربي. ودقت أمريكـا باب الصين، وقامت حرب أكتوبر، وانـدلعت الثـورة فـي إيران، وقامت الحركات لإسلامية الثورية في كـل أرجـاء العالم الإسلامي، وتحدث الغرب عن يقظة الإسلام، واكتشف العالم الإسلامي قدراته الخلاقة، وإمكانيـة تغييـر نظمـه، والتحكم في مصائره، والسيطرة على مقدراته، والتحكم فـي قدره.

والتراث الثوري الآسيوي ليس ببعيد عنها. فقـد سـاهم السلطان جالييف والأفغاني في الدعوة إلـى إنشـاء جامعـة

• أصبحت هاتان الساعتان ضمن مقررات الفرقة الأولى لقسم الفلسـفة بجامعة القاهرة وضمن مقرارات قسم الفلسفة أيضا في جامعة صنعاء.

شعوب الشرق، ومن أجـل إنشـاء جمهوريـات إسـلامية اشتراكية في آسيا ثم توحيدها كلها في حركة عامة، حركـة تحرر شعوب الشرق في مواجهة الاستعمار الغربـي. كمـا ساهمت الثورات العربية الحديثة بزعامة الزعيم جمل عبـد الناصر في تأسيس مؤتمر باندونج في ١٩٥٥ ثم حركة دول عدم الانحياز، ثم منظمة تضامن شعوب آسيا وإفريقيـا، ثـم مؤتمر القارات الثلاث، كل ذلك ليعيد إلى وعينا القومي البعد الآسيوي لتاريخنا حتى يمكن أن نتحرر من بقايا الاسـتعمار في وعينا القومي وان نتجه شرقًا كما اتجهنا غربا.

ولا يعني الانفتـاح شـرقًا مجـرد التأييـد الاقتصـادي والعسكري والدولي في قضايا القومية المصيرية كما حـدث إبان الثورات العربية الأخيرة، أو الأثر الأيـديولوجي كمـا حدث في أحزابنا الماركسية وبالأحرى الدخول في أحـلاف المعسكر الشرقي ومعاهدات صداقة كما حدث فـي بعـض أنظمتنا العربية ولكن يعين اكتشاف امتدادنا الطبيعي في قارة تزخر بإمكانياتها البشرية والمادية، وأثراء تراثنـا القـومي الإسلامي في دائرة حضارته الطبيعيـة، الـدائرة الآسـيوية الإفريقية.

ولن نقوم بإعطاء مادة إحصائية عن أحـوال المسـلمين تعدادا وإحصاء للإمكانيات البشيرة أو للثروات الطبيعيـة أو لأحوالهم الاجتماعية كما يحدث أحيانًا في أجهـزة الإعـلام الغربية التي تهتم بالتحليل إلى لمستقبل المنطقة كمنافس لهـا أو على أقل تقدير كمسترد لثرواتها وأسـواقها وشخصـيتاه وهويتها واستقلالها. فنحن لا نتعامل مـع وقـائع بـل مـع "ماهيات" تعتمد على التجارب المباشـرة ومعايشـة الثـورة الإسلامية في إيران، والإسـلام المنبـوذ فـي أفغانسـتان، والإسلام المكبوت في الجمهوريات الإسلامية فـي أواسـط آسيا. ليس القصد هو إعطاء معلومـات كميـة كمـا يفعـل المستشرقون الذين يودون حساب القوى والقـدرات ولكـن يهمنا فهم تاريخنا من منظور الأمة الإسلامية من أجل سماع إيحاءات التاريخ وإعطاء توجيها للمسلمين للمسـاهمة فـي حركته.

وهو مجرد تخطيط عام، ولفت نظر للجناح الشرقي للأمة الإسلامية تعقبه تفصيلات عن أوضاع المسلمين في كل دولة من دول آسيا. ومن ثم نوفي ببعض الدين لامتنا كما يفعـل

الفقهاء، حارسو الشرع والمدافعون عـن مصـالح الأمـة، والذابون عن حوضه الإسلام.

لقد حاول الاستعمار ضرب قلب العالم الإسلامي برا فـي الحروب الصليبية. فلما فشل حاصرها بحـرا عـن طريـق الالتفاف حول سواحله في إفريقيا وآسيا. وقد نجح هذه المرة. والآن قد يتغير مجرى التاريخ عندما يعاصر جيلنـا تحـرر بلدان إفريقيا وآسيا، ويعود الاستعمار إلى موطنه الأصـلي حين يتقلص الغرب، ويعود إلى حجمه الطبيعي، وفي الوقت الذي تدب فيه الحياة من جديد في إفريقيا وآسيا، تبدأ مرحلة أخرى من مراحل التاريخ كما بدأتها قـديما عنـدما كانـت أوروبا مازالت قبائل متنافرة، تحكمها شريعة الغاب.

وإذا كان قلب العالم الإسلامي الآن قـد اسـتيقظ بـدون أطرافه فان الأطراف الآن قد بدأت في الحركة، ودبت فيهـا الحياة بعد أن توقف نبض القلب أو بطأت سـرعته. وربمـا تؤدي حياة الأطراف إلى إحياء القلب مـن جديـد فيـنهض الجسم كله، جسم الأمة الإسلامية وتتصـدر مكانتهـا فـي التاريخ.

وهذه الدراسة ليست موجهة ضد أحد في صف أحد. ليست ضد الاتحاد السوفيتي في صف الغرب، أو ضد الغرب في صف الاتحاد السوفيتي بل تحتوي على وصف لأحوال المسلمين في آسيا، خاصة في إيران وأفغانستان والجمهوريات الاسمية في الاتحاد السوفيتي من وجهة نظر مشاعر المسلمين، والأمة الأم. ليست انحيازا للشرق مادامت الأمة الإسلامية بتاريخها الطويل مع الاستعمار معادية للغرب، قدمت له العلم والحضارة أثناء الحروب الصليبية وبعدها فقابلها بعد ذلك بالغزو والاحتلال والسيطرة. وعلمته الأمة الإسلامية الرماية فلما اشتدت سواعدهم رموها.

يهمنا من فقهاء الأمة الإسلامية أن يكملوا ما بهذه الدراسة من نقص أو يصححوا ما بها من أخطاء فهي قضية الأمة كلها، والكل مسئول عنها، المؤرخ والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والقانوني والمفكر والأصولي والمتكلم والفيلسوف والأديب، كل علماء الأمة. والحكم في النهاية للجمهور.

ثانيا: الهوية الإسلامية (إيران).

كانت الثورة الإسلامية الكبرى في إيران المؤشر الحقيقي على يقظة المسلمين، وظهور الإسلام، هذا المارد العملاق من "القمقم". فقد اندلعت على غير انتظار وتوقع بعد أن كانت إيران بالنسبة للغرب واحة أمان، وبعد أن كان جيشها ثالث أقوى جيش في العالم، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبعد أن كانت إيران وإسرائيل تمثلاًن ركيزتا الدفاع عن الغرب في آسيا، وبعد أن تمت أكبر محاولات "التغريب" في المنطقة واعتبار إيران قطعة من أوربا كما حاول إسماعيل ذلك مع مصر في القرن الماضي. أصبحت الثورة أكبر مهدد لمصالح الغرب في المنطقة، وأصبحت قوتها في شعبها المسلح الذي ينزل إلى الشوارع بالملايين دفاعا عن الثورة ضد أعتى جيوش العالم وأصبحت أكبر معاد للاستعمار والصهيونية، تتجاوز في عدائها حتى الأنظمة العربية التي ورثت ثوراتنا العربية الأخيرة. كما أصبحت الثورة أكبر تحد للغرب، وأكبر مؤكد للهوية الإسلامية كهوية قومية، وأكبر مثبت للاستقلال الوطني ضد سياسة الأحلاف الغربية والانحياز للغرب. وليس موضوع الرهائن، في واقع الأمر، إلا أحد مظاهر هذا التحدي، ثورة

إسلامية في مواجهة أعتى قوى الطغيان، إيران التي حـاول الغرب أن يجعلها جزءا منه في مواجهة الولايـات المتحـدة الأمريكية التي طالما أذلت الشعوب والتي تقف الآن عـاجزة أمام دولة صغيرة من دول العالم الثالـث، فالطغيـان يقـف مسلوب الإرادة أمام الحرية. ثورة تؤكد نفسها بعد أن حاول الاستعمار إلغاء هويتها. ويتحول الإذلال التاريخي للشـعوب المستعمرة إلى إذلال آخر للدول الاسـتعمارية. ولـن تقبـل الثورة الإيرانية بأقل من اعتراف رسـمي مـن الولايـات المتحدة بجرائمها ضد إيران أثناء حكم الشاه بل وضـد كـل الشعوب التي أرادت الولايات المتحـدة إذلالهـا. وسـيظل التحدي للغرب أحد العناصر الدائمة في الثورة الإيرانية مهما تغيرت صور الحكم. لقد كشـفت الثـورة الإيرانيـة، فـي موضوع الرهائن، عجز الغرب، وعرته عن إنسانيته المزيفة عندما ضحت الولايات المتحدة بحليف الأمس، الشـاه فـي مقابل القوى الثورية الجديدة من أجـل احتوائهـا. وعنـدما أرادت تقديمه قربانًا في مقابل خلاص الرهائن لولا أن فـر الشاه بجلده إلى حيث الدعة والاستكانة، فالإنسانية الغربيـة تظهر فقط للغربيين أما الشقيون فلا إنسانية معهم حتى ولـو

كانوا ملوكًا وأباطرة، إن المغزى الحقيقي للثورة الإيرانية في موضوع الرهائن هو تحدي الغرب. وسر عداء الغرب لهـا هو تحدي الثورة له، وتحجيمه وحصاره وكشف عنصـريته الدفينة حيث كان يظن أن العالم كله ميدان مفتوح، يرتع فيـه بلا حساب.

كما أظهرت الثورة الإسلامية الكبرى في إيران استقلالها عن الاتحاد السوفيتي الذي كان يعتبر الشاه أيضا صديقه في المنطقة وحليفًا لها منافسا الولايات المتحدة فـي كسـب وده وصداقته. والعميل في نهاية الأمر لا يهمه عميل من، هذا أو ذاك. وعداء الاتحاد السوفيتي المكتوم لها طبيعـي. إذ أنهـا يمكن أن تكون محور جذب المسـلمين فـي الجمهوريـات الإسلامية المجاورة في الاتحاد السوفيتي، تحيي فـيهم أمـل تحويل الحضارة الإسلامية فـي دولـة إسـلامية مسـتقلة، والعواطف الدينية المكتومة التي تظهر في الشعائر والطقوس إلى نظم سياسية علنية يجد المسلمون فيها عزتهم وكـرامتهم واستقلالهم، والانقطاع الحضاري إلـى اتصـال تـاريخي، وبالتالي تتحقق الوحدة في شخصيتهم الوطنية، ويكون ما في القلب على اللسان، ويصبح ما بالداخل في الخارج، ويتحول

التمني إلى واقع. وقد وقفت الثورة الإسلامية في إيران فـي وجه الغزو السوفيتي لشعب أفغانستان، وتمد الثوار المسلمين بالسلاح، بالرغم مما قد يثيره الاتحاد السوفيتي مـن قلاقـل على الحدود الإيرانية، ولكن الخطر المباشر من الاسـتعمار الغربي كان له مكان الصدارة على الخطر الملفـوف. وفـي المثل، عدو عاقل خير من صديق جاهل.

وقد استطاعت الثورة الإيرانيـة إسـقاط أعتـى نظـام دكتاتوري عرفه العالم، واكثر النظم تسلطًا واعتمـادا علـى الشرطة السرية ورجال الجيش وأجهزة المخابرات، بعـد أن أغدق عليهم الشاه من ثروة إيران كي يضمن ولاءهم له. وما شهدته إيران في ٥ يونيو ١٩٦٣، يوم الشـهداء، باستشـهاد عشرات الآلاف تحت جنازير الـدبابات، وآلاف المعـذبين، ومئات الشهداء، ودماء الطلاب والأسـاتذة علـى جـدران الأروقة في جامعة قم جعل في قلب كل مسـلم فـي إيـران وخارجه ثأرا خاصا بينه وبين الشاه، لوطنه ولامته ولدينـه. ومن هنا أصبح الإسلام مرادفا للحرية، فالإسلام والطغيان لا يلتقيان، وتتحقق قولة عمر الذي يقول كثيـر مـن الحكـام

المسلمين أنهم يسيرون على خطـاه موجهـا إياهـا لابـن الأكرمين "لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

وقد تمثلت عناصر النجاح في الثورة الإسلامية الكبـرى في إيران في ثلاث:

١. قيادة حاسمة ممثلة في الأئمة بقيادة الإمام الخميني. لا تقبل المساومة أو أنصاف الحلول، وتقف فـي مواجهة العروض الحقيقية والزائفة، وتقاوم كلفـة الإغراءات. تثق الجماهير الإسلامية بها، وتلهب خيال الشعوب الإسلامية في كل مكـان. تـأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، ولا تخشى في الله لومة لائم. وهي على اتصال وثيـق بالجمـاهير الإسلامية في الشوارع والأزقة، تقود جحافلهـا، وتدافع عن مصالحها، وتتكلم باسمها، وتستشـهد في سبيلها، تعبر عن مصالح جماهير المسـلمين، ولا تتكسب منها أو تعيش على حسابها أو تخون القضية. تقف في وجه التسلط والطغيان، وتنـذر الطغاة، وتفضح أفعالهم.

٢. الإسـلام كهويـة قوميـة، وشخصـية وطنيـة، وأيديولوجية ثورية للشعوب الإسلامية، فالإسـلام يعني تأكيد الأنا ضد الآخر، وإثبات الأصالة ضد الاغتراب، وبلورة الـذات ضـد ذوبانهـا فـي شخصيات الآخرين. لقـد اسـتطاع الإسـلام أن يحدث أكبر رد فعل على "التغريب"، وأظهر نفسه وفكره في مقابـل أيـديولوجيات الغـرب مـن رأسمالية وماركسية وليبرالية وقومية. وفي نفس الوقت يعبر عن تاريخ الأمة وحضارتها وفكرها وقيمها. حتى ولو ظهر الإسلام كلفظ أو شعار أو كهدف بلا مضمون اجتماعي وسياسي واقتصادي واضح فإنه يكون كطوق النجاة بالنسـبة للأمـة الإسلامية في لحظـة انتفاضـتها ضـد التميـع والاغتراب. ثم يأتي بعد ذلك دور المفكر المسلم في صياغة الإسلام طبقًا لحاجات الثورة وتحقيقًا

لمصالح الأمة، مع الجرأة في التشـريع والثقـة بالنفس.[٣]

٣. الشعب باعتباره رصيد الثورة وقوتهـا ومادتهـا، صاحب المصلحة الحقيقية في الثـورة، والقـادر على النزول إلى الشوارع والطرقات ليس فقـط لمدة يومين، بعد أن تعجز الشرطة ينزل الجيش، بل لعدة أشهر متتالية حتى استسلم جيش الشـاه، وسقطت شرطته السرية، وتداعى ملكه من علـى عرش الطاووس، والشعب بجميع طبقًاته وفئاتـه وعلى اختلاف مستويات تعليمه، وبجميع اتجاهاته السياسية في جبهة وطنية واحدة تضمنها الثـورة الإسلامية المرادفة للثورة الوطنيـة. و الشـعب مسلح بقواه، وحناجره، وأبدانه، وسواعده، وكتله

---

[٣] ومن هنا تأتي أهمية الكتابات الثورية لمفكري الثورة الايرانية وعلى رأسهم: على شريعتي في الفلسفة، والحسن بني صدر فـي الاقتصـاد ومهدي بازركان في السياسة.

المتراصة، وبطلقات رصاصه يواجه العنف القهري بالعنف الثوري،

وهكذا نجحت الثورة الإسلامية الكبرى في إيحاءات كما نجحت الثورة الإسلامية الأولى في مواجهة الروم والفرس، وضد طغيان أشراف مكة ومشايخ القبائل العربية، قيادة مؤمنة وطليعة ثورية ممثلة في الصحابة. والتوحيد كعقيدة ثورية تحرر وجدان الأفراد وتقضي على نظم التسلط والطغيان والمجتمعات الطبقية من أجل تأسيس مجتمع إسلامي جديد يقوم على الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وجماهير المؤمنين الغازية في سبيل الله لتحقيق رسالة التوحيد والتي لا تعرف لها أسرة أو محلاً أو بعفة الاستشهاد وفي سبيل الله على أرض الله.

والتحمت الثورة الإسلامية الكبرى في إيحاءات بحركات التحرر الوطني في العالم الثالث وبالاتجاهات الثورية في العالم كله، وأصبحت باسم الإسلام رصيدا لا ينضب للثورة العالمية، لقد جددت شباب الثورة في كل مكان خاصة في آسيا وفي العالم الإسلامي كله بعد أن خفت صوتها باختفاء زعمائها الأوائل: نهرو، وناصر، ونكروما، وسكارنو،

وشوين لاي، ولومومبا، وهوشى منه،وخفت أصـوات مـن تبقى منهم مثل سكوتورى وكاوندا أو ناحز البعض منهم مثل كاسترو وجوموكينيات.

كما أكدت على الإرادة الوطنية المستقلة، وانضمت إلـى دول عدم الانحياز، وإلهبت مشاعر ملايين المسلمين في آسيا وإفريقيا كما إلهب ناصر من قبل بتأميم قناة السـويس فـي ١٩٥٦ مشاعر الجماهير في مصر والعالم العربي، وأصـبح بعدها رمزا لحركات التحرر الوطني، وكما إلهبت الوحدة مع سوريا وتكوين أولى محاولة وحدوية فـي تـاريخ العـرب الحديث "الجمهورية العربية المتحدة" في ١٩٥٨ مشاعر الأمة العربية فتصورت أنها قاب قوسين أو أدنـى مـن الوحـدة العربية الشاملة، كما إلهبت حرب أكتـوبر ١٩٧٣ مشـاعر الأمة العربية في صراعها الأبدي مع الصهيونية مـن أجـل تحرير الأراضي العربية المحتلة، كانت الثـورة الإسـلامية الكبرى في إيحاءات تحقيقًا للصورة اللونية التي بدأها مصدق في إيحاءات بتأميم البترول في ١٩٥٣، والخميني ما هو ألا مصدق يبعث من جديد.

وقد التحمت الثورة الإسلامية الكبرى في إيحاءات بوجـه خاص بالثورة الفلسطينية، وأصبح الطريق إلى القدس مـارا بطهران. "إيحاءات اليوم وغدا فلسطين". توحـدت الثـورة الإيرانية بقضية العرب الأولى، وأرسـلت متطـوعين فـي صفوف المقاومة، وقضت على جذور الصهيونية بـإيران، وصفت معابد البهائية التي كانت صهيونية مقنعة في ثـوب إسلامي، ومركزها الرئيسي في حيفا! وقـد تجـاوزت الثـورة الإيرانية بمراحل مشاريع الأنظمة العربية بالنسـبة لقضـية فلسطين كلها من الصهيونية وعودة أراضي المسـلمين إلـى المسلمين، فالصراع بين الإسلام والصهيونية صراع عقائدي مبدئي لا مساومة عليه ولا تفريط فيه.

والثورة الإيرانية بالنسبة لنا تجديد لشباب الثورات العربية الحديثة وبعث للناصرية على مستوى شعبي إسلامي. وقـد كان ناصر على علاقة وثيقة بالخميني منذ أوائل السـتينات يؤيده ماديا و معنويا. كما كانت المقاومة الفلسـطينية علـى صلة وثيقة بالحركة الثورية الإسلامية بإيران في السبعينيات. كانت ثورة الضباط الأحرار في مصر فـي يوليـو ١٩٥٢ وحكومة مصدق في ١٩٥٣ أحد مظاهر الحركات الوطنيـة

التحريرية في العالم الثالث. الثورة الإسلامية كالناصرية كلاهما معاديان للاستعمار والهيمنة، مدافعان عن الاستقلال الوطني للشعوب، مناهضان للصهيونية، يعملان لنيل حقوق شعب فلسطني. ولو لم ينشأ الصراع على السلطة بين الثورة والأخوان، ولو مات فشل الثورة في إقامة حزب طليعي جماهيري يكون هو الضامن لاستمرار الثورة وإيجاد علاقة عضوية جوهرية بين الزعامة الثورية والجماهير أصحاب المصلحة الحقيقية في الثورة، لما تعثرت ثم انتكست وتراجعت. والعجيب أن الاستعمار يعلم ذلك، يعلم أن الثورة الإيرانية هي ظهير الثورات العربية، لذلك حاول الإيقاع بين الثورتين كما يحدث بشكل مؤسف بين الثورة الإيرانية وثورة يوليو – تموز ١٩٥٨ أن العراق بدعوى خلاف على الحدود أو الجزر في مدخل الخليج أو تسميته بالألفاظ العربي أم الفارسي! وكأنه في كلتا الحالتين لا يقطنه المسلمون، ولا ينتشر فوقه الإسلام الذي وحد بين القوميات، وصهر الشعوب، وجعل الحسن أخا للحسين. والحقيقة أن الخلاف بين الثورتين هو في واقع الأمر خلاف على السلطة بين نظامين. إذ يخشى الحكم في العراق من معارضة الشيعة فيه

بعد أن تم استقطابها نحو الثورة الإيرانية خاصة وان مشـهد والكوفة والنجف بمدارسها وحوزاتهـا وجامعاتهـا وأئمتهـا وطلابها رصيد الإسلام في إيحاءات فيثير القلاقل أمام الثورة الإيرانية، واحدة بواحدة وكأن الاتفاق مع الشاه بصدد مشكلة الأكراد كان أيسر وأسهل من الاتفاق مع الثـورة الإيرانيـة، وكأن الاتفاق على جبهة شمالية شرقية تضم سوريا والعراق وإيران في مواجهة إسـرائيل لا يسـاوي شـيئًا! وتخشـى الثورات العربية برنامج الثـورة الإيرانيـة الـذي تجـاوز حدودها، وتمثل أقصى ما يتمناه المشروع القـومي العربـي بالنسبة لفلسطين. ولكن حرصا على السلطة، وبتأييـد مـن الغرب تصورت الثورات العربية الثورة الإيرانية أنها ثـورة قومية شوفينية تحتل الجزر العربية في مدخل الخلـيج، لهـا أطماعها فـي الأرض العربيـة علـى سـواحل الخلـيج. والإيرانيون في الدول العربية المتاخمة يدينون بالولاء وهـم رهن الإشارة. فكما يؤيد العرب الثورة العربية في عربستان تثير إيحاءات القلاقل في البلاد العربية حتـى يـتم تصـدير الثورة الإسلامية في إيحاءات في كل مكان ابتداء من الجار. والحقيقة أن هذا الصراع المفتعـل بـين القوميـة العربيـة

والقومية الإيرانية من صنع الاستعمار الغربي، وما نحن ألا ضحاياه عن و عي أو عن غير وعي، حتى نحيل الأنظـار بعيدا عن الصراع بين القومية العربية والصهيونية، ونتجـه بوعينا من الخطر العربي إلى خطر آخر متوهم من الشـرق لا يأتي هذه المرة من الماركسية بل من الإسـلام الشـيعي والقومية الإيرانية! ومع ذلك تظل الجماهير الإسلامية في كل مكان خارج اللعبة السياسية. فالجزر هي مـدخل الخلـيج لا هي عربية ولا إيرانية بل جزر إسلامية. والخليج ليس عربيا أو فارسيا بل خليج إسلامي. تقطنه شعوب إسـلامية علـى ضفتيه. وفي نهاية الأمر لا فضل لعربي علـى عجمـي ألا بالتقوى. يكفينا نحن العرب فخرا أن اللغة العربية أصـبحت معممة في جميع المـدارس فـي إيحـاءات قبـل اللغـات الأوروبية. وأنها لغة العلم والدين، يعرفها الأئمة ويتخاطـب بها العلماء. ويكفينا خجلاً أن اللغة الفارسية لا تدرس لدينا ألا في أقسام متخصصة بالجامعات، ولم تعد لغة العلم لدينا كمـا كانت عند علمائنا وفلاسفتنا وأئمتنا وفقهائنا القدماء مثل ابـن سينا والغزالي والرازي ويـرهم. وأننـا أصـبحنا ضـحية الاستعمار الغربي، نعلم اللغات الأوروبيـة مـن إنجليزيـة

وفرنسية وألمانية وإيطالية وأسبانية ولا نلـم لغـات الأمـة الإسلامية: الفارسية والتركية والأوردية، ونصرخ كل يـوم: تطبيق الشريعة الإسلامية، ونناضل كل سنة عـدنا نصـوغ دستورا جديدا ننص فيه على أن الإسلام هو الدين الرسـمي للدولة! وندافع عن الإيمان ونهاجم الكفر، وندافع عن التراث، ونهاجم المستورد في الفكر دون البضـاعة، ونـدافع عـن الإسلام على الطريقة الرأسمالية(٤).

وقد حاولت أجهزة الإعلام في الغرب تشويه وجه الثورة الإيرانية والنيل منها، وتطوعنا نحن أيضـا للتـرويج لهـذا التشويه على الرغم منا، فنحن أيضا ضحايا الإعلام الغربـي والنظم الغربي. وبالرغم من أن بعض هذه الانتقـادات قـد يكون لها ما يبررها موضوعيا ألا أن الموضوعية في الثورة تتوقف على وجهة نظر أصحاب المصلحة أو من وقع عليهم الضرر قبل الثورة وبعدها، ولما كان الغرب هـو المضـار كانت معظم هذه الانتقادات من وجهة نظر غربيـة خالصـة

---

(٤) انظر مقالنا: الإسلام على الطريقـة الرأسـمالية، روز اليوسـف، رمضان ١٣٩٦.

سواء من داخل الغرب أو من النظم الموالية للغرب خـارج الغرب. وأهم هذه الانتقادات هي أنها:

١. ثورة دموية تبغي الانتقام وتقوم أجهزة الإعلام في الغرب بإحصاء القتلى كل يوم بالأرقام على نحو تصاعدي وكأنها مباراة رياضية يحل البشر فيها محل الأهداف. ولم يذكر أحد شهداء الشاه الـذين بلغوا الآلاف، ولم يذكر أحد معذبي "السافاك" لان ذلك القتل والتعذيب كان للـوطنيين المناهضـين للغرب يقبله العرب كجزء من الدفاع عن كيانـه، مأساة دموية، قسوة لا يعرفها تسـامح الإسـلام، وهنا يظهر تسامح الإسلام لأنه في صالح الغرب، ولم يظهر أيام الشاه الذي أمر بقتل المعذبين أمام أسرهم. بل كانت قسوة الشاه وعنفه محل تأييـد من الغرب باسـم الإسـلام أيضـا المنـاهض للشـيوعية. والقصـاص جـزء مـن الشـريعة الإسلامية "ولكم في القصاص حيـاةٌ يـا أولـي الألباب"(٢: ١٧٩) وأيضا "كتب عليكم القصاص في القتلى" (٢: ١٧٨).

٢. قضاء غير عـادل، ومحاكمـات سـريعة تأخـذ بالشبهات، لا تتوفر فيها أدنى حقـوق للمتهمـين وضمانات المحاكمة العادلة وحق الـدفاع عـن النفس. وهو تصور غربي خـالص لان جـرائم القتل قد تظل في قضاء الغـرب عـدة سـنوات يصدر الحكم بعدها على القتلة بـالبراءة نظـرا لظروفهم النفسية أو الاجتماعية أو حالتهم العقلية أو رأي المحلفين أو أخطاء شكلية فـي صـياغة القضية أو رشوة القضاه. ولكن القصـاص فـي الإسلام القائم على الشهداء العدول أو الاعتـراف الصريح كما كان يحـدث فـي حالـة رؤسـاء "السافاك" في القرى والمدن عندما يتعرف عليهم المعذبون أو أقارب الشـهداء أو عنـدما كـانوا يعترفون بما ارتكبوه. القصـاص فـي الإسـلام شريعة "وكتبنا عليهم فيهـا أن الـنفس بـالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والإذن بـالإذن، والسن بالسـن، والجـروح قصـاص" (٥: ٤٥) وعقوبة جريمة الإفساد فـي الأرض منصـوص

عليها في القرآن ومن أسس الفقه الجعفري "إنمـا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فـي الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عـذاب عظـيم" (٥: ٣٣). ولماذا يكون التعدي على حرمات الله حلالاً والثأر لدين الله وتطبيق شريعته حراما؟.

٣. تخاف وتقهقر، وحجاب للنسـاء، ورجـم للزانـي والزانية، وتحريم للخمـور، وغلـق للملاهـي، وتحريم لنوادي القمار، وهو أيضا منظور غربي خالص، "فالشادور" لبـاس وطنـي مثـل قبعـة الأوروبــي، وطربــوش التركــي، والطاقيــة المصري، وعمامة رجل الدين، وقبعة المكسيكي التي تمثل ثورات الفلاحين، لا يدل "الشادور" إذن على حجاب المرأة بقدر ما يدل على وطنيتها، أما الحدود الإسلامية فليس الهـدف منهـا العقوبـة والزجر والكبت والتزمت وضيق الأفق بل الهدف منها في إيحاءات القضاء على مظاهر "التغريب"

في الحياة القومية. فقد كان الأوروبيون هم رواد النوادي الليلية واللاعبون على موائـد القمـار، والذين يروجون لبضاعة الجنس كما كانت هافانا قبل الثورة الكوبية، إن تأكيد إلهودية الإسلامية قد يسهل بالمظاهر والشعائر والحدود ولكـن إلـى حين. ثم تتحول الحدود إلى حقـوق وولايـات، وتتحول المظاهر إلى نظم وأوضـاع اجتماعيـة ومذاهب اقتصادية[5].

٤. حكم الأئمة، ثيوقراطية، خلط بين الدين والسياسة، حكم رجال الدين، سلطة العمائم، كل ذلك قد عفا عليه الزمن إذ لا يمكن الجمـع بـين السـلطتين الروحية والزمنية، فالدين دين والسياسة سياسـة، ورجال الدين للمعابد والكنائس والمساجد، ورجال السياسة للوزارة والحكم والمجالس. وهذا أيضـا إسقاط من تاريخ الغرب على الأمة الإسلامية بعد أن حكمت الكنيسة الغرب فقهـرت وتسـلطت،

---

[5] الخميني: الحكومة الإسلامية ص ١٤، القاهرة ١٩٧٩.

ومنحت صكوك الغفران، وأقامت محاكم التفتيش، وأحرقت المفكـرين، وأقامـت المـذابح للفـرق المعارضة حتى انتصر المفكرون والعلماء عليها. وقامت الثورات الشـعبية تضـع نهايـة لحكـم الكهنوت، وتقيم العلمانية في مقابـل الكهنـوت. ولكن في الأمـة الإسـلامية الحكـم للشـريعة الإسلامية الوضعية وليس لشـخص الله أو لمـن يتمثله ويدعى أنه ظله فـي الأرض. والشـريعة الإسلامية تقوم على المحافظة على الدين والعقل والنفس و العرض والمال أي على أسس وضعية للدفاع عن مقومات الحياة الماديـة والمعنويـة. ويقوم فقهاء الأمة بالأمانة على تنفيذها، يـأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يعزلون الحاكم إذا خالف الشريعة أو إذا ما تهاون في تطبيقها. ليس في الإسلام حكم للعمائم بل الحكم للشريعة التـي ترعى مصالح المسلمين.

٥. تضارب في السلطات، حكومة ضعيفة، أمام يوجه دفة الحكم من وراء ستار، طلبة يسيطرون علـى

الشارع الإيراني، شعب يخرج بالآلاف فلا أحـد يعرف من بيده الأمر. أما تعدد الاتجاهـات فـي الغرب. والصراع حول السلطة مـن الأحـزاب ودور أجهزة الإعلام في النقد والمعارضة فـذاك في رأي الغرب مظهر من مظاهر الديمقراطيـة الغربية التي ينفرد بها الغرب دون أحـد سـواه. والحقيقة أن الثورة الإسلامية الكبرى في إيحاءات مازالت في حالة الثورة ولم تتحول بعد إلى دولة. وفي أعمار الثورات، الفرنسية أو البلشفية، يعـد عام ونصف منذ نجاح الثـورة الإيرانيـة عمـر قصير للغاية كي يتم هذا التحول مـن الوجـدان الثوري إلى النظـام الثـوري، مـازال الشـعب الإيراني في حالة ثـورة: الطلبـة، والجامعـة، والجيش، والأئمة، والشارع. وكلهم قد ساهموا في الثورة فالكل صاحبها، والكل و لي الأمر عليها، والكل يتحدث بأسمها. لـذاك لا توجـد سـلطة مركزية أو مؤسسات دستورية باستثناء توجيهات قائد الثورة للوجدان الثوري. قد يستمر ذلك إلـى

حين تتفجر عواطف الجيل المكبوت أيـام حكـم الشاه. والوجدان الثوري ليس فوضى قانونية بـل شرط للخلق و الإبداع ولابقاء الثورة في الحيـاة اليومية وليس فقط في الزعامة الثورية في بحـر ساكن من جماهير مستكينة.

٦. فإذا فعلت الثورة لمشاكل البطالـة والفقـر؟ مـاذا قررت لتغيير هيكل النظام الاجتماعي ولإعـادة بناء الدولة لصالح الأغلبية؟ ثورة تشغل نفسها بلا شيء باستثناء رذاذ الثورة دون مضمونها، بذاتية الثورة دون موضوعيتها. ومن ثم لن تأمن خطر الانقلابات والتصفيات، وتفكك الجبهـة الوطنيـة فيها، وانحسار التيارات السياسية عنها.

والحقيقة أن الثورة مازالت تعطي الأولويـة لتأكيـد الذات، وإثبات الشخصية، وان الإسلام هو ثورة الفقـراء والمظلومين[٦]. ومازال هؤلاء يؤكدون ذواتهم سياسـيا بالسيطرة على الشارع الإيراني قبل أن يثبتون ذواتهـم

[٦] الخميني: الحكومة الإسلامية ص ٣٦ – ٤٠ القاهرة، ١٩٧٩

اقتصاديا بتخطيط الاقتصاد القومي لصالحهم. والاشـباع السياسي لـدى الطبقـات المحرومـة يسـبق الإشـباع الاقتصادي. لذلك كانت الأولوية للسياسة في البلاد النامية كما حدث في ثورة الصين. لذلك تسبق الحرية الخبـز. وفي مثلنا العامي "لاقيني ولا تغديني".

٧. وقد أزدنا نحن في أجهزة اعلامنا الحملـة علـى الثورة لإيرانية متكاتفين مع أجهزة الإعلام فـي الغرب عن علم أو جهل، عن قصد أو غير قصد أو غير قصد، بحسن نية أو بسوء نية وقلنا: كفر الشيعة، ألوهية وإمامة، إمامـة ونبـوة، انتظـار وغيبة، لقد جعل الخميني نفسه المهدي المنتظـر، وادعى النبوة ناقصة، وأن الإمامة تكملها، ونحن نحب النبي والصلاة على النبي، والرسول خـاتم الأنبياء والمرسلين. فتأنف الجماهير من الثـورة الاسمية وتكفر دعاتها. وكان سلاح التكفير دائما عند القدماء والمحدثين هو أقـوى سـلاح ضـد الخصوم السياسيين لحصار المعارضة وتجريحها أمام جماهير المسلمين. مع أن فكر الإمام الخميني

أقرب إلى فكر أهل السنة. فالأئمة لديه هم فقهـاء الأمة و أمناء الرسل، لا يقول بما تقول به غُـلاة الشيعة، ويعلن ظهور الإمام الآن، وينهي الغيبـة كما طالب ابن تيمية. وعقائـد الشـيعة ليسـت بالجديدة، قتلها علماء الفرق بحثا، وموجودة فـي بطون الكتب كما نقلها علماء أهل السنة. والمحك بالنسبة لنا هو قدرة العقائد على تحريك الجماهير ودفعها إلى استرداد حقوقًا. وقد تمـت صـياغة عقائد الشيعة كعقائد للمعارضة في مواجهة عقائد أهل السنة كعقائد للدولة الرسمية.، ونحـن فـي عصر تجمع فيه عناصر الأمة وتحقق وحدتها. لا يهمنا "الفرق بين الفرق: بل "الجمع بين الفـرق". وكل من يبعث الفرقة فـي الأمـة يلعـب لعبـة الاستعمار القديمة "فرق تسد" (أن هذه أمتكم أمـة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون" (٢١: ٩٢).

وهذا لا يعني أن هناك مخاطر خارجية وداخليـة أمـام الثورة الإسلامية الكبرى في إيران. ولكن الثورة بعـد عـام

ونصف من نجاحها قادرة على تخطيها، يكفي صمودها فـي مواجهة مؤامرات الغرب والشرق. وأهم هذه المخاطر:

١. مؤامرات الشرق والغرب والصهيونية على الثورة.

فقد أتت الثورة لوضـع حـد للهيمنـة الشـرقية وللاستعمار الغربي وللاستعمار الغربي ولتغلغـل الصهيونية في العالم الإسلامي. ولن يتركها هـذا الأخطبوط المثلث حتى ينهي الثورة. وعمـلاؤه بالداخل رهن الإشارة ينتظرون البدأ للقضاء على الثورة. لن يسمح الاتحـاد السـوفيتي أن تكـون الثورة الإسلامية في إيران نقطة جذب للمسـلمين فيه، ومعادية للماركسية بالـداخل. ولـن يسـمح الاستعمار الغربي بهذا التحدي الدائم الذي تمثلـه الثورة بالنسبة له، خاصة وأنه قائم على اسطورة التفوق العنصري والاقتصادي والحضاري. ولن تسمح الصهيونية بأن تكـون الثـورة الإيرانيـة ظهيرا للثورة العربيـة تقضـي علـى التغلغـل الصهيوني في آسيا وتبعث الأمـل فـي الأمـة الإسلامية لتحرير فلسطين، وتضع كل إمكانياتها

البشرية والمادية تحت تصرف منظمـة تحريـر فلسطين.

٢. الاستسلام لمؤامرات الاستعمار للوقيعة بين الثورة الإيرانية والثورة العربية سواء في معارك الحدود مع العراق أو في الخلاف في وجهات النظر مع مصر أو في خوف أنظمة الخليج من أن تكـون الثورة الإيرانية مركز جذب للشعوب الإسـلامية الإيرانية والعربيـة فـي دول الخلـيج. الثـورة الإسلامية واحدة، ونحن مسلمون. وقد أضـرت القوميات بنا حتى تنازع المصـري والشـامي، والعراقـي والشـامي، والمصـري والليبـي، والجزائري والمغربي، واليمني والحجازي حتـى تفتتت الوحدة الإسلامية بالعودة إلـى الشـعوبية القديمة والجاهلية القبلية والطائفية الجديدة حتـى تذهب شوكة الأمة الممثلة في وحـدتها وقوتهـا. وكأن الكواكبي في "أم القرى" كـان علـى علـم مسبق بما يحدث الآن. فوصفهم جميعا في مؤتمر لدراسة أسباب ضياع وحدة المسـلمين وسـائل

استعادة وحدتهم وقوتهم. يريد الاستعمار تحويـل المنطقة كلها إلى دويلات طوائف أو إلى قوميات وشعوبيات وهو يكتل نفسه في احلاف وشركات ومناطق نفوذ ومعسكرات وكان القرآن لم ينتبـه قائلاً "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكـم" (٨: ٤٦).

٣. الصراع الى السلطة أو الانفـراد بهـا وضـعف المؤسسات،وتضارب قراراتها. فكل فرد صاحب الثورة لأنه شارك فيها وصنعها وبالتـالي فهـو وريثها. صحيح أن الخلاف بين الأئمـة رحمـة بينهم ولكن صحيح أيضا أن إجمـاع المسـلمين تعبير عن وحدتهم وقوتهم، والانصياع إلـى رأي واحد بعد المشورة يعطي الأمة القدرة على أخـذ القرار وتنفيذه. ويمكن درء هـذا الخطـر عـن طريق الأسراع في تحويل الثورة إلى دولة، وبناء المؤسسات، وبقاء الأئمـة فـي دور الحارسـين للثورة، فقهاء الأمة، القائمين بـالأمر المعـروف والنهي عن المنكر، وأن تقوم الدولة أي السـلطة

التنفيذية بإقامة الشريعة، وتطبيق الحدود، وإعادة تنظيم الدولة، وإقامة النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، إن بناء الدولة فـي الإسـلام هـو تحقيق لخلافة الله في الأرض التي عينها الله لآدم "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعـل فـي الأرض خليفه" (٢: ٣٠).

٤. لقد استطاع الفكر الإسلامي الثوري الـذي مثلتـه الحركة الثورية الإسلامية في إيـران أن يبـرز للعالم أجمع الإسلام كثورة. وكـان فـي مقدمـة علماء المسلمين الشهيد على شـريعتي وكتاباتـه حول "بناء الذات الثورية" ومحاولات الحسن بني صدر في الاقتصاد بالإضـافة إلـى مجهـودات الأئمة وعلى رأسهم الإمام الخمينـي[٧]. ولكـن مازال الفكر الإسلامي الثوري في حاجـة إلـى مزيد من الأحكام سواء فيما يتعلق بعقائد الشـيعة

[٧] د. ابراهيم الدسوقي شتا: الثورة الايرانية والجذور الاسـتراتيجية، بيروت، ١٩٨٠.

أو بعقائد السنة. مازال في حاجة إلى جراة أكثـر على إعادة الصياغة وتخليص العقائد من معاركها القديمة سواء لدى الشيعة بالتنزيـه والتشـبيه أو الحلول والاتحاد أو الغيبة والتقية أو لـدى أهـل السنة فيما يتعلق بالـذات والصـفات، والجبـر والاختيار، والقدم والحدوث، والنبوة والعصـمة. مازال الفكر الإسلامي الثوري في حاجـة إلـى الخروج من نطاق الإيمان والانفعال والوجـدان إلى نطاق الموضوع والمجتمع والدولة، وإعـادة الربط بين الله والأرض كما هـو موجـود فـي القرآن الكريم في "إله السموات والأرض"، وبين الإيمان والتقدم "لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر" (٧٤: ٣٧)، وإعادة بناء علم العقائد على أنه علم الثورة. فقد انتصر التوحيد كما صـاغه القـدماء على التشبيه والتجسيم والشرك والكفر، ومـازل ينتظر انتصارا ثانيا لدى المحدثين علـى الظلـم والتسلط والطغيان في حياة المسـلمين والفسـاد

والاستغلال والاحتكار والسلب والنهب لثـروات المسلمين.

٥. استمرار الوجدان الثـوري أطـول مـن الـلازم واستغراقه زمنًا أطول قبل أن يتحول إلى نظـام ثوري يجعل النـاس فـي انتظـار الإنجـازات الثورية. فإذا لم تحدث انصرفوا عن الثورة بعـد طول انتظار. ولذلك كان السؤال: ماذا حدث عبد الثورة؟ وهل يكفي تأميم للبنـوك؟ أيـن قـوانين الإصلاح الزراعي؟ أين ملكية الأرض للفلاحين، والمصانع للعمال؟ أين سياسـة الأجـور بحيـث يكون العمل وحده مصدر القيمة؟ أيـن المجتمـع الإسلامي اللاطبقي، حيث يعيش فيه الناس جميعا سواء أمام إله واحد؟ أين إعادة توزيع الثـروات؟ أن التحدي الاعظم أمام الثورة الإيرانية هـو أن يتحول الوجدان الثوري إلى واقع ثـوري، فـي الأرض وفي المجتمـع: القضـاء علـى الفقـر والتخلف والبطالة والأمية، وتعبيد الطرق، وشق القنوات، وبناء المصانع والمستشفيات والمدارس

أي تحويل الثورة إلى دولة كما فعل لينين وعمر بن الخطاب وماوتسي تونج، إن معوقات الثـورة لا ينبغي لها أن توقف الثورة أو أن تمنعها عـن التقدم. فطريق الثورة ليس إلى الخلف بـل إلـى الإمام.

٦. مواجهة قضية القوميات بالعنف والقهر وباستعمال القومة المسلحة والصراع بين القوميـة الكبـرى والقوميات الصغر، وقد حـل الإسـلام مشـكلة القوميات بأن جعل لكل شعب أمة داخـل الأمـة اللإسلامية. فلكل قويمة لغتها وآدابهـا وعاداتهـا وتقاليدها داخل الأمة الإسـلامية الواحـد التـي تحكمها شريعة إسلامية واحدة. وقد كان ميثـاق المدينة النموذج الأول لهذه الأمة. اليهـود أمـة. والنصارى أمة، والمجـوس أمـة عنـد فقهـاء المسلمين، لكل مـنهم كتـابهم، يحكمـون بـه، ويعيشون في أمن الأمة الإسلامية. "ياأيها النـاس إنا خلقناكم من ذكر وأنثـى، وجعلنـاكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله أتقاكم، أن الله

عليم خبير". (٤٩: ١٣). وطالما ظل المسـلمون ضحية الاستعمار الثقافي والنفسـي والحضـاري والغربي ولم يتخلوا عن أثر النعـرات القوميـة الغربية فستظل الأمة الإسلامية فـي شـعورهم الباطن دون أن تخرج لتكسر حصار الطوق.

٧. تأخير العفو العام، والاستمرار في العقاب. صحيح أن الله أمرنا بألا تأخذنا رأفه فـي ديـن الله "ولا تأخذكم بهما رأفة في ديـن الله" (٢٤: ٢). ألا أن حكم الشاق والثورة الإسـلامية مثـل الجاهليـة والإسلام. فالإسلام يجب ما قبله "عفـا الله عمـا سلف" (٥: ٩٥). ولقد عفا الرسول عـن قـريش بعد عام الفتح بقولـه المشـهور "اذهبـوا فـأنتم الطلقاء". ومن ثـم آن الأوان للثـورة الإيرانيـة بإعلان نهاية القصاص والعفو العام، بالإضـافة إلى الحذر الشديد حتى لا تتجمع الجاهليـة مـن جديد. وعلى هذا النحو يمكن للثـورة أن تتوجـه بقواها نحو البناء وأن يتحول أعداء الأمس إلـى أصدقاء اليوم. فنحن في نهايـة الأمـر جميعـا

مسلمون فرقنا الاستعمار وأوقـع بيننـا العـداوة والبغضاء. وعلى هذا النحو أيضا يخف من أعداء الثورة غلواءهم، ولا يجدون ما ينـالون منهـا، وتجلو صورة الثورة في الرأي العـام العـالمي وتصبح براقة كما كانت بعد انتصارها، نموذجـا للثورات الإسلامية التقدمية، تجذب المسلمين من بقاع الأرض ولا يرهبها الناس، وتنـال احتـرام الأمم كلها، وتكون عنوانًا للإسلام الكامل، وتحقيقًا لمثلنا المشهور "العفو عند المقدرة". وتتجه قـوى الثورة للتشييد والبناء والي تحقيق مطالب الأمـة في القضاء على جميع مظاهر التسلط والتخلـف والطغيان وإعادة توزيع ثروات الأمة، وتحريـر أراضي المسلمين وفي مقدمتها فلسطين.

ثالثًا: النخبة الثورية (أفغانستان).

لقد فرح المسلمون جميعا منذ عدة سنوات عندما انقلـب داوود على ابن عمه الملك، فالملكية نظام لا إسلامي. ولكـن سرعان ما طغى وتكبر وأصبح أكثر ملكية من الملك السابق.

اضطهد الثوار، وقتل زعماءهم، وأرسخ الإقطاع، ودعم الفقر، واشتد البلاء بالناس.

وفرح الناس المسلمون مرة أخرى عندما سمعوا بأخبار الثورة ضد داوود والانقلاب عليه بعد عودته من مصر بأيام. وسمعوا عن نور الدين تراقي ثائرا مسلما في نفس الوقت الذي بدأ العالم أجمع يشعر بنهضة الإسلام وبثورة المسلمين، وكأن دعوة الأفغاني لتثوير العالم الإسلامي آتت أكلها بعد مائة عام. ثم سرعان ما تواردت الأنباء عن الثوار المسلمين في الجبال يقاومون النظام الماركسي الجديد في كابول. وماذا كان الثوار الأوائل إذن الذين انقلبوا على داوود؟ ألم يكونوا ثوار مسلمين؟ واشتدت المعارك، وتناقلت الأنباء أخبار القتال. ولم يدر المسلمون من الثوار ومن المسلمون ومن الثوار المسلمون الثوار؟

وفرح المسلمون مرة ثالثة عندما علموا بانقلاب النظام الماركسي بكابول وظنوا أن الثوار المسلمين بالجبال قد استطاعوا القضاء على نظام نور الدين تراقى. ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل بعد ذلك عندما علموا أنها كانت ثورة قصر، وأن جناحا ماركسيا بقيادة حفيظ الله أمين قد قام

بانقلاب ضد الجناح الماركسي القائم، وأنها نخبة ثورية قـد قامت ضد نخبة ثورية أخرى، وأن حزب "خلق" أي حـزب الشعب استأثر بالغنيمة كلها وتخلى عن الوحدة الوطنية للثوار التي كان يريدها تراقى فكان جزاؤه الخنق باليدين في انقلاب القصر.

وأخيرا فهم المسلمون كل شيء أو كادوا بعـد الاطاحـة بحفيظ الله أمين بعد أن رشق الرصاص جسده متدحرجا على سلم"قصر الشعب" فأنتهى الرفيق، وتنصيب بابراك كارميـل بديلاً عنه، وإحلال حزب برشام (الراية) محل حزب (خلق) على أسنة الرماح السوفيتية وعلى صوت جنازير دبابـاتهم، قادما من تشيكوسلوفاكيا، من سفير إلى رئـيس جمهوريـة، وبدأت حرب الإبادة ضد الثـوار المسـلمين، وبـدأ الحكـم السوفيتي المباشر لأفغانستان أمام العالم الإسلامي أجمع بين مؤيد للتدخل وهي الأقلية التي تنسى وحدة الأمة الإسـلامية تاريخًا وحضارة أمام عالمية المذهب السياسي بلا جـذور أو تاريخ، وبين معارض وهي الأغلبية التي تقع أيضا في صف المعسكر الغربي وتنسق معه كي تقبض الـثمن أو حتـى لا تصل إليها الثورات الاشتراكية. وتتم مناهضة التدخل بالفعل

عن طريق المساعدات العسكرية للثوار (مصـر، باكسـتان، إيران) أو عن طريق مجرد الكلمات والنوايا الطيبة والدعاء بالنصر مثل معظم الدول الإسلامية.

وليس الأمر قضية شكلية: هل وقع التدخل السوفيتي بناء على الدعوة الرسمية من الحكومة الشريعة القائمة، حكومـة حفيظ الله أيمن أو أن تلك هي الحجة المقدمة دائمـا لتبريـر التدخل؟ وكيف تدعو حكومة تدخلاً ينقلـب عليهـا ويكـون رئيسه أول الضحايا؟ وكيف تنقلب قوات الغزو على حكومة بدل أن تناصرها؟ وكيف يتم الانقلاب علـى رئـيس دولـة حليف لقوات الغزو ولا يتصور أنه قادر علـى إدارة دفـة البلاد في غيبة السفير السوفيتي مدة خمسة عشر يوما فتـرة انتقال بين السفير السابق والسفير اللاحق؟ ومـاذا نفعـل إذا دعت النظم العميلة للغرب في عالمنا الإسلامي الدول الغربية للتدخل ضد الثورة الوطنية لشعبها؟ أكان شمعون إذن علـى حق دعوته القوات الأمريكية للتدخل إنقاذا له مـن الثـورة الوطنية في لبنان؟ أكان حاكم الأردن إذن علـى حـق فـي دعوته للقوات البريطانية للتدخل في الأردن أثر ثورة تمـوز في العراق في ١٩٥٨؟ أكانت القوات الأمريكية علـى حـق

إذن في تدخلها في فيتنام وسان دومنجـو وتصـبح سياسـة الأساطيل عبر البحار، والقواعد العسـكرية حينئـذ سياسـة مشروعة في انتظار إشارة الحكومات بالتدخل لا فرق فـي ذلك بي شرق وغرب؟ وفي كلتا الحالتين تكون الأنظمة قـد فقدت شرعيتها الداخلية وتأييدها الشـعبي وتكـون عمليـة اللاجنبي، موالية له ضد مصالح الشعوب.

وإذا كانت عناصر النجاح في الثورة الإيرانية ثلاث: قيادة الأئمة، الإسلام كأيديولوجية ثورية شعبية، وجماهير مجنـدة ومسلحة فإن غياب هذه العناصر الثلاث بعينها هـي سـبب تعثر الثورة الأفغانية.

فقد درست النخبة الثورية في الغرب، وتعلمت الماركسية في أمريكا، وما أسهل أن يتم ذ لك في الغرب نظرا لشـيوع الكتابات الماركسية، ووجود الحلقات والأحـزاب والـدوائر الماركسية فأصبحت ثورية على الطريقة الماركسية الغربية. وعادات إلى البلاد تنيظم صفوف المعارضـة. ولمـا كـان الخلاف العقائدي أهم ما يميز الماركسية الغربية أو الشـرقية كما هو الحال في النـزاع الصـيني السـوفيتي أو النـزاع اليوغسلافي السوفيتي أو في الخلاف بين ماركسيات القـرن

العشرين، الإيطالية والفرنسية والألمانية، ونظرا للتطلع إلـى الزعامة في البلاد النامية فقد ظهر هذا الخلاف فـي النخبـة الثورية في أفغانستان بين حزبي "خلق" (الشعب) و "برشـام" (الراية) نظرا لغياب أية وحدة وطنية بينهما وأي اتفاق على حد أدنى من البرامج الوطنية وانتخـاب القيـادات انتخابـا مباشرة من الشعب. فوقعت الحرب بينهما كما وقعـت أيـام الجاهلية الأولى بين القبائل والعشائر، كل منها يرى أنه أحق بالقيادة الثورية وكأن الثورة ملك لأحد، وكأنها لصالح إحدى فصائل القيادة وليست لصالح مجموع الشعب. فما كان أسهل من انقلابات القصور. مات الملك يحيا الملك. إذ يكفي عشر دبابات. اثنتان منها تحيطان بقصر الشعب في كابول، واثنتان منها في حي الوزارات واثنتان على مدخل العاصمة، واثنتان على مداخل جلال أباد حتى يمكن بها السيطرة على المـدن الكبرى.

ولما كانت هذه النخبة الثورية بجميع فصائلها غير نابعـة من الشعب، من تراثه وحضارته وتاريخه، بحثت عن سـند خارجي تجد فيه التأييد، وفي مقابل ذلك تدين لـه بـالولاء. يدفعها لذلك ثقافتها الماركسية الغربيـة. فوجـدت الاتحـاد

السوفيتي، الجار الثوري، محقق ثورة أكتـوبر الاشـتراكية. وبدل أن يكون التعامل معه الند للنـد، والحليـف للحليـف، والصديق للصديق، بصرف النظر عن ميزان القـوى بـين الدولتين، أصبحت الكفتان غير متعادلتين فكانت الصلة بينهما صلة الأمر بالمأمور السيد بالعبد، الدولة الكبـرى بالدولـة الصغرى، المركز بالمحور، الوصى على الموصى عليه![8] وأصبحت الثورة الأفغانية "انقلاب ثور" كما يقـول قادتهـا، "الأبنة الشرعية" لثورة أكتوبر. فضاع الاسـتقلال الـوطني للبلاد. مع أن الثورة الفيتنامية ذاتها قد قامت علـى الشـعار المحفور تحت تمثال هوشى منه في مدينة هوشى منه "لـيس هناك أعز على الشعوب من الاستقلال الوطني". ولا توجـد ثورة بنت ثورة أو أخت ثورة أو أم ثورة. بل الثورات كلهـا

[8] في دعوة على الغذاء على مائدة حفيظ الله امني في قصر الشـعب لاعضاء الهيئة التأسيسية لوضع الدستور وأعضاء وفد منظمة تضامن الشعوب الاسيوية والافريقية سأل حفيظ الله أيمن سأل السفير الـوفيتي بوزانوف: متى سترحل؟ فأجاب بعد غد. فسأل امين من جديـد: متـى سيأتي السفير الجديد تابييف؟ فأجاب بعد عشرة أيام. وهنا أنزعج حفيظ الله أمين قائلا: وهل ستتركوننا بلا سفير لمدة عشرة أيام!

على قدم المساواة، تنبع من الرادة الوطنية المستقلة للشعوب، تتقابل على طريق واحد على قدم المساواة ولا تتوالـد مـن ثورة أم. وكان للخبراء السوفيت الذين يقومون ببناء سد خيبر على نهر خيبر مركز الصدارة في الـدعوات، نجـوم فـي المدين، تفخر بضوئها. ينافسون الأمة الإسلامية في المساعدة وتقديم العون، ونحن نشعر بالغيرة ثم بالحسرة على أننـا لا نستطيع أن نمد إليهم أيضا نفس العون. أهلنا يعاونهم الغرباء ونحن عاجزون عن معاونة حتى أنفسنا.

وكانت الأيديولوجية السائدة الماركسية اللينينية. وكانـت الشعارات كلها مستمدة منها تؤكد انتصار البروليتاريا الدولية في بلاد أمي لم يسمع عن البروليتاريا، ومنعزل لا يعرف عن العالم الخارجي شيئًا. وكانت الشـعارات تؤكـد ضـرورة الصراع الطبقي لدى شعب لا يوجد لديه وعي طبقي. كانت الماركسية لدى القادة بسيطة سطحية مدرسية سـاذجة مثـل القرآن المحفوظ بلا فهم بحيث طغى التخلف على الماركسية وابتلعها، فاستمر التخلف في ثوب ماركسـي، فالماركسـية ليدهم ثلاثة أشياء: الماديـة الجدليـة، والصـراع الطبقـي، ودكتاتورية البروليتاريا، ولا يكون الإنسان ماركسـيا ألا إذا

آمن بهذه العناصر الثلاث! وكيف يتم الإيمان بالمادية الجدلية في مجتمع توجهه الاسـطورة والرمـز، ويسـوده السـحر والخرافة، ويوجه الدين تصوراته للعالم؟ وكيف يتم الإيمـان بالصراع الطبقي في مجتمع تغلب عليه فكرة وحـدة الأمـة والعروة الوثقى؟ وكيف يتم الإيمان بدكتاتورية البروليتاريـا والبروليتارليا نفسها لا وجـود لهـا والموجـود هـو فقـط دكتاتورية النخبة الثورية أو بـالاحرى أحـد اجنحتهـا؟ ولا يدخل الحزب ألا من كان ماركسيا وبالتالي تم استبعاد كـل الوطنيين من العمل السياسي والمشاركة فـي بنـاء الدولـة والحفاظ على الثورة. حتى أبسط الأمور كانت مستمدة مـن ماركس ولينين. فإذا ما دعت النخبة الثورية الشـعب إلـى العمل استشهدت بأقوال "لينين العظيم" وكأن "وقـل اعملـوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" (٩: ١٠٥) ليست في وجدان الناس.

وكانت النخبة الثورية تتصور الدين كالآتي[٩].

---

[٩] تم ذلك في مناقشات مع حفيظ الله امين وباقي أعضاء النخبة الثورية الحاكمة.

١. أن الدين تربية شخصية في الأسرة، ينشـأ عليهـا الفرد، شاهدا أن لا إله إلى الله وأن محمد رسول الله، مصليا، صائما، مزكيا، حاجا لو استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن ثم فالنخبة الثورية مسلمة بهـذا المعنى، ولا حرج بعـد ذلـك مـن أن يتبنـى الماركسية الغربية كإطار نظـري أو كبرنـامج للعمل الثوري، فهو مسلم بالشريعة، وماركسـي بالتكوين. وفي نهاية الأمـر الـدين لله والوطـن للحزب! وفي ذلك مقتل للإسلام وتحويلـه إلـى مسيحية وكهنوت، وطقوس وشـعائر. والإسـلام الماركسي بهذا المعنى ماركسي المضمون مسـلم الشكل.

٢. أن الدين بأفغانستان بخير، هناك قرآن في الصباح وقرآن في المساء، في إذاعة كابول، والبـرامج الدينية منتشر، والمساجد تم طلاؤهـا، ورفعـت مرتبات رجال الدين، وكأن الدين سلعة تجارية أو متاحف أو طقـوس. ولا حـرج فـي أن تبقـى الشعوب فقيرة جاهلة، وأن يكون نظـام الدولـة

علمانيا، ماركسيا غربيا. فالدين مؤسسة ترعاهـا الدولة. وفي ذلك أيضا مقتل للإسلام. فالإسـلام ليس متحفًا للإسلام بل هو حياة الناس ونظـامهم ومجتمعهم ودولتهم.

٣. وأكثر من ذلك، يكون الدين في رأي النخبة الثورية "لأفيون الشعب" كما هو في النظرية المحفوظـة، مخدرا للجماهير، يتم به خداع النـاس. والنخبـة الثورية لا تريد خداع الشـعب بعـد الآن. أمـا الإسلام كثورة ضد العبودية والاضطهاد وكنظام اجتماعي يقوم على المساواة والعدالة الاجتماعية فذاك غير معروف، ولم يتبادر إلى الأذهان، ولم تسمع به النخبة الثورية قبل ذلك، ولـم تـدر أن الماركسية اللينينية قد حركت صـفوة المجتمـع وعزلتهم عن غالبية الشعب الذي ظل تحت أثـر الافيون. وأن الأولى كان تحويل الأفيون إلى منبه حتى تستيقظ الجماهير وتأخذ مصائرها بأيـديها دون وصاية عليها من النخبة الثورية.

٤. أن الدين أيديولوجية غير علميـة لا تسـتطيع أن تصمد في مواجهة التحليل العلمي للواقع والتحليل الاجتماعي لحياة الناس. وهو موقف الماركسـية الوضعية في القرن التاسع عشر الأوروبي والذي تجاورته ماركسية القرن العشرين ذاتهـا التـي تعتبر الدين حركة ثورية للشـعوب المضـطهدة وصرخة المضطهدين للطبقات المحرومة. وقـد استطاع الدين أن يكون حركات تحرر وطني في جنوب إفريقيا وفي فيتنـام وفـي الصـن وفـي الجزائر وفي أمريكا اللاتينيـة[١٠]. ومـاذا عـن عقلانية الإسلام التي بدت فـي الفلسـفة وفـي الاعتزال وواقعيته التي بدت فـي علـم أصـول الفقه؟ إن الإسلام في حقيقة الأمر ديـن بمعنـى خاص، وليس بالمعنى الغربي أي مجموعة مـن

---

(١٠) انظر مقالنا: كاميلوتوربز، القديس الثائر، قضايا معاصرة (١) في فكرنا العربي المعاصر ص ٢٨١ – ٣١٨ دار الفكر العربي، القاهري ١٩٧٦.

الأساطير والخرافات والعقائد التي يصفها العلم وتعوق التقدم. الإسلام دين يقوم على العقل ويعتمد على البرهان، ويعترف بحتمية قوانين الطبيعة، ويجعل الحس والمشاهدة والتجربة مصادر للمعرفة بالإضافة إلى العقل كمقياس لصدق الوحي. ويؤسس حياة الناس في نظام اجتماعي محدد على ما هو معروف في كتب الفقه الإسلامي وفي النظم الإسلامية.

٥. لذلك هناك فصل بين الدين والدولة. الدين ميدانه المسجد، والدولة ميدانها النظم السياسية، الدين حياة شخصية للأفراد، والدولة حياة عامة للمجتمعات. وعلى هذا النحو يتم القضاء على الإسلام ويتحول إلى مسيحية أو بوذية في حين أنه لا رهبانية في الإسلام. يتحول الإسلام إلى عبادات فقط دون معاملات، والي علاقة ميتة بين الإنسان وربه وليس علاقة حية بين الإنسان ومجتمعه. وهو التصور الغربي الذي حدث نتيجة للصراع بين الكنيسة والدولة في الغرب عندما

تسلطت الكنيسة فقضـت علـى حريـة الفكـر، وأرسخت نظام الإقطاع فاندفع المفكرون والعلماء والثوار للـدفاع عـن حريـة الفكـر والعدالـة الاجتماعية وتم حصار الدين في زاوية العبادات.

٦. أن تاريخ أفغانستان هو تاريخ البوذية! وأن المتحف الوطني هو المتحف البـوذي كمـا أن المتحـف الوطني بالخرطوم فـي السـودان هـو تـاريخ المسيحية في النوبة ووادي النيل، فتتصدر المدخل صورة السيد المسيح ممدا ذراعيه محتويا الـبلاد كلها يرعاها ويحميها، وكأن الشعوب الإسلامية لا تجد تاريخًا في الإسلام الذي انتشر منذ الصحابة، وكأن الإسلام لا يتمثل في تاريخ الأمة ويصـبح رافدها الأساسي كما حدث في إيـران ومصـر. وهو تصور غربي للمتـاحف كتـاريخ للنقـوش بصرف النظر عن التراث الحي في قلوب الناس وتراكم التراث الإنساني حتى يكتمل في حضارة التوحيد.

٧. أن الثورة الإسلامية الكبرى في إيران لم تفعل شيئًا! بل أنها استبدلت شاه آخر دون أن يحدث تغيير في البناء الطبقي للمجتمع. مازالت أدوات الإنتاج في أيدي الطبقة الغنية القديمة، وبالتالي فهي ليست ثورة بل انقلاب! وكأن الانتقال من التسلط إلى الحرية، ومن التغريب إلى الهوية الإسلامية كهوية قومية، كل ذلك ليس شيئًا. فالثورة الماركسية الغربية تغيير لنظام المجتمع ولكن بنقل المجتمع كله إلى ثقافة غربية تدعي الشمول والعالمية، وتنكر خصوصية الثقافات المحلية للشعوب. مع أن الثورة الأفغانية كان بإمكانها أن تكون امتدادا للثورة الإسلامية بإيران، وان تكون الثورة الإسلامية بإيران ظهيرا للثورة الأفغانية كما أنها ظهير للثورة العربية. فنحن جميعا مسلمون، نجد تأييدنا بين ظهرانينا وليس عند الغرباء الأغيار.

٨. أن أفغانستان دولة مستقلة ذات سيادة لها حدود دولية لا شأن لها بباكستان أو إيران إذا ما تم

احترام الحدود. ومن ثـم يمكـن التعـاون بـين أفغانستان والدولتين المجـاورتين مـن منطلـق الاحترام والسـيادة المتبـادلتين وكـأن الأمـة الإسلامية لا وجود لهـا، وكـأن هـذه الحـدود المصطنعة في أواسط آسيا مثل تلك التـي فـي المنطقة العربية ليست من صنع الاستعمار، وكأن السيادة في الأمـة الإسـلامية ليسـت للشـرع الإسلامي والنظام الإسلامي! إن الثورة الأفغانيـة ليست ثورة داخل حدود صنعها الاستعمار بل هي ثورة جزء من الأمة الإسلامية، عليهـا وجـاب بالنسبة لاجزاء أخرى، ولو كانت ثورة إسـلامية تهدف إلى تحرير الأمة الإسلامية من الاستعمار والإقطاع والرأسمالية والتسلط والطغيـان والـي تحقيق الوحدة الإسلامية. وبدلاً من أن يسـتوطن الاستعمار في باكستان لماذا لا تنتشـر الثـورة الإسلامية في باكستان من إيران أو أفغانسـتان؟ وأيهما أولى بباكتسان الاسـتعمار أم الإسـلام؟

أمريكا أم إيران و أفغانستان؟ الصليبيون الجدد أم المسلمون الثوار؟.

٩. لقد قامت النخبة الثورية بعد إصلاحات في ميـدان الدين. فألغت المهور المرتفعة، وقررت ألا تتعدى المهور خمسا وعشرين قرشًا. وقد كانت المهور المرتفعة مانعا من زواج الشبان. وبـالرغم مـن أهمية هذا الإصلاح إلا أنه لا يتم بقرار بل بتغيير عادات الناس وبوعيهم الإسلامي الصحيح. هـذا الإصلاح ليس فقط جلبا للمنفعة ودفعـا للضـرر ولكنه أيضا عـود للإسـلام الأول إلـى قلـوب المسلمين. بالإضافة إلى أن الإصلاح في ميـدان الأحوال الشخصية وهو ميدان المبارة الأول فـي مصر بين المتنطعين، لا يكفي. الإصـلاح يـتم أيضا في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياية: لمن الأرض، ولمن المصنع، ولمن المتجر. ولمن الجامعة؟.

١٠. أما الثوار المسلمون فهم في رأي النخبة الثوريـة رجال دين، رؤساء طرق صوفية، ملاك الأرض،

إقطاعيون، مشعوذون دجالون لصوص، هربوا بعد قانون الإصلاح الزراعي خوفًا من اكتساب استيلائهم على أراضي الفلاحين بلا عقود، وبلا حق وبغير سند. خافوا النخبة الثورية، وهربوا إلى باكستان فتلقفهم الاستعمار الغربي والإقطاع الباكستاني وأمدوهم بالرجال والأموال من أجل استعادة أراضيهم التي وزعها الإصلاح الزراعي على صغار الفلاحين حتى تعود الأرض إلى أصحابها الشرعيين. فهي حرب مصلحة شخصية وليست حربا وطنية. ولا تكاد النخبة الثورية تذكره علنًا بالرغم من اشتداد المعارك على الجبال وعلى حدود باكستان. وبصرف النظر عن صدق هذا التصوير أو كذبه فإنه مما لا ريب فيه أن فريقًا من رجال الدين ترك البلاد لينظم المقاومة الشعبية للنظام الماركسي من خارجها، مما سمح للاستعمار وللإقطاع باستخدام لعبة الدين ضد الإلحاد، والإسلام ضد الماركسية.

١١. أما رجال الدين، من بقى منهم في كابول، هيئـة كبار العلماء فإنهم يقـرأون البخـارى ومسـلم، ويبحثون في الكتـب القديمـة، ولهـم دار فـي الوزارات تم طلاؤها، ولقياداتهم عربات حكومية فارهة. يتحدثون العربية، وينظرون إلى الأزهر. منهم أعضاء فـي إلهيئـة التأسيسـية لصـياغة الدستور لا يتكلمون فيها، ويشعرون بالنقص أمام العلمانية والعلم الغربي. يخفون في قلوبهم مـا لا يعبرون عنه بألسنتهم، والـرؤوس خاويـة. إذا سألتهم كيف برروا حكم الملك المظفر، ثم حكـم داوود، ثم كيف يبررون النظام الماركسـي الآن وأين استقلالهم بالنسبة للدولة، ودورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيـادتهم للأمـة الإسلامية، وتصديهم للقضايا المصرية التي تعـم بها البلوى؟ قالوا: وماذا عـن علمـاء الأزهـر، وتبريرهم للنظم السياسية، مرة اشتراكية ومـرة رأسمالية وماذا عن علاقتهم بالدولة؟ فنحن مـنهم وهم منا، ولكنا في الهوى سواء!

إذا أبديت لهم بعض الانتقادات لما يحدث في أفغانسـتان سلموا بها ولكنهم لا يبدأون الكلام ولا يأخـذون المبـادرة. يسيرون في الخلف ولا يسيرون في المقدمة. علماء الشـيعة أكثر جرأة في النقاش فـي اللجنـة التحضـيرية لصـياغة الدستور. وأمام صمت أهل السنة أو تأييدهم للحكـام يصـر علماء الشيعة على أن يذكر في الدستور حماية الفقراء. ولـم يكن من السهل الاتصال برجال الدين. فهم وحدهم في البلاد الإسلامية أساس المعارضة و رصـيدها الأول. ولا يمكـن الاتصال بهم ألا من خلال الدولة و بعلمها وتحت إشـرافها حتى لا يتوحد عالم الدين مع ذاته ويعبر عما في قلبه ويكسر نطاق الخوف ويخرج عن الحصار. تمنع رجال الـدين فـي البداية من الحديث والدولة تسمع وترى. ومهما تم تشـجيعهم يظلون منزوين في ثقافتهم التحتية في الـبلاد وفـي الأمـة الإسلامية.

أما جامعة كابول فهي على العكس من جامعة طهـران، مهد الثورة وكعبتها، خواء تام باستثناء شعارات الماركسـية اللينينية التي يرفعها الحزب في كل مكان والتـي لا يلتـف حولها أحد، وطلاب الحزب الذين يلؤون مـدرجا، يجمعهـم

الحزب في المناسبات الرسمية أشبه بما كان يتم في الثـورة المصرية في هيئة التحريـر والاتحـاد القـومي والاتحـاد الاشتراكي. وعندما تغيرت القيادة الثورية لم يجد أحد هـذه التنظيمات لحماية الثورة ومكتسابها. والعجيـب أن النخبـة الثورية كانت تشعر بقيمة ناصـر، وتقـدر حسـه الشـعبي بمشاكل الجماهير، الفقر والخبز اليومي، وكانت تتمثله فـي مرحلة إعدادها النضالي. ولكنها كانت تفتقر إلى شعبيته كما كانت تشارك معه في افتقار كليهما إلى الاعتماد على ثقافـة الأمة وتراثها

لتثوير الجماهير. فلا الماركسية اللينينية ولا الاشـتراكية العربية تمسان شغاف قلوب الجماهير كمـا يفعـل القـرآن والسنة.

كان الشعب في واد والنخبة الثوريـة فـي واد آخـر. إذ يسكن الشعب في المدن الكبرى وفي سفوح الجبال وجحورها وفي الوديان والسهول. لا يعرف حدودا فـي الجبـال بـين أفغانستان وإيران وباكستان. معظمه من الرعاة والفلاحـين، تنقصه المياه والكهرباء. تسوده الأمية، ويعمه الفقر. ليس به طبقة عاملة تكون حليفة البروليتاريا الدوليـة! لـيس لديـه

مصانع تتكون فيها الطبقة العاملة ألا مـن مصـنع تصـليح للسيارات وآخر لحلج القطن واستخراج العلف من الكسـب، وكلها كانت موجودة قبل "انقلاب ثور" الأبنة الشرعية لثورة أكتوبر العظمى. هناك "ميليشا" الحزب، تهتـف بشـعارات الحزب كما كانت تفعل منظمات الشـباب لـدينا، وتمسـك بالمدافع الرشاشة، تعمل للنخبة الثورية، والشعب طيع تـارك الأمر لأولى الأمر. ويهذب إلى المساجد، يوقوم بـالفرائض الثورية، وتهجد على نور السراج الزيتي، يبيع العنب والتفاح على الرصفة. نخبة ثورية وشعب مسـتكين! نخبـة بيـدها السلطة، وشعب لا سلطة له.

وفي واقع الأمر في الأمة الإسـلامية لا يكـون السـند الحقيقي للنخبة الثورية هو الحزب الثوري وحده بل جماهير المسلمين. ولا يكون الفكر الجذري الذي يربط النخبة الثورية بالشعب الماركسية اللينينية بل تراث الأمة وتاريخها وقيمهـا ودينها بعد أن يعاد بناؤها ثوريا كما يفعل ماوتيسي تونج في أول الثورة الكونفوشيوسية كمنطلق ثوري، وكما فعل هوشى منه مع التراث الوطني الفيتنامي، وكما فعل رهبان البوذيـة مع البوذية في فيتنام أثناء حركة التحرر الوطني، وكما فعل

الرهبان الشبان في أمريكا اللاتينية الكاثوليكية[11]، وكما فعل اليجيا محمد مع الإسلام في أمريكا ضد العنصرية البيضاء، وكما كان الإسلام في الجزائر إبان حرب التحرير[12].

فماذا كانت النتيجة لذلك كله؟ غزو أجنبي مـن الاتحـاد السوفيتي مادام النظام مواليا له، وقلب لعميل واحلال لعميـل آخر، وتنكر للشعب الأفغاني المسلم وقتل له، وقضاء علـى الاستقلال الوطني للبلاد، وتحول بعض علماء الأفغان إلـى صفوف المعارضة، وانضمام فرق من الجيش الأفغاني إلـى صف الشعب ضد النظام، وبداية المقاومة الشعبية الفعلية ضد النخبة الثورية التي تجد سندها في جيش الاتحـاد السـوفيتي وليس لدى الشعب الأفغاني. كما يجد الاتحاد السوفيتي نفسـه وكأنه أمام مجر أو تشيكوسلوفاكيا أخـرى. ويكـون حـظ أفغانستان لديه أقل من حظ بولندا بعد اضـرابات العمـال.

---

[11] انظر مقالنا السابق، كاميلوتوريز، القديس الثائر.

[12] انظر مقالنا: حركة الإسلام السوداء بأمريكا في كتابنـا "الحـوار الديني والثـورة" (بالانجليزيـة) ص ٢١٣ – ٢٢٤، مكتبـة الأنجلـو المصرية القاهرة ١٩٧٧.

وهكذا تبدو روسيا القيصرية من جديـد، تجـذب أطرافهـا وتحتل أراضي جيرانها بدعوى المحافظة على النظـام. وأي نظام لا يستطيع المحافظة على نفسه يكون غير جدير بالبقاء. وبدعوى التدخل الاستعماري في شئون أفغانستان من حـدود باكستان يتم التدخل السوفيتي المباشر وكأن الاتحاد السوفيتي ينصب نفسه حاميا للنظم الماركسية في العالم كمـا نصـبت أمريكا نفسها حامية للنظم الغربية في العـالم هيمنـة هنـا، استعمار هنا واستعمار هناك، لا فرق بين ذلك وذاك.

أن الاستقلال الوطني للشعوب يسـبق نوعيـة نظامهـا السياسي وإلا وقعنـا فـي الأحـلاف والهيمنـة وسياسـة المعسكرات ومناطق النفوذ. ودخلت جميع الشـعوب تحـت وصايا النظم الشمولية غربية كانت أم شرقية. والمصـالحة الوطنية داخل أفغانستان بين فصائل النخبة الثورية أو بـين النخبة الثورية الماركسية اللينينية وبين المعارضة الوطنيـة إسلامية كانت أو ليبرالية تسبق نوعية النظـام. وان نظامـا ليبراليا قادرا على تحقيق الوحدة الوطنية لخير مـن نظـام ماركسي يقوم على التجزئة والتفتيت لوحدة الشعب. كمـا أن وحدة الشعبين المسلمين في أفغانستان وباكستان تسبق تأييـد

الأغيار للنخبة الثورية في أفغانستان. وكما هو في مثلنا الشعبي "أنا وأخويا على ابن عمي، وانا وابن عمي على الغريب".

لقد كانت الثورات الكبرى ثورات وطنية وكان الحزب الماركسي اللينيني عصبها ومحورها وبؤرتها وأكثر الأحزاب فاعلية وقدرة على التحليل واتخاذ القرار. حدث ذلك في الثورة الصينية العظمى، والثورة الفيتنامية والثورة الكوبية والثورة الجزائرية ويحدث نفس الأمر في الثورة الفلسطينية. بل أنه في بعض الاحيان كان الحزب الماركسي اللينيني تطورا طبيعيا للاحزاب الوطنية، تاليا عليها وليس سابقًا لها. ولكن يبدو أن النخبة الثورية تضع العربة أمام الحصان.

والعجيب أن تؤيد بعض الأنظمة التقدمية في العالم العربي الغزو السوفيتي لأفغانستان وكأن وحدة المذهب السياسي تجب الاستقلال الوطني للشعوب المستقلة وتتجاوز وحدة الأمة الإسلامية ومصيرها المشترك. وأن تقف منه بعض الأحزاب التقدمية في مصر موقفًا غامضا وكأن الاستقلال الوطني لأي شعب موضوع مساومة وجزءا من اللعبة على

مسرح السياسة في الساحة الدولية وتوازن القوى الرجعية في العالم الإسلامي إلى أخذ مواقف أكثر تقدما مـن الأحـزاب التقدمية والأنظمة الثورية في العالم العربي. بل أن الاستعمار الغربي نفسه بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية قد نصب نفسه مدافعا عن الاستقلال الوطني للشعوب وأدان التدخل السوفيتي في أفغانستان فأصبح الأصدقاء هم الأعداء، والأعـداء هـم الأصدقاء. وعدو عاقل خير من صديق جاهل.

رابعا: الثقافة التحتية (الاتحاد السوفيتي).

تنقسم الاتجاهات حول المسلمين في الاتحاد السوفيتي إلى نوعين: الأول يقوم به أصدقاؤه خاصة في الشرق، لدينا فـي قلب العالم العربي وداخل الاتحاد السوفيتي لبيان مـدى مـا أحرزه تحديث مجتمعاتهم من تقـدم فـي العلـوم والفنـون الصناعات بفضل الثورة الاشتراكية الكبرى التـي أعلنـت بلسان لينين مؤسس الدولة الاشتراكية مساواة جميع شـعوب الاتحاد السوفيتي وقومياته وأجناسه والاعتراف بحرية العبادة

لجميع الأديان[١٣]. والثاني: يقوم بها أعداء الاتحاد السوفيتي داخل العالم الإسلامي وخارجـه لمهاجمتـه وبيـان مـدى الاضطهاد الذي يعاني منه المسلمون هناك والذي يبلغ مـداه إلى حد الشائعات التي تروجها عنه أجهزة الإعلام الغربيـة وامتداداتها في الوطني العربـي والإسـلامس مـن حـرق للمصاحف، وغلق للمساجد، ومنع الأذان وتحريم الصلاة[١٤].

وحقيقة الأوضاع هناك لا مع أولئـك ولا مـع هـؤلاء. مهمتنا وصف الأوضاع كما هي عليه من وجهة نظر الأمـة الإسلامية التي تضم جماهير المسلمين وليس من وجهة نظر الأمة أصدقاء الاتحاد السوفيتي أو أعدائه. لا يهمنا الدفاع عن

---

[١٣] ومن أمثال هذا النوع كتاب يوسف صديق: المسلمون في الاتحـاد السوفيتي وكتب الدعاية السوفيتية من الجمهوريـات الإسـلامية التـي تصدرها نوفستى.

[١٤] ومثل هذا النوع مقالات الاخوان المسلمين فـي مجلـة "الـدعوة" وأيضا كتاب.

- Hélène Carrére d'Encausse L'Empire édate, Flammarion, Paris, ١٩٧٨.

الاتحاد السوفيتيت أو الهجوم عليه بل يهمنا وضع الحقـائق نصب أعين الأمة السلامية.

ولا يهمنا أيضا نبش الماضـي كمـا تفعـل الدراسـات المعادية، وإعادة تذكير الناس بما فعله القيصر للقضاء علـى الإمارات الإسلامية المستقلة وضمها إلى روسيا القيصـرية ومدى ما كان يعانيه المسلمون من اضطهاد وقهـر وكـأن الاستعمار الغربي لم يفعل نفس الشئ في الجزائر ولا يـزال يفعل في الفلبين، فكل القوى الكبرى تجاه المسلمين سـواء. ولا يهمنا أيضا وجهة نظر الاتحاد السوفيتي ذاته من رفـع ليني لشتى أنواع الاضطهاد الديني والقهـر والتسـلط عـن المسلمين تدعيما للثورة الاشتراكية الكبرى التي تريد تثبيـت قواها وترسيخ قواعدها. كما لا يهمنا أيضـا الإحصـائيات الحديثة التي تبين مدى تقدم المسلمين في التعليم والزراعـة والصناعة والدخل الفردي، ومدى ما يتمتعون به من حريـة لإقامة الشعائر الدينية. فتلك إحصائيات رسمية الهدف منهـا الدعاية والإعلان، إنما يهمنـا حـال الإسـلام فـي قلـوب المسلمون ومدى توقفه أو امتداده، انعزاله أو انتشاره، تحوله إلى ذاتية ضامرة أو إلى موضوعية قائمة. ولا يهمنـا ثالثًـا

الشهادات الواقعية التي يرجع بها الزوار الأجانب من مشايخ الأزهر والعلماء والمفكرين والسياح شاكرين بحسن الضيافة حامدين الله على كل شيء. ولكن الذي يهمنا هو تقديم هـذه الحائق من منظور تاريخي، وبنظرة مسـتقبلية فـي قلـوب المسلمين وكيفية تحويلها إلى حركة طبيعية بصرف النظـر عن مصالح الدول الكبرى، هذه أو تلك. وسنقصر الحـديث على حال الإسلام عند المسلمين فـي أوزبكسـتان كبـرى الجمهوريات الإسلامية[١٥]. والتي تضم الآن حوالي الخمسين مليونًا من المسلمين في غياب الإحصائيات الرسمية إما عمدا أو إخفاء لحقيقة تزايد النسل عن المسـلمين وكيـف أنهـم سيصبحون في نهاية القرن أكبر من تعداد الـروس البـيض (الذين يبلغون الآن مائة وعشرين مليونًا) أو عن غير عمـد نظرا لعدوم وجود إحصائيات سكانية في الاتحاد السـوفيتي

---

[١٥] أوزباكستان وعاصمتها طشقند، وتركمانستان عشقاد، أذربيجـان – باكو، طاجكستان – دوشنبه، قرغيزا – فرونزه، تترسـات – كـازان، باشكيريا – أوفا، قازقستان – الماآتا، شعوب القوقاز الشـمالي، ولـم نتعرض للاسف لاحوال المسلمين في الصين.

تأخذ الدين في الاعتبار، ولكنها في أغلب الأحوال تقدر المسلمين بحوالي ثلاثة ملايين من المسلمين أي أقل من تعدادهم بحوالي ست عشرة مرة! وهو يشابه أيضا وضع العرب المسلمين في إسرائيل منذ ١٩٤٨ حتى الآن وتزايد عددهم حتى أنهم سيفوقون في الكم عدد سكان اليهود في نهاية هذا القرن أيضا. وما يصدق على أوضاع المسلمين في أوزبكستان يصدق أيضا على أوضاعهم في باقي الجمهوريات الإسلامية دون ما تجن أو مغالاة.

كانت الأوضاع في البلاد الإسلامية في آسيا قبل ثورة أكتوبر مثل الأوضاع الغالبة على جميع الشعوب الإسلامية: تسلط الأمراء، طغيان الحكام، نهب ثروات المسلمين. ويسهل أن يرى الإنسان القصر الصيفي والقصر الشتوي لآخر أمراء بخارى الذهبي هرب من وجه الثورة الاشتراكية. كان أمراء المسلمين يعيشون كالملوك، وينظرون إلى المسلمين كقطيع الاغنام يسقونه ويحلبونه ويجزرونه كيفما شاءوا. قهروا الفلاحين ونهبوا محصولهم، واثقلوا كواهلهم بالضرائب لدفع الجزية لقيصر روسيا ولخزانة الأمير. قمعوا الثوار المسلمين، وقتلوهم وشردوهم، هؤلاء الثوار الذين كان

بامكانهم لو انتصروا تغيير وجه الإسلام في آسـيا. كـانوا ثوارا باسم الإسلام حتى قبل أن تندلع ثورة أكتـوبر ١٩١٧، وكانوا جزءا من الحركة الإصلاحية الثورية الكبـرى التـي بدأها الأفغاني. شاع اضطهاد العلماء والمفكرين، ومن بينهم (ألوغ بك) أكبر عالم فلك أنجبته آسيا الوسطى. حولت الثورة الاشتراكية مرصده إلى متحف، وعلى حائطه لوحـة تمثـل مقتل(ألوغ بك) وسكين الأمير على رقبته، والمناظر المكبرة إلى جواره، وعلى الحائط الآخر لوحة جدوإلـه التـي فيهـا حساب دورات الافلاك والتي لا تبعد عن الحسابات الحاليـة إلا ببضع ثوان! وتفخر الثورة الاشتراكية بأنها حولـت هـذه الشعوب من الجهل إلى العلم، ومن الإرهاب إلـى الحريـة، وكأن ا لعلوم التي أقامها المسلمون لم تنشأ في ظل الإسـلام وبدافع منه. كانت المرافق العامة لا وجـود لهـا. فالمـدن القديمة ببخارى وطشقند وسمرقند حواري وأزقـة، وسـكان يغلب عليهم الفقر والجوع، وأمية بلغت أكثر من ٩٠% مـن مجموع السكان. مثل هذا النظام والذي كان له ما يشابهه في أنحاء العالم الإسلامي كان لا يمكن أن يدوم، وكان لابد لقوى

جديدة أن تزحف وتقضي عليه "ألا يرون أنا نـأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون" (٢١: ٤٤).

لقد حدث التوسع أيام القيصر منذ القرن الماضي. فاحتـل الإمارات الإسلامية في آسيا الوسطى. وكان يكتفي بان يدفع له الأمراء الجزية السنوية. وكان هناك اتفاق في النظام بـين طغيان القيصر وطغيان الأمـراء علـى حسـاب الشـعبين الروسي والإسلامي في آسيا. فلما اندلعت الثورة الاشتراكية في روسيا أراد لينين أن يحول الثورة إلى دولة. أراد أيضـا الإبقاء على روسيا القيصرية كأراضي دون الانتقاص منها. وساعده على ذلك ابتداء الثورة في الإمارات الإسلامية تحت أثر الثورة الاشتراكية في روسـيا. وسـواء طلـب الثـوار المسلمون مساعدة لينين أم لم يطلبوا فقد كانت حجة التـدخل الأجنبي باستمرار أنه أتى بناء علـى دعـوة رسـمية مـن الحكومة الشرعية للبلاد! انضمت القوات الثورية الاشتراكية الروسية الحديثة إلى الثوار المسلمين وأنهوا حكم الطغيان.

وقد وجه لينين نداء إلى "مـن دمـر قياصـرة روسـيا وظالموها مساجدهم ومعابدهم وداسوا معتقداتهم وعـاداتهم". وجاء في النداء "يعلن من الآن فصاعدا بان عقائدكم وعاداتكم

ومؤسساتكم القومية والثقافية حرة مقدسة. نظمـوا حيـاتكم القومية في ظل الحرية والجو الخالي من العقبات. لكم الحق في ذلك. كونوا على بينة من أن حقوقكم شان جميع حقـوق شعوب روسيا تحميها الثورة وهيآتها بكافة قواها..."[16] كما أعاد لينين مصحف عثمان. ففي سنة ١٨٦٨ بعـد اسـتيلاء القوات القيصرية على سمرقند بوقت قصـير عثـر حـاكم تركستان العسكري على هذا المخطوط القـديم فـي مسـجد "خواجه أحـرار" وأرسـله إلـى المكتبـة الإمبراطوريـة ببطرسبورج. كما تكونت أربع ادارات دينية تـنظم شـئون المسلمين في الاتحاد السوفيتي: الأولى للاتحـاد السـوفيتي الأوروبي وسيبريا، والثانية لآسيا الوسـطى وكازخسـتان، والثالثة للقوقاز الشمالي وداغستان والرابعة لما وراء القوقاز. كما قام الاتحاد السوفيتي بترميم المساجد والآثار الإسـلامية باعتبارها ثروة قومية. وفي الجمهوريات الإسلامية تقرر أن تكون اللغة العربية إحدى اللغات التي يتعلمها الطـلاب مـع

---

[16] حياة المسلمين في الاتحاد السـوفيتي ص ١ صـدر عـن الاداره الدينية لسلمي قسم الاتحاد السوفيتي الاوربي وسيبريا – أوفا، بشكيريا.

اللغات الوطنية مثل الأوزبكية بالإضافة إلى اللغة الروسـية، لغة الاتحاد. وتم تشييد مدارس دينية خاصة لتخريج علمـاء الدين وخطباء المساجد والأئمة مثل مدرسة الإمام البخـاري بطشقند، ومدرسة ميرعرب ببخارى. كما تـم نشـر مجلـة "السلمون فـي الاتحـاد السـوفيتي" بالعربيـة والفرنسـية والإنجليزية بالإضافة من عدة كتب مثل "حياة المسلمين فـي الاتحاد السوفيتي"، "آثار الإسـلام التاريخيـة فـي الاتحـاد السوفيتي". هذا بالإضافة إلى الزيارات المتبادلة بين المسلمين خارج الاتحاد السوفيتي والمسلمين داخله وحسن الضـيافة، خاصة في مواسم الحج وفي المؤتمرات العلمية، والبعثـات العلمية إلى جامعات الشرق الإسلامي خاصـة فـي مصـر وسوريا وتونس والمغرب.

وبالإضافة إلى هذا النشاط الديني الواسـع هنـاك أيضـا الرقي المادي للجمهوريات الإسلامية، في الزراعة والصناعة والتجارة. فأوزبكستان الإسلامية أولى الجمهوريات السوفيتية في إنتاج القطن، إنشأت المساكن وعبدت الطرقات، وتم محو الأمية التي كانت أكثر من ٩٥% قبل الثورة والتي تم القضاء عليها بتاتًا بعد الثورة.

أما بالنسبة إلى سياسة الدولة، فإنها تتصور المسلمين في الجمهوريات الإسلامية على أنها كانت إمارات متخلفة أيـام القيصر نقلتها الثورة الاشتراكية إلى جمهوريـات متقدمـة، فالثورة الاشتراكية وريثة روسيا القيصرية ولممتلكاتها. كانت تحت القيصر، يـذيقها شـتى ألـوان الاضـطهاد الـديني والعنصري، فأصبحت جمهوريات مسـتقلة متسـاوية فـي الحقوق مع باقي الجمهوريات السوفيتيه في حرية العبادة لها مجالس شورى مستقل، ورئيس منتخب، ولها ممثل في مجالس السوفيتات الأعلى. للمسلمين حرية إقامة الشعائر الدينية وفي ممارسة الطقوس وإقامة الصلاة، وجمـع أمـوال الزكـاة، وتنظيم وفود الحج، والاحتفالات بالأعياد الدينيـة، وإعـداد الأئمة في المدارس الدينية الأهلية ولكـن دون تـدخل فـي سياسة الدولة، فالدين دين، والسياسة سياسة. وهذا هو الموت البطئ للإسلام بحصاره وضموره وانعزالـه عـن الحيـاة العامة. فالإسلام في نظر الدولة باعتباره دينًا أحـد أسـباب التأخر. فالدين أفيون الشـعب حسـب النظريـة المبتسـرة المشهورة، وبالتالي تحل الماركسية اللينينية، وتوضع لافتات الحزب الشيوعي على حوائط المساجد، وخلاياه داخل الازقة

الديمة وفي غرف المنازل الأثرية. فالجديـد يـرث القـديم. والتعليم الديني محرم في مدارس الدولة لأن الدولة لا دينية. لذلك اقتصر على المدارس الأهلية بتمويل أهلي والدولة تقطع الأرض فحسب. أما التراث الإسلامي فإنه تراث في تـاريخ العلـم والفـن والأدب. فمؤلفـات ابـن سـينا والبيرونـي والخوارزمي تراث علمي وطني من تاريخ الاتحاد السوفيتي، تنشر وتترجم إلى الروسية وتدرس وتؤثر في تـاريخ العلـم أكثر مما هي عند المسـلمين خـارج الاتحـاد السـوفيتي. ومدرسه الوغ بك ومدافن شاه زنده في سمرقند، واب حوض ومإذنة كلان ببخارى وطشقند كلها تراث فني مـن تـاريخ الاتحاد السوفيتي وشعوبه وثقافاته المتنوعة. بل أن الأبنيـة الحديثة في الجمهوريات الإسلامية تستلهم الفن القـديم مثـل متحف لينين ومترو طشقند. أمـا المسـلمون أنفسـهم فهـم مرتبطون بالاتحاد السوفيتي كأحد شعوبه أو قومياته أكثر من ارتباطهم بجيرانهم في تركيا وأفغانستان وإيران وباكسـتان ومثل الكاثوليك والبروتستانت والإرثـوذكس فـي الاتحـاد السوفيتي مع أن الإسلام أمة والمسلمون امـة سـواء فـي المركز أو الأطراف ومهما تم ضم الأطراف إلى مركز آخر

فإنها تكون أشبه بزرع أعضاء في جسد غريب، ولا تصح على نحو طبيعي ألا في جسدها الطبيعي.

والمسلمون هناك بالنسبة للإسلام الحي في شعورهم ثلاثة أنواع:

١. الجيل القديم من العجائز الذين تتراوح أعمارهم ما بين السبعين وما فوق المائة، وبهم أكثر المعمرين. كثير منهم مقعدون. يحملون على الكراسي أو يتوكأون على العصى إلى المساجد، خاصة أيام الجمعة والعيدين. يبكون ما فات، تنهمر من أعينتهم الدموع إذا ما رأوا أحدا منا، من قلب الأمة العربية والإسلامية، من القاهرة مدينة الأزهر الشريف، يذكرهم بالإسلام أيام وحدة الأمة الإسلامية منذ كان المسلم يجوب أنحاء العالم الإسلامي من المغرب غربا حتى الصين شرقًا لا يسأله شرطي عن جواز السفر أو تأشيرة الدخول، ولا يقوم أحد بتفتيش حقائبه أو يطالبه بتحويل عملة أو يذكرهم بحال الصحابة الأوائل الذين ذهبوا غازين في سبيل الله خاصة

وأنهم أهل سنة، انتشر الإسـلام لـديهم بفضـل الصحابة الأوائل. مشكلة هؤلاء المسـلمين هـو الحفاظ على ما ضاع ويرون بصيص أمـل فـي الزوار المسلمين عندما يذكروهم بعزة الإسـلام. هم الجيل المخضرم الـذي عاصـر الإمـارات الإسلامية المستقلة ثم عاصـر غـزو القيصـر وأخيرا عاصر انتصار الثورة الاشتراكية. كـان عزيزا أولاً ثم أصـبح مقهـورا تحـت أمـراء المسلمين الطغاة ثم ذليلا بائسا مغتربا، مهـيض الجناح بالرغم مما لديه من تأمينات ومعاشـات. ومسكن وملبس ومشرب. عزاؤه المسجد كل يوم ورؤيته للزوار المسلمين بين الحين والآخر يبكي حاله ويرثى نفسه. وفي الحالات الـثلاث كـان إيمانه قويا ولكن مبتور الصلة بواقعه، فتتحـول قوة إيمانه إلى الداخل وتنحسر عن الخارج سواء أيام الإمارات الإقطاعية حيث كان مسلما في نظام تدعى الإسلام كما هو حالنا الآن أو فـي نظـام يفرض عليها القيصر حمايته أي مسلما مستعمرا

كما كنا منذ عشرات السـنوات أو فـي أقليـات إسلامية محاصرة انزوى الإسلام فـي قلوبهـا، تشعر بغربة عن عالمها، وتعيش بأرواحها خارج أجسادها وترنو ببصرها باستمرار إلى مـا رواء الحدود أو تعيش بوجدانها سالف الزمان.

٢. جيل شاب، تمثل الثـورة الاشـتراكية، وأصـبح علمانيا، ينتسـب الـبعض منـه إلـى الحـزب الشيوعي. لا يحتفظ من الإسلام إلا باسمه العربي محمدا وعليا أو الفارسي جلنار. تمثلوا الحضارة الغربية الجديدة، ونظروا إلى الإسلام علـى أنـه تاريخ متحفي، آثارا قديمـة تركهـا المسـلمون الأغيار الذين لا يتحد معهم ولا يجد هويته فيهم. يرى الإسلام على أنه احد أسباب التخاف والجهل والطغيان. الأمور واضحة بالنسبة إليه. والتضاد بين الماضي والحاضر، والدين والعلم، والتـأخر والتقدم، والجهل والمعرفة، والنوم واليقظة تضاد لا سبيل إلى حلـه بالمسـاومة أو المصـالحة أو التوسط. وهم سعيدون بنجاحهم المهني وبنتاجهم

وبحاضرهم. ومنهم من له باع كثير في الصناعة أو الزراعة أو الاختراع. ومع ذلك يتزوجون في الإرادة الدينية حرصا على تقاليد الأسـرة بعـد زواجهم المدني في مراكـز الدولـة. لا صـلة لحياتهم المدنية بالدين، ولا صلة للدين بحيـاتهم المدنية، فلا الإسلام تحول إلى أسس للتقـدم ولا التقدم كان تطورا طبيعيا للإسلام. وهذا هو الجيل الوسط، أبناء المسنين أو أبناء أبنائهم. فمـا بـال الجيل الثالث والرابع الذي قـد لا يسـمع عـن الإسلام شيئًا؟

٣. أئمة المساجد، ومعلموا المـدارس، وطلبـة العلـم الديني الذين يجمعون بين القديم والجديد ولكـنهم أقرب إلى القديم. يعيشون في العالم الجديد بحكم مواطنتهم ولا ينتقلون إليه. ولكنهم أقـرب إلـى القدماء يقرؤون الكتـب الصـفراء، ويحفظـون المتون القديمة، ويشرحون شـرحها، ويهمشـون على الشروح. يعيشون في المدارس الدينية عيشة إسلامية كاملة، حياة داخلية، صلاة ودراسة، نوم

وطعام، وتجهد وعبادة، وهم مستقبل المسلمين هناك. ولكنهم محدودون يعدون بالعشرات. "ولئن يهدي الله إليك رجلاً واحدا خير من الدنيا وما فيها". لم يحدث فيهم توحيد عضوي داخلي بين الإسلام والتقدم، وبين الدين والثورة، وبين التراث والتجديد نظرا لأنهم يعيشون في غربة عن عالمهم. الحضارة مفروضة عليهم، ولم تنبع منهم. لا يمكنهم تمثل الجديد لأنهم ليسوا أصحابه، ولا تطوير القديم لأن العالم ليس ملكا لهم، وهم محاصرون فيه.

والإسلام في قلوب الناس قوى للغاية وكلما زاد الحصار الخاريج قويت الروح الداخلية، وكلما زادت الغربة الخارجية قويت الألفة مع النفس. فالمسلم في الاتحاد السوفيتي يشعر بأنه مسلم أوزبكي أو مسلم تركماني أو مسلم تتري أو مسلم طاجكستاني ولا يشعر على الإطلاق بأنه مسلم روسي ينتسب إلى الاتحاد السوفيتي. دينه الإسلام، ولغته وموسيقاه وتراثه الأوزبكية أو التركمانية أو التترية. ولكن لما كانت روسيا هي القوة المركزية، وكبرى دول الاتحاد والتي عليها تجميع

الأطراف، ظهرت اللغة الروسية والثقافية الروسية في أجهزة الإعلام وفي مؤسسات الدولة على أنها اللغة والثقافة الموحدة للشعوب والقوميات والأجناس التي يتكـون منهـا الاتحـاد السوفيتي.

ظهرت الثقافة الروسية والموسيقى الروسـية كحضـارة الدولة الكبرى المسيطرة على باقي الدول الصغرى للاتحاد، الثقافة الرئيسية في مقابل الثقافات الفرعية أو الثقافة الرسمية في مقابل الثقافات المحلية أو الثقافة الشمولية في مقابل الثقافة الخاصة النوعية للشعوب.

ولسوء الحظ كانت الثقافة الرسمية هـي ثقافـة الرجـل الأبيض، ثقافة الغرب. فروسيا جزء من أوربا، وثقافتها ثقافة أوربية، ومن ثم ظهرت سيادة ثقافة الغرب علـى شـعوب الشرق، كما ظهرت سيادة ثقافة الرجل الأبيض على الشعوب الملونة. وكان المسلمون يديرون أجهزة "التليفزيون" ليسمعوا تشايكوفكسي أو ليروا فيلما عن كاترين قيصرة روسـيا، ولا يسمعون ولا يرون شيئًا. كانوا أقرب إلى من الروس، وكان الروس غرباء بالنسبة لهم. وكنت أنا المثقف المطلـع علـى ثقافات الغرب أكثر إدراكًا لما أسمع ولما أشاهد.

ولا يقتصر الأمر على الثقافة وحدها بل يمتد أيضا إلى شئون الحياة العامة. فروسيا هي المسيطرة في دولة الاتحاد على مراكز الدولة الكبرى، في الجيش والشرطة والإرادة العليا، في المطارات وعلى الحدود، وفي مراكز الأمن والحزب، وكأن الرجل الأبيض هو المسيطر، والمسلمون بسمار بشرتهم تحت سيادة الرجل الأبيض. وفي الفنادق الكبرى، الإرادة من الروس البيض، والأعمال اليدوية للشعوب الأخرى ما يذكرني بالمستعمر الأوروبي الأبيض، بالفرنسيين في الجزائر أو بالجزائريين في فرنسا. بل كانت عادات الشعوب الملونة وتقاليدهم وعيوبهم أقرب التي من عادات الروس البيض وتقاليدهم وعيوبهم. يبصقون في الطرقات مثلنا. يتنزورون ويتحابون ويفيض بعضهم على بعض مثلنا، أما الجمود والصرامة فللروس البيض. ويذكرنا ذلك بالألماني عندما يعبر برلين الغربية ويقابل صدفة ألمانيا شرقيا على الحدود، صديق طفولته ورفيق صباه ولا يستطيع الحديث معه أو الهمس إليه لان "النظام" لا يسمح، إن سيطرة روسيا على باقي دول الاتحاد، وهي مثل حوالي نصف مجموع السكان تجعل المساواه بين شعوب الجمهوريات في

مناصب الدولة العليا وفي الحياة العامة تتوارى أمـام لـون البشر، الداء الدفين للحضارة الغربية. ويكون السؤال: هـل استطاعت شمولية المذهب أن تقضـي علـى خصوصـيات الشعوب؟.

يمثل الإسلام إذن في الاتحاد السوفيتي "ثقافة تحتية" Suh – Culture عند المسلمين في الجمهوريات الإسـلامية فـي أواسط آسيا، كما هو الحال عند اليهود في أوروبا أو ثقافـة الأقليات داخل ثقافة الأغلبية.

وبالإضافة إلى الثقافة الرسمية للثقافة الأوروبيـة، ثقافـة الرجل الأبيض، كانت هناك ثقافة دعائيـة أخـرى، الثقافـة السياسية الغربية. وهي أيضا ثقافة الرجل الأبـيض، أعنـي الماركسية اللينينية المنشرة في كل مكان في صغية شعارات ونداءات وتوجيهات ونظريات، وصور وإعلانات. وكانـت تبدو وكأنه تريد أن تحل محل الإسلام عند المسـلمين فـي الجمهوريات الإسلامية. بدت كمنافس لي تريـد أن تكـون رؤيتي للعالم، رؤية بديلة لرؤياي التاريخية. بدت الماركسية اللينينية كأيديولوجية منافسة للإسلام بالرغم من أن المسلمين لا يعلمون عنها شيئًا كما أن الماركسيين من شبان المسلمين

لا يعلمون عن الإسلام شيئًا باستثناء صورة الإسلام في ذهن الدولة، طقوس وشعائر على مستوى الفرد، وانعـزال علـى مستوى المجتمع، وتخلف على مستوى التاريخ، صور لينين في كل مكان، وتماثيله، واسمه على أهم الشوارع في المـدن الكبرى، ومتاحفه، وتاريخه، ونضاله يتلوه ماركس وأنجلـز، ويتلو الجميع حكام الأمس أو حكام اليوم طبقًا لمـن الحكـم اليوم. وكأن حضور هذه الآثـار الحسـية لابـد وأن تولـد بالضرورة في أذهان المسلمين الأفكار والعقائـد والمـذاهب والنظريات الموازية. شعارات الحزب ونداءاتـه وشـاراته ورموزه على كل الأبنية الرسمية بما فيهـا حـوائط الآثـار الإسلامية القديمة لتبين للناس أن الحزب هو عصب الدولـة، منبعها ومصبها، لجانه واجتماعاته وهيئاته في كـل مكـان بالرغم من عدم انخراط المسلمين فيها. وعلى واجهة جامعة طشقند بالخط الثالث الروسي "اقرأ" على يافطة، قـول لينـين وكأنها ليست أو ما أنزل من القرآن الكريم وكأن طلب العلم ليس أمرا إليها قبل أن يكون توجيها لينينيا. ولماذا تفـرض التوجيهات من الثقافة الرسمية القومية ولا تنبع مـن الثقافـة المحلية التحتية؟ لم تنشـأ وحـدة عضـوية بـين الإسـلام

والماركسية باعتبارها نظرية في التقدم والعدالة الاجتماعية وتحرر المظلومين والطبقات الكادحة، وباعتبارها نظرية في العمل والقيمة والملكية العامة والأجور، وباعتبارها نظرية في مواجهة الاستعمار والاستغلال والاحتكارات الرأسمالية؟ والسلطان جالييف ليس رافدا ثقافيا في شعور المسلمين، ولا يقبع في وعيهم السياسي، إذا كان يمثل حقًا هذه الوحدة العضوية بين الإسلام والماركسية لينينيا في الفكر والنظام ومسلما اسمه أحمد أو محمد في العقيدة والشعائر الدينية[١٧].

وينتج عن الإسلام كثقافة تحتية سلوك وموقف يجعل المسلمين ذوي طبائع وعادات مختلفة وكأنهم لا يعيشون المواطنة السوفيتية إلا اسما. لهم حياتهم الخاصة والعامة مختلفة تماما عن حياة الروس البيض الخاصة والعامة. عندما يتقابل المسلمون في الطرقات يتبادلون التحية بلغاتهم الوطنية، ويشعر الإنسان أن بينهم رابطة أقوى بكثير من رابطة المواطنة السوفيتية. ولم تنجح جميع المحاولات

---

[١٧] في الكتاب القادم – تنشر "اليسار الإسلامي" ثلاث نصوص للسلطان جالييف.

للقضاء على خصوصيات الشعوب مثـل التجنيـد وانتـزاع الأفراد من موطنهم الأصلي إلى أماكن أخرى لا يعلم عنهـا أهلهم شيئًا. ويتمثل هذا السلوك في الآتي:

١. ازدواجية الشخصية بين المسلم القابع بينـه وبـين نفسه، الصادق مع نفسه وجيرانه وبين المـوطن الروسي في الخارج، بينه وبين الدولة ومؤسساتها وثقافتها وحزبها ونظمها وقوانينها. وهو وضـع مشابه لوضع اليهـود فـي أوربـا باسـتثناء أن المسلمين هم أصحاب الأرض وغرباء عليها في حين أن الروس الالمان والفرنسـيين وقوميـات أوربا الشرقية كانوا هم أصحاب الأرض واليهود يعيشون بينهم.

٢. العكوف على الصلوات في المساجد، والاحتفـالات الدينية في الأعياد حيث يتجمع آلاف المسلمين في المساجد المنتشرة في المدن الإسلامية الرئيسـية، بخارى، وسمرقند، وطشقند، وخيوه. وعشـقباد، وأوفا،وباكو، ودوشنبه وغيرها. ولا شـأن لهـم باحتفالات أكتوبر أو بمراكز الحزب الشيوعي أو

بأعياد العمـال والجـيش أو بعـروض سـاحة الكرملين في الميدان الأحمـر. يـزورون قبـر البخارى أكثر من زياراتهم لقبر لينين، ويقـرأون "الفاتحة" أكثر مما يقرأون "البيان الشيوعي".

٣. تتم مراسيم الـزواج والطـلاق طبقـًا للشـريعة الإسلامية في الإدارات الدينية. فمـازال قـانون الأحوال الشخصية هو الحصـن المنيـع ضـد العلمانية والتغريب حتى يصبح الزواج مقبولاً من المجتمع الإسلامي لان الزواج المدني في أجهزة الدولة لا يجعل الزواج مقبولا "شـعوريا" لـدى المسلمين الشبان حتى العلمانيين منهم. والـزواج في الإرادة الدينية يعادل زيارة العروسين لمقبرة لينين لدى الروس الإرثوذكس.

٤. قراءة القرآن فـي الأفـراح والمواسـم وإعطـاء الدروس الدينية في الحفلات الخاصة. فأصـبحت الحياة الاجتماعية وسيلة للتعليم الديني، وخـروج الثقافة التحتية في المجتمع المحلي واستبعاد جميع ألوان الثقافة الرسمية، الثقافة الروسية، من رقص

أو غناء أو شعر "أفتشنكو" الـذي لا يعلـم عنـه المسلمون شيئًا والذي تروج له أجهزة الإعلام في النظم التقدمية العربية.

٥. الإدارات الدينية الأربعة مراكز تجمع للمسـلمين، ومحور نشاطهم، بها يرتبطون، ومنها يأخـذون توجيهاتهم، وتصدر نشراتهم، وتنظم بعثاتهم إلى الأزهر، ووفود حجهم، تستقبل الزوار المسلمين، وتعقد أواصر الصلة بيـنهم. تجمـع تبرعـات المسلمين في الاتحاد السوفيتي، وتجمـع أمـوال الزكاة. تشرف على المدارس الدينيـة، وتجمـع الكتب. ولها في حياة المسلمين مكانة الدولة أكثر مما للدولة سواء المحلية أو المركزية. ولكن ليس لها سلطة على الدولة كمـا لمؤسسـات الحـزب ولمنظمات الصداقة مثل منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والإفريقية أو التنظيمات التابعة للحـزب مثل تنظيمات الشباب أو المرأة.

٦. يقوى الإسلام في حياة المسلمين الظاهرة والباطنـة حتى في المسكن والمأكل والمشـرب. يتبعـون

السنة، ويقـرأون الاوراد. ويختمـون الصـلاة، ويقرأون القرآن قبلها وبعـدها. يعيشـون حيـاة الصحابة الأوائل وحياة أهـل العلـم والحـديث. وبالرغم من وجودهم في أواسط آسيا على حدود أفغانستان وإيران وباكستان إلا أن الإسلام لـديهم صاف رائق خال من الأسـاطير والخـزعبلات وتطرف العقائد عند فرق الشيعة أو المغالاة لدى الطرق الصوفية. في حين تغيب لديهم كل الثقافة الرسمية والأيـديولوجيات السياسـية والعقائـد الحزبية ومراسم الدولة وشعاراتها.

٧. يشعرون بالأمة الإسلامية القريبة منهم مثل إيـران وباكستان وأفغانستان وتركيا أو البعيدة عنهم مثل مصر وتونس والمغـرب والحجـاز. يعيشـون بأرواحهم مكة والمدينة والحرم النبوي، ويتطلعون إلى مصر، كعبة الإسلام، وكنانة الله في أرضه، وموطن الأزهر الشـريف. مسـلمون بقلـوبهم وأرواحهم. ومواطنون روس بأبدانهم وبطاقاتهم. أهلي وعشريتي وأقربائي وأخوتني وفـي نفـس

الوقت يعيشون في دولة أخرى وتحت نظام آخر. تجذبهم خارج المركز الإسلامي قـوى أخـرى تجعلهم يدورون في محيطها.

ومع ذلك، فالمستقبل لهم لان التاريخ فـي مـد وجـذر، والأطراف تتبادلها المراكز حسب قوتها وضعفها، وحسـب قوة صمود الأطراف وصلابتها. ومما يوحي بالثقة في هـذا المستقبل الآتي:

١. بالرغم من عدم وجود إحصائيات رسمية دقيقة عن تعداد المسلمين في الاتحاد السوفيتي بدعوى عدم جواز إجراء إحصائيات طبقًا للدين نظـرا لمـا ينص عليه الدستور من حرية الاعتقـاد وحريـة الدعاية للدين أو صفة الدين مع أنـه لا يجـوز الدعاية ضد الماركسية اللينينية المذهب الرسـمي للدولة فان الأرقام الواردة في التقديرات الرسمية أقل بكثير من تقديرات المسلمين. فقد تصل فـي الإحصائيات الرسـمية ثـلاث ملايـين وعنـد المسلمين خمسين مليونًا وعند المحايدين أربعـين مليونًا أي مثل شعب مصر. ولما كـان متوسـط

الأسرة لديهم عشرة أشخاص ولا يوجد لديهم أي إجراءات لتحديد النسل، فالأولاد خير وبركة من نعم الله، ويتزوجون صغار السـن منعـا للفتنـة وسهولة العيش فان تعدادهم سيبلغ في نهاية القرن مثل تعداد الروس البيض الآن الذي لا يتكأثرون ولا يزيدون أي حوالي ١٢٠ مليونًـا، وبالتـالي يتحول الاتحاد السوفيتي كله إلى أغلبية مسـلمة، ويصبح دولة مسلمة، والإسلام الآن هـو الـدين الثاني بعد الإرثوذكسية، وهو ما سيحدث للدولـة العبرية أيضا في نهاية القرن عندما يفوق تعـداد العرب تعداد اليهود. وفي هذه الحالة لا يصـبح الإسلام ثقافة الأقلية بل ثقافة الأغلبيـة. وربمـا يتحول أيضا من ثقافة تحتية إلى ثقافة فوقية.

٢. قوة الإسلام في قلـوب المسـلمين تجعلـه قـابلاً للانتشار شيئًا فشيئًا خارج الأبـدان، واكتسـاب أرضية اجتماعية وسياسية واقتصـادية خـارج قانون الأحوال الشخصية في المواريث وتحـريم الربا وأحكم السوق وربما يمتد ذلك إلـى أسـس

النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع كله الذي يغلب عليه المسـلمون. وهنـا يصـبح الإسلام ويكتمل. ويخرج من الحواري والأزقـة والزوايا والخانقاه إلى المدن الكبيرة والعواصـم ويتمثل في النظم والدساتير.

٣. زيادة ارتباط المسلمين بالعالم الإسلامي واسـتثمار هذه الغربة في النفوس من خلال و فود الحـج، وإرسال البعثات الدينية إلى الأزهر الشريف والي جامعات العالم الإسلامي، وعادة ربط الأطـراف بالمركز في مصر وما حولهـا والتغلـب علـى الصعوبات القائمة مـن حيـث عـدد الحجـاج المسموح بهم أو عدد الطلاب في البعثات بصرف النظر عن حاجة المدارس الدينية في الجمهوريات الإسلامية، وطلب الكتب والمراجع، والأمـوال، والمساعدات بكافة أنواعها من أخوتهم في الإسلام في شتي أنحاء العالم الإسلامي. ودعـوة أئمـة المسلمين ومفكريهم وعلمائهم حتى يزيد وعـيهم بالجناح الشرقي للإسلام.

٤. استعمال المسلمين لكافة حقوقهم التي يكفلهـا لهـم الدستور ومنها حـق الانفصـال عـن الاتحـاد السوفيتي في أي وقت شاءوا. ولقد ثبت هذا الحق عند توحد الجمهوريات في الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٢. كما أن لكل جمهورية الحق فـي إقامـة علاقات مع الدول الأجنبيـة وإبـرام معاهـدات وتبادل التمثيل الدبلوماسـي والقنصـلي وكـذلك المشـاركة فـي نشـاط الهيئـات والمنظمـات الدولية[١٨]. وأخذ ذلك في الاعتبار دائمـا. لـيس الآن ولكن في المستقبل بعد مـا يتغيـر ميـزان القوى الدولية، وتأخذ دورات التاريخ مجراهـا، وتنشأ مراكز جذب جديـدة فـي قلـوب العـالم الإسلامي.

٥. نقد المجتمع الروسي وبيان عيوب النظام الشمولي بالرغم من إنجازاته العظيمة في مجال الاقتصـاد والإنتاج والخدمات. والمشـاركة فـي الـدعوة

---

[١٨] بلاد السوفييت ١٩٧٨، نوفستى، موسكو ١٩٧٩.

للحريات، وزيادة أصوات المعارضة، والدفاع عن حق الاجتهاد، ومناصرة حركة المنشقين السوفيت مناصرة لمبدأ حرية الرأي. وبالتالي يتحول الإسلام إلى حركة إصلاحية داخل الاتحاد السوفيتي ويكمل أوجه نقصه.

٦. ظهور الأداب الوطنية مثل الشاعر نوائي في أوزبكستان وأهمية اللغات القومية، وتشجيع الإبداع المحلي للشعوب الإسلامية مقتفية آثار البيروني والخوارزمي وغيرهم وتحول التراث المتخفي إلى تراث حي في قلوب الناس، وإرجاع الحقوق التاريخية لأصحابها، فبخارى وسمرقند وترمذ كلها تنتسب إلى أبداع الحاضرة الإسلامية وليس إلى الثقافة الروسية.

٧. دخول الإسلام في معارك الاشتراكية والتقدم ودخوله في المعارك الوطنية لمناهضة الاستعمار والاستغلال والاحتكار، ودخوله في معارك المسلمين الكبرى مثل تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني والتحرر من بقايا الاستعمار

في العالم الإسـلامي، والـدعوة إلـى الحريـة والمساواة والعدالة الاجتماعية. فالثورة الاشتراكية الكبرى ثورة إسلامية في أهدافها، تخـرج مـن الإسلام ولا تكون ضده أو بديلاً عنه، وبالتـالي تتحقق وحدة الشخصية القومية عند المسلمين، فلا يكونون مسلمين في جانب يعيشون فـي مجتمـع اشتراكي تقدمي مناهض للاستعمار والرأسـمالية وفي جانب آخر لا يعلمون عنه شيئًا.

ويكون واجبنا نحن بالنسبة لهم كالآتي:

١. انفتاح المركز على الأطراف عن طريـق ازديـاد وعينا بهم وإرسال الأساتذة والمعلمين لهـم فـي اللغة العربية والعلوم الدينيـة، والـذهاب إلـيهم لزيارة الأقارب والجيران، والأهل والأصـدقاء، فبدل أن ترسل الإدارات الدينية طلابـا لـدينا لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة نرسـل إلـيهم بالمنح المالية لإرسال المئات حتى يرجع كل منهم داعيا للإسلام وجاذبا الأطراف نحو المركز مـن جديد، ومدهم بالكتب والمراجع القديمة والحديثـة

حتى يظل الرباط الفكري قائما وإن استحال رباط الجسد والمصاهرة.

٢. الاسـتفادة بـالخبراء المسـلمين فـي الزراعـة والصناعة. وقد كان لدينا فـي مصـر ١٧,٠٠٠ خبيرا روسيا فلمـاذا لـم يكونـوا كلهـم مـن الجمهوريات الإسلامية؟ يحظر كل منهم عائلتـه وأطفاله العشر فنرجع إلـى الاتحـاد السـوفيتي ١٧٠,٠٠٠ مسلما كاملاً، يتحدثون العربية التـي تعلموها في مدارسـنا. لمـاذا يكـون الخبـراء السوفيت من الروس البيض؟ ولمـاذا لا نطالـب بمن يفهموننا ونفهمهم ويكونون بيننا أخوة، قلوبهم علينا، ينفعوننا ولا يضروننا. وقد طالبت سـوريا بنفس المطلب وتم لها تحقيـق مـا أرادت فـي الزراعة. لماذا لا نطالب نفس الشيء في الجيش والتدريب العسكري؟.

٣. فتح الحدود بين الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي وجاراتها من الدول الإسلامية باكتسـان وإيران وأفغانستان وتركيا مادامت جمهوريـات

مستقلة في قدرتها اتخاذ قرارها الخـاص. وهنـا يزداد ارتباط الأطراف بمناطق أقرب إلى المركز والمحور وأكثر تفاهمـا معهـا داخـل الإسـلام الآسيوي خاصة وان اللغة الفارسية أو الأورديـة أو التركية من اللغات القومية المشتركة. فاللغـة الأوزبكية نفسها لغة أكبر جمهورية إسلامية فـي الاتحاد السوفيتي، إحدى اللهجات التركية تجمـع بين التركية والفارسية كما تجمع الأورديـة بـين العربية والفارسية.

٤. ولماذا نظل نحن فـي علمنـا بالعربيـة فحسـب، والفارسية والأوردية والتركية من لغـات الأمـة الإسلامية؟ لقد كنا ضحية الاسـتعمار اذ علمنـا لغاته الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطاليـة والأسبانية حتى يربطنا به لغة وثقافة إلى الأبـد، وإنسانا جناحنا الشرقي. وقد كان علماؤنا يعلمون الفارسية والأوردية والتركية والسنسكريتية ومـن ثم على علمائنا أتقان اللغات الآسـيوية حتـى لا يتكلم علماء الـروس البـيض لغـات الشـعوب

الإسلامية ونظل نحن العرب ننتظر من يترجم لنا منهم كي نفهم قومنا وأهلينا!

٥. أن يقول علماؤنا قول الحق، وألا يقعوا تحت تأثير حسن الضيافة وكرم المثـوى أو تحـت تـأثير الدعاية والإعـلان أو تحـت تـأثير التغريـب والاعجاب بالتقدم المادي والروح خاوية. فكثيـرا ما عاد الزوار من علمائنا يشيدون بمـا رأوا أو ناسين الإسلام في القلوب، والحق أحق أن يتبـع. وليس أفضل عند الله من شاهد الحق، وليس أضل لديه من شاهد الزور، إن أسماء بخارى وسمرقند وترمذ لتثير في نفوس المسلمين أكثر مما تثيـره في نفوس الروس البيض، تثير في نفوسنا إسلام ألف وأربعمائة عام في نفوسهم مائة عـام مـن القيصرية.

٦. لقد آن الأوان للأمة العربية، قلب العالم الإسـلامي أن تأخذ دورها فـي التـاريخ كمحـور جـذب واستقطاب لأطراف الأمة الإسلامية. والأمة فـي الأطراف تبحث عن هذا الدور فلا تجده. فالعراق

جسر للأمة الإسلامية في آسـيا خـلال إيـران وأفغانستان وليس نقيضا لها. كما أن ثورة إيران رصيد للمسلمين في كل آسيا خاصة في أفغانستان وباكستان. والمغـرب بحفاظـه علـى التـراث الإسلامي في الأندلس محط أنظار المسلمين فـي آسيا. وتونس وجامعة الزيتونة أيضـا تشـخص إليها أبصار المسلمين هناك. وثورة ليبيا، وثورة الجزائر، كلها تبعث الأمل في قلوبهم، والحجـاز له أجلال واكبار في نفوس المسـلمين. ومصـر كعبة الإسلام، وقلب المحور، وبـؤرة المركـز تشخص إليها الأنظار، ويدعون لها بالنهوض بعد الكبو. وكيف تلتئم الأطراف نحو مركـز العـالم الإسلامي، والمركز مغلق على نفسه يحتاج إلـى من يدق الأبواب؟.

٧. فإذا كان مشروع لينين الذي صاغه إبـان الثـورة الاشتراكية حفاظًا على وحدة الدولـة القيصـرية يتمثل في احتواء الشعوب الإسـلامية المجزئـة داخل الاتحاد السوفيتي وحصارها حفاظا لها من

العدوان الخارجي الغربي، وتمثل ثقافاتها داخـل الثقافة السياسية الواحدة فإن مشـروع المسـلمين اليوم بعد أن ثبتت الثورة الاشـتراكية أقـدامها، وتأسست الدولة، وأصبحت قوة عظمـى ترهـب غيرها وتمنعهم من العدوان عليها هو توحيد هذه الشعوب الإسلامية نظرا لمـا بينهـا مـن إرث حضاري مشترك، وربطها كأطراف بجسد الأمة الإسلامية وبمحاورها الأساسية ومركزها في قلب العالم الإسلامي، وإحياء تراثها ودينها وثقافتهـا المحلية، و تحويلها من ثقافة تحتية إلـى ثقافـة قومية تجاه حياة الناس الخاصة والعامة. وإن أمة إسلامية واحدة مستقلة جناحها الشرقي في آسـيا وجناحها الغربي في إفريقيا وقلبهـا فـي العـالم العربي لخير ضمان لحريـة شـعوب المنطقـة واستقلالها وحفاظًا لها من غـزوات الاسـتعمار واسـتغلال الرأسـمالية واحتكارهـا وأطمـاع الصهيونية. ولا يضير الالتقاء علـى الأهـداف

الاختلاف في الوسائل. ولا خير في أصـدقاء لا ينفع بعضهم بعضا.

خامسا: التجزئة والحصار (الهند وباكستان).

لقد كان دور الهند في نشر الإسلام وحمـل تراثـه دورا بارزا بعد العرب والفرس. فقد انتشر الإسلام من فارس إلى الهند برا، ومن الجزيرة العربية إلى شبه القارة الهندية بحرا. كما انتشر عبر غزوات التتار والمغول مـن الشـمال إلـى الجنوب حتى أصبح الإسلام الدين الثاني في الهند بعد ديانات الهند التقليدية، الهندوكية والبرهمانية والبوذيـة. وقـد قـام السلطان "أكبر"، والسلطان "محمود الغزنوى" بنشر الإسـلام وتوحيد الأمة الهندية داخل الهند وخارجها، وتوحيـد شـبه القارة الهندية حول التوحيد حتى أصـبحت الهنـد الرصـيد البشري للمسلمين في إفريقيا وآسيا.

ثم أتى الاستعمار وهو يحاصر الإسـلام مـن البحـار، فحاصر شبه القارة الهندية من الجنـوب، وأراد أن يقضـى على وحدة شعوب الهند التي أقامها الإسلام فـاتبع سياسـة "فرق تسد"، وأشعل حروب الطوائف والديانات التي جلبهـا معه من الغرب بين البروتستانت والكاثوليك. فبدأت مـذابح

المسلمين على أيدي الهندوس، وأذكى التعصب الديني وجعله مرادفًا للوطنية عند "السيخ"، وجعل تسامح الإسلام وشموليته مرادفا للغزو الحضاري و ثقافة العرب الأغيار.

وللخلاص من هذه المذابح أوحت بريطانيا بأن الحل هـو التقسيم كما فعلت في فلسطين في نفس الوقت في ١٩٤٧ بين العرب واليهود. وكان التقسيم في كلتا الحالتين يعني تسـليم الهند للهندوس، وطرد المسلمين، وتسـليم فلسـطين لليهـود وطرد العرب. فحدثت الهجرات الجماعية والنزوح البشـري وطوفات الأبـدان. بـدأ تجميـع المسـلمين أي انعـزالهم وحصارهم في رقعتين كبيرتين من شبه القارة الهنديـة فـي الشمال لا رابط بينهما فيما يسمى بباكستان الشرقية وباكستان الغربية حتى يسهل على الاستعمار فيما بعد قصـم الدولـة الجديدة وتجزئتها كما حدث فيما بعد في ١٩٧١ بعد انفصال باكستان الشرقية وتكوين بـانجلادش. وهـو مـا يحـاول الاستعمار أن يقوم به الآن في العالم العربي بعد تجزئته إلى دول مصطنعة بعد الحرب العالمية الأولى. وبعـد انتشـار القومية العربية ومحاولتها توحيد هذه الـدول بـدأت خطـة الاستعمار من جديد برسم خريطة جديدة للمنطقة وتقسـيمها

إلى دويلات طائفية ابتداء من لبنان ثم سوريا ثم العراق ثـم الجزائر. ومن يدري ماذا يخبئ الاسـتعمار للمغـرب ودول الخليج؟ أما حيدر أباد الدكن التي كانت دولة إسلامية مستقلة ترتبط بالخلافة الإسلامية وتحتـوي علـى كنـوز التـراث الإسلامي تقوم بنشره وبتعريفه للناس، مركز النشر السلامي في جنوب شبه القارة الهندية فقد تم القضاء كلية عليها داخل الهند الجديدة، وتم ابتلاعها داخل المحيط الهندي. أما كشمير التي تسكنها أغلبية من المسلمين والتي كان يمكن أن يـربط باكستان الشرقية وباكستان الغربية وأن تكون حزامـا مـن المسلمين من الشمال مع حزام آخر من الجنوب فـي حيـدر أباد الدكن فينتشر الإسلام فيما بينهما وتصبح شبه القارة كلها إسلامية في مستقبل التاريخ فقـد فصـلها الاسـتعمار عـن باكتسان الغربية ووضعها تحت الانتداب أو وصـاية الأمـم المتحدة.

يغازل بها الهند، وتقوم الهند بسياسة التهجير حتى تحول الأغلبية الإسلامية إلى أقلية والأقلية الهندية أي أغلبية، ثم يتم الاستفتاء فيما بعد حتى تنضم كشمير، جنة الله على الأرض، التي يقال أن آدم نزل بها، إلى الهند أو على الأقل تظل سبب

لاذكاء الصراع بين الهند وباكستان حتـى يخشـى إلهنـود الإسلام ويعادونه إلى الأبد[١٩].

لم يجد المسلمون مخرجا من هذه المذابح التـي أذكاهـا الاستعمار ألا تجميع كتلهم البشـرية والبحـث عـن رقعـة متجانسة من الأرض وإقامة دولة تحمـيهم. وهكـذا نشـأت باكستان أملاً في قلوب المسلمين فـي الهنـد، ورأى فيهـا المسلمون تكوين أول دولة إسلامية نشات على الإسلام ربما تكون عزاء لهم عن ضياع الخلافة في تركيا، وارتبطت بها كل الاتجاهات التحديثية والحركات الإصلاحية فـي العـالم الإسلامي خاصة بعد نضال محمد علي جنـاح. وصـياغة أيديولوجية إسلامية لنهضة المسلمين عند محمد إقبال. ولـم يكن المسلمون حينئذ على وعي بما يخطط لهم الاستعمار في

---

[١٩] لم ننشأ التفصيل في هذا الجزء نظرا لتعـرض دراسـة "الإسـلام والاستعمار لذلك." كما أنه ليس لدينا تجـارب مباشـرة عـن أحـوال المسلمين في الهند وباكستان وأندونيسيا والملايـو والفلبـين وتركيـا. وسنعتمد على إعادة بناء الموقف التاريخي للمسلمين ابتداء من الإسلام كتجربة حية في شعور المسملين ابتداء من العلوم التاريخية.

الظهار دفاعا عن المسلمين بإنشاء دولـة باكسـتان، وفـي الباطن وعزل الإسلام وتجزئته وحصاره عن شـبه القـارة الهندية. فما ظنه المسلمون خيرا هو في حقيقة الأمـر شـر مستطير.

وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون أقلية في الهند لا أثـر لهم، وبالتالي تم حصار المد الإسلامي فـي شـبه القـارة، والإسلام بلا انتشار ضمور وانحسار، فقـوة الإسـلام فـي انتشاره الطبيعي. كما هاجرت الأقلية المسلمة من الهند إلـى مناطق تجميع المسلمين في باكستان، فانتهت مراكز التجميع الإسلامية داخل شبه القارة، وقضى على هذه البؤر الإسلامية التي كانت مركز اشعاع حضاري داخل الهند. وتـم تجزئـة المسلمين بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية يبعدان عن بعضهما البعض مئات الأميال مع ثقة الاستعمار بأن التخلف قادر على اذكاء روح الفرقة بين جنـاحي الدولـة الجديـدة وإثارة النعرات القبلية واللغوية.

وكيف يعيش جناحان بلا قلب نابض أو بلا قلـب علـى الإطلاق؟ لقد ظل الاستعمار يغـذي روح الانفصـال بـين المنطقتين، وكانت الهند فيما بعد أداة تحقيق هذا الانفصـال

بالفعل حتى لا تنشأ بجوارها دولة قوية تكون محور جـذب للمسلمين في شبه القارة على حدودها الشمالية. وكانت الهند على ثقة من أن سياسة عدم الانحياز، ومـا تمثلـه بالنسـبة للحركات الوطنية في آسيا وإفريقيا ستكون عونا لها وكسـبا للتأييد الدولي ضد باكستان المتحالفة مع الغرب والتي تمثـل نظاما رأسماليا رجعيا تعمل كل الشعوب المتحـررة علـى التخلص منه.

وبعد أن حقق الاستعمار هدفه من "فرق تسـد" وفصـل باكستان عن الهند اتبع سياسة الاحتواء في باكستان نظرا لان الحركة الوطنية الهندية كانت مناهضة للاسـتعمار فصـعب على الاستعمار احتواؤها احتوى الاستعمار باكستان، وجعلها جزءا من خططه في المنطقة لحصـر الاتحـاد السـوفيتي، ومناهضة حركات التحرر الـوطني فـي العـالم العربـي والإسلامي. حاول الاستعمار جعل باكستان ركيزته في آسيا جنوب الاتحاد السوفيتي وشرق العالم العربي شـمال الهنـد وغرب الصين وحتى تكون بؤرة للعرب في آسيا. ورسم لها المخطط الآتي:

١. تركيز الإقطاع كنظام دائم للدولة الجديدة حتى يظل المسلمون تحت لواء الإقطاع، وحتى يعم الفقـر الأغلبية، ويظل المال بأيدي الأقلية خشـية مـن المساواة والعدالة الاجتماعية في الإسلام والثورة الاشتراكية الإسلامية دون أن يعلـم أنـه بهـذا المخطط يرسخ جذور الثورة، ويولـد حركـات المعارضة الإسلامية، وكأن الاستعمار لا يريد إلا الحاضر، ويرى فيها أمانًا من غائلات المستقبل. والحاضر الإسلامي في حقيقة الأمر هو "كمـون" للمستقبل الإسلامي قد يظهر "طفرة" كما حدث في الثورة الإيرانية.

٢. الإبقاء على النظام الرأسمالي، وذلـك مـن أجـل استنزاف أموال أمراء الإقطاع وتوظيفها لصـالح الغرب كما هو حادث في عائدات البتـرول فـي العالم الآن. وتكوين حزب إسلامي مـن أمـراء الإقطاع وكبار الرأسـماليين مـوال للرأسـمالية الغربية في مقابـل حـزب المـؤتمر الهنـدي. فالرأسمالية لا وطن لها، ورأس المال لا يبغي ألا

صالحه الخاص. وبالتالي تخرج باكستان عن نموذج "الطريق اللارأسمالي للتنمية" الذي حاوله العالم الثالث.

٣. الإبقاء على فقر الأغلبية، وعدم الاسهام في أية مشاريع جادة للتنمية الاقتصادية في الصناعة أو الزراعة فظل الفيضان يحصد بالآلاف سنويا دون أية مشاريع للسيطرة على المياه وتخزينها كما حدث في مصر، بالإضافة إلى انتشار الأمية حتى تظل باكستان لعدة أجيال نموذجا للنظم المستقرة في العالم.

٤. ربط الدولة الجديدة بالأحلاف العسكرية، ووضعها تحت مناطق النفوذ الغربي في حلف جنوب شرق آسيا، حلف بغداد أو الحلف المركزي. والهدف منها ليس الدفاع عن باكستان، فقد تركها الغرب فريسة للغزو الهندي لجناحها الشرقي في ١٩٧١ ولكن للدفاع عن مصالح الغرب في آسيا، وتهديد الاتحاد السوفيتي، وإخراجها من القارة الآسيوية،

بعيدا عن جذب مراكزها وبؤرها الثوريـة فـي الاتحاد السوفيتي أو الصين أو فيتنام.

٥. خلق طبقة من العسكريين وجنرالات الجيش موالين الغرب، يستعملهم لتدبير انقلابات لصالحه إذا ما حانت لحظة الثورة الشعبية كما يفعل في أمريكـا اللاتينية، واحتواء العسكريين خشـية أن تتحـول إلى قوى وطنية تعبر عن مصالح الشعوب كمـا حدث في الثورات العربية الأخيرة، على الأقـل في بداياتها، وخلق التنافس بين الجنرالات حتـى يدين الجميع بالطاعة ويتسـابقون علـى الـولاء للغرب.

٦. الإغراء بالسلاح النووي لاستنزاف ثورات الـبلاد واستثمارها في صالح الغرب، واسـتعمال هـذا السلاح كما يشاء الغرب كجزء من دفاعاته ضـد الاتحاد السوفيتي وليس ضد الهند أو في صـالح الشعوب العربيي والإسلامية في مقابـل تسـليح إسرائيل النووي، وحتى يظل تسليح الجيش في يد الغرب وتحت سمعه وبصره.

٧. حصار العالم العربي الذي بدأت فيه الثورات الوطنية مناهضة للاستعمار الغربي، تقاوم الأحلاف العسكرية، وتدعو إلى ثورة اشتراكية مناهضة للرأسمالية والإقطاع، وتدافع عن الاستقلال الوطني للشعوب، وتكوين اقتصاد وطني مستقل، ومناهضته للصهيونية، ركيزة الغرب في المنطقة وجسر الاستعمار فيه، وتوحيد المنطقة كلها تحت لواء القومية العربية بقيادة الناصرية التي ترى الدائرة الإسلامية أحد دوائرها.

٨. شق الأمة الإسلامية إلى شقين أعجمي وعربي، الناطق بالإنجليزية (الأوردية أو التركية) الناطق بالعبرية حتى يظهر نموذجان للمسلمين تحتار بينهما كوريث للنموذج القديم: شيعة وسنة. ثم يدب الخلاف بين شقي الأمة كما فعل الغرب بنفسه بين البروتستانت والكاثوليك. ويتساءل الغرب أي إسلام؟ مادام هناك إسلامان فإذا ذكر

الإسلام الثوري ذكر الإسلام الغربي، واحد بواحد، وشاهد بشاهد.

٩. ربط الدولة الجديدة كما ارتبطت الهند من قبل من خلال اللغة الإنجليزية بثقافة الغرب، واعتبار بريطانيا نموذج التحديث، وأسلوب الحياة البريطاني أسلوب الرجل المهذب حتى يتم القضاء على الروح الإسلامية في الثقافة وفي السلوك اليومي. وقد حاول الاستعمار البريطاني نفس الشئ مع مصر والعراق والأردن، وحاول الاستعمار الفرنسي ذلك أيضا مع تونس والجزائر والمغرب.

١٠. إخراج دعوات دينية إصلاحية موالية للغرب مثل القأديانية والبهائية والاحمدية، وتقوية المذاهب التقليدية واحتوائها والدفاع عنها والدفاع لها مثل الإسماعيلية حتى ينفر المسلمون المستنيرون من الإسلام، وتربية مسلمين موالين للغرب مثل السيد أحمد خان.

١١. تغذية القوميتين الهندية والباكستانية حتى لا يجمع الهند وباكستان أي رباط آخر فكري أو ديني أو تاريخي أو حضاري أو ثقافي. وتحويل معركة باكستان من الغرب مع الاستعمار إلى الشرق مع جارتها الهند. ولما كانت الهند بمواقفها الوطنية ومعادتها للاستعمار وتأسيسها حركة عدم الانحياز تحظى بتأييد شعوب العالم الثالث، نفرت هذه الأخيرة من باكستان، الدولة المسلمة، وعاد الإسلام في شخص باكستان.

١٢. تفتيت دولة باكستان ذاتها في أقرب فرصة حتى يسهل ابتلاعها كلية من الاستعمار خشية أن تصحوا الدولة يوما بإمكانياتها البشرية وباستقطابها المسلمين في آسيا، وبعد نشأة تيارات إصلاحية أثرت في العالم العربي مثل تيار "الجماعة الإسلامية" التي أسسها الإمام أبو الأعلى المودودي وأثره على الجماعات الإسلامية في

العالم العربي خاصة في مصـر عنـد جماعـة "الأخوان المسلمين"[٢٠].

وحدث الانفصال بالفعل نتيجة للغزو الهندي في أواخـر ١٩٧١ بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية كمـا خطـط الاستعمار وتكونت دولة جديدة بنجلاديش أصبح يضرب بها المثل في الفترة والتخلف والأمية والإقطاع والتسلط تشـويها للإسلام، يصور المسلمين يقتلون بعضـهم بعضـا، قبائـل متوحشة لا تأخذ رأفه بالإنسـان بينمـا صـيحات الغـرب الإنسانية تدوى فـي الآفـاق رحمـة بـالفقراء والمعـذبين والجرحى باسم المسيحية! وكانت النتيجة كالآتي:

١. ازدياد الفقر ومشاكله التي لا تنتهي حتـى أصـبح يضرب بالمسلمين المثل في الفقر فـي العـالم، فالمسلمون يموتون جوعا في وقت تتكـدس فـي عائدات البترول من باقي المسلمين في الحجـاز

---

[٢٠] انظر مقالنا "أثر أبي الأعلى المودودي علـى الحركـات الدينيـة المعاصرة"، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائيـة، القـاهرة ١٩٨٠.

والعراق وشمال إفريقيا، بالإضافة إلـى الأميـة والتخلف وعدم وجود فنيين وطنيين قادرين على التخطيط والتنمية.

2. العجز أمام الفيضانات التي تؤدي بحياة الآلاف من المسلمين سنويا وكأن الله لـم يسـخر الطبيعـة للإنسان. وبالتالي يموت المسلمون فـي العـالم الإسلامية إما من الفيضان في بنجلاديش أو مـن القحط في تشاد بسـبب عجـز المسـلمين عـن السيطرة على قوانين الطبيعة، وكان الآلاف مـن الجثث الادمية التي تعرضـها أجهـزة الإعـلام الغربية يجرفها التيار لا إنسانية لها.

3. سيادة الروح القبلية العشـائرية، وتفتيـت الأمـة الإسلامية أكثر فأكثر طبقًا للغة والقبيلة والعادات والعرف والتقاليد بل ولون البشرة مما يهدد بقايـا الوحدة، ويهدد الأمة لكها بتحويلها إلى وحـدات صغيرة يسهل على الاستعمار ابتلاعها كما يحدث الآن في لبنان والشام في إنشاء دويلات الطوائف وكما حدث في الأندلس أيام ملوك الطوائف.

٤. نظرا لضعف الدولة وعدم وجود مقومات للحيـاة الاقتصادية فإنها تعتمد في حياتها على الغرب فلا تخرج عن النفوذ الغربي تماما مثل إسرائيل مـع فارق أن إسرائيل في علاقتها مع الغـرب هـي السيد في حـين أن الغـرب فـي علاقتـه مـع بنجلاديش هو السيد.

٥. ثم تأتي المعونات الاقتصادية والأغذيـة والأدويـة والأغطية مـن الجمعيـات الخيريـة المسـيحية والكنائس العالمية وبالتالي تبدو المسـيحية أكثـر رحمة بالبشر من الإسلام خاصة إذا نهب أمـراء المسلمين وحكام المقاطعـات الـدقيق، وجـددوا البيوت والأثاث من المعونات، وبنـوا القصـور بالأموال وإلهبات، فيتم تحويل المسلمين الفقـراء إلى المسيحية أو تربية الأطفال والايتام فـي دور الكنائس، وعلى هذا النحو أصـبحت بـنجلاديش مرتعا للتبشـير، والتبشـير مقدمـة للاسـتعمار ومرسخ له.

وفي كلتا الدولتين، باكستان وبنجلادش أصبح وضع الإسلام كالآتي:

١. طقوس وشعائر ورسوم لا تغير من الواقع الاجتماعي والسياسي شيئًا، وبالتالي شارك الإسلام في باكستان الإسلام في السعودية، ومن هنا نشأ الاتفاق في المزاج والرؤية والوظيفة للدين بين النظامين.

٢. إقامة الدولة الإسلامية، وصياغة الدستور الإسلامي. وتأسيس النظام الإسلامي أصبحت كلها شعارات كما هو الحال في الحجاز ومصر وكأن الإعلان عن الهدف يكفي لان تكون الدولة كلها إسلامية كما حدث بعد الدعوة الوهابية في الحجاز، والدعوة الحالية في مصر بعد انحسار الثورة وحاجة المجتمع إلى شرعية جديدة. وهي دعوات في حقيقة الأمر يخفي ظاهرها غير باطنها وتهدف إلى التستر على ما يدور في الواقع من نظم لا إسلامية مثل، الإقطاع، والرأسمالية، والدكتاتورية. وطالما استشهد الغرب

بالدول الإسلامية في السعودية وباكستان حتى يشوه في ذهن الناس وينفر منه المسلمين المستنيرين.

٣. تحويل الإسلام إلى مناقشات فكرية ونظرية نظرا لتغلغل التراث الغربي في الهند. خرجت مناقشات نظرية عن الإسلام والغرب والإسلام والتحديث، والنظام الإسلامي، وأصبح الفكر الإسلامي في باكستان، من الناحية النظرية أكثرتقدما من حيث مجابتهه لمشاكل العصر بين الفكر الإسلامي في العالم العربي. وفي نفس الوقت كثرت الدعوات المشبوهة التي يختلط فيها الإسلام كستار بالأهداف الغربية كحقيقة وواقع.

ولكن بدأت ظواهر جديدة في باكستان تدعو إلى الأمل منها:

١. مناصرة الثورة الإيرانية من الجماهير الإسلامية بالرغم من تخوف نظم الحكم فيها خاصة في الصراع بين الثورة الإسلامية في إيران

والاستعمار الأمريكي، وبداية الشعور الإسلامي الشعبي المعادي للغرب ولأمريكا بوجه خاص.

٢. مناصرة الثورة المسلمين في أفغانستان بصرف النظر عن التقاء المصالح في الدفاع عن الاستقلال الوطني لأفغانستان بين الأمة الإسلامية والغرب، وفتح حدود باكستان لمساعدة الثور المسلمين بصرف النظر عن استغلال الغرب والنظم الرجعية في المنطقة هذه المعارضة لصالحه الخاص.

٣. بداية خروج باكستان من الأحلاف العسكرية الغربية، وحرصها على الاستقلال الوطني، واقترابها من الهند، ورجوعها إلى دول عدم الانحياز، مما يجعلها إحدى دول آسيا وإفريقيا وليست نموذجا ممسوخًا للغرب في آسيا.

٤. ازدياد الارتباط بالوطن العربي، وضمها إلى مركز العالم الإسلامي، ومناصرتها لشعب فلسطين، والنزول بثقلها العسكري في القضايا العربية

بصرف النظر عن النظم القائمة فيها، وتجـاوز الشعور الإسلامي فيها الهوى الغربي.

٥. ظهور دعوات إسلامية مثل "الجماعة الإسـلامية" تعرض الإسلام ككل، وتدين الواقع بأكمله، وتريد البداية من جديد كما بدأ الصحابة الأوائل، وأثـر هذه الجماعة على الجماعات المشابهة في الوطن العربي وامتدادها في جماعة "الأخوان المسلمين".

أما عن إمكانيات المستقبل فإننا نرصـدها علـى النحـو التالي:

١. أن تتحول مفاهيم إقبال حـول الذاتيـة، ولامـة، والعمل، والطاقة، والحركة إلى أيديولوجية ثورية لإعداد المسلم بناء الأمة الإسلامية.

٢. أن يتم التعريب حتـى تقتـرب أطـراف العـالم الإسلامي من مركزه أكثر وأن تتم لـدنيا أيضـا "أسلمة" لغاتنا الأجنبية حتـى نـرتبط بجناحنـا الشرقي الإسلامي في آسيا أكثر مـن ارتباطنـا بالغرب.

٣. أن تبدأ فيها الثورة الإسلامية بعد أن تم حصـارها بالثورة الإسلامية في إيران وبالثوار المسلمين في أفغانستان، وأن يولد وجود الثورتين فيهـا قـوى إسلامية ثورية وطنيه كما حـدث مـن وجـود المقاومة الفلسطينية في لبنان، وتفجير الصـراع الاجتماعي والوطني.

٤. أن تبدأ وحدة المسلمين في قلـب آسـيا بباكسـتان وإيران وأفغانستان كمحور جذاب لباقي الأطراف فـي آسـيا للمسـلمين فـي الهنـد والصـين، وامبراطورية المغول وآثار تيمور لنـك ليسـت بالبعيدة.

٥. أن تكون مركز جذب آخر للمسلمين فـي الاتحـاد السوفيتي حتى يشعر المسلمون هناك بأن الإسلام قد عاد من جديد في إيران وأفغانستان وباكستان، ولا ريب أنه عائد في أذربيجـان وتركمانتسـان وبلاد ما وراء النهر.

٦. أن نبدأ بنقد الحضارة الغربية نظرا للاطلاع الواسع على الثقافة العربية فتنشأ لـديهم بـدايات علـم

"الاستغراب" في مقابل "الاستشراق" حتى تتخلص من "التغريب"" وتبدأ في اكتشاف أصالتها وبعدها التاريخي.

سادسا: التبشـير والاسـتعمار (أندونيسـيا، الملايو، الفلبين).

علاقة التبشير والاستعمار علاقة مزدوجة ومتبادلة إما أن يبدأ الاستعمار أولاً كي يهمد الطريـق للمبشـرين لتـدعيم الاستعمار عن طريق الدين واللغة والثقافة والعادات والتقاليد وإما أن يبدأ التبشير ليمهد الطريق بعد ذلك أمام الاسـتعمار بعد استئناف الناس و تغريب وعيهم وجعلهم لقمة سهلة فـي فم الاستعمار. وكلما ابتعدنا عن مركز العالم الإسلامي إلـى أطرافه وأصبح المسلمون أقلية وسط الديانات الأخرى فـي آسيا تبدأ حملات التبشير بين المسلمين وجميع الديانات غير المسيحية الغربية. فالمبشـرون يـرون الإسـلام كالبوذيـة والبرهمانية والكونفوشيوسية ديانات غير متطورة أقرب إلى الوثنية منها إلى الدين الحق الذي تمثله المسيحية.

وتشتد حملات التبشير عندما يكون النظام القائم فـي دول الجنوب شرقي آسيا رجعيا مواليا للغـرب فيفسـح للنشـاط

الغربي في البلاد وعلى رأسه حملات التبشـير والأحـلاف العسكرية والشركات الاقتصادية المتعددة الجنسـيات. وقـد حدث ذلك في أندونيسيا عندما اشتد نشاط الكنائس في الآونة الأخيرة مما اضطر السلطات لوضع قانون ١٩٧٨ يحد مـن هذا النشاط بعد حركات المعارضة الإسلامية له.

ولكن الإسلام الشعبي يظهر في حركتين: الثقافة الوطنية. والاتجاهات التقدمية الاشتراكية. فبالرغم من محاولة الغرب دفع شعوب شرقي آسيا إلى العلمانية وتعـدد الأديـان ألا أن الإسلام ظل متوحدا بالثقافة الوطنية عند الشعوب. أراد باسم العلمانية أن يقضي على الثقافـات المحليـة وزرع الثقافـة الغربية باسم المدنية والعلم والحضارة العالمية التي يشـارك فيها الناس جميعا. كما أراد باسم تعدد الأديان القضاء علـى الإسلام باعتباره دينًا طبيعيا متوحدا مع الثقافـات الملحيـة وافساح المجال لزرع ديانات غربية مثل المسيحية الغربيـة. ويتضح ذلك في جاوه أكبر جزء أندونيسـيا عنـدما توحـد الإسلام مع الثقافة الوطنية في جاوه حتى أنه ليصعب التمييز بين الاثنين. لذلك ظهر الإسلام في أندونيسيا ثقافيـا محليـا وليس شعائريا طقوسيا، إسلام حضارة وليس إسلام عبـادة.

وكما يتضح ذلك في الحزبين الإسلاميين الكبيرين: المحمدية، ونهضة العلماء. يغلب الأول الدعوة الإسلامية وانتشارها بين الوطنيين، ويغلب على الثاني النهضة الحضارية الإسلامية.

أما بالنسبة للاتجاهات التقدمية الاشتراكية فقد كان المسلمون يكونون جزءا من الجبهة الوطنية التي أسسها سوكارنو والتي استطاع بها تحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندي. كان المسلمون والماركسيون والوطنيون يكونون جبهة واحدة مناهضة للاستعمار، تقدمية اشتراكية. كان الماركسيون مسلمين من حيث المضمون دون الشكل وكان المسلمون مسلمين مضمونًا وشكلاً. وقد تكرر ذلك من جديد في الجبهة المتحدة التي شكلها حزب "سرقة إسلام"، والحزب الشيوعي الأندونيسي. وكما اتحد الإسلام من قبل بالثقافات الوطنية فإنه اتحد أيضا بالحركات الوطنية التقدمية الاشتراكية والتي ساهمت جميعا في صياغة المبادئ الخمسة التي يقوم عليها الدستور: الإيمان بالله، احترام الإنسان، الوحدة الوطنية، الديموقراطية، العدالة الاجتماعية، كما توحد الإسلام مع حركات المعارضة للتسلط الداخلي والاستغلال الخارجي كما هو واضح في "الحركة الطلابية الإسلامية".

وقد وضح لدى الجماهير المسلمة في أندونيسيا أصل الجهاد في الإسلام فنشأت حركة "جهاد" من أجل التعبير عن الإسلام الملتزم بالقضايا الوطنية. فإسلام في أندونيسـيا إذن حركـة ثقافية وحركة سياسية يمثل ثقافة وطنية وحركة تحرر وطني لشعب أندونيسيا.

وقبع الإسلام الشعائري الشكلي، وانزوى عند بقايا أمراء الإقطاع أو رجالات الجيش. فاصطادهم الاستعمار، وكـانوا فريسة سهلة له، فقام الانقلاب الغربي الرجعي ضـد الحكـم الوطني، وعاد الإسلام الشكلي الغربي التقليدي إلى الظهور، وظهرت نغمة الغرب الدائمة عند المسلمين: "الإسـلام فـي مواجهة الإلحاد".

وإذا كان المسلمون في أندونيسيا يكونون حتـى حـوالي ٩٠% من مجموع السكان فإنهم في الملايو يكونون حـوالي ١٢٥ مليونًا حوالي ٦٠% من السكان نظرا لوجود حـوالي ٣٠% من الصينيين بالإضافة إلى ١٠% من إلهنود. وكمـا اتحد الإسلام بالثقافات الوطنية في الملايو حتى أصبح دخول الناس في الإسلام Islamization مساويا للتأكيد على إلهيـة الملاوية Malayizition لذلك قـام الاسـتعمار والتبشـير

بحملات ضخمة من أجل نشر المسيحية الغربية بعد ما انزعج من سرعة انتشار الإسلام بين الوطنيين، واتحاد الإسلام بالثقافات الوطنية وتوليده حركات تحرر وطني مناهضة للاستعمار، ولكنه لم ينجح في مهمته. فقد بدا للشعوب أن الإسلام هو الوطنية في الثقافة والسلوك وأن التبشير هو الغرب. الإسلام هو الثقافات المحلية والتبشير هو القضاء على الثقافات الوطنية Acclturation وزرع الثقافة الغربية محلها. الإسلام هو تأكيد الأنا والتبشير هو الاغتراب، ضياع الأنا في الآخر. السلام هي الطبيعة وحياة الناس ورعاية مصالحهم بما لديه من قدرة على التنوع والتمثل وإثبات الخصوصية. ويشارك "حزب الوحدة الملاوية الإسلامية" الآن مع الاتجاهات الوطنية التقدمية الدعوة إلى "الاشتراكية الإسلامية" والعودة إلى الأصول الأولى.

وفي الفلبين حيث بدأ الاستعمار الأسباني بعد سقوط غرناطة في ١٤٩٣ الالتفاف حول العالم الإسلامي من البحار واحتل جزر الفلبين وسماها في ذلك الوقت "الأمة المورية" نسبة للمسلمين في أسبانيا "المور". وقد بدأت حركة التحرر الوطني لديهم ممثلة في "الجبهة الوطنية للتحرير الموري" منذ

عشرات السنوات للتأكيد على هوية المسلمين الذي يتجمعون أساسا في الجنوب في "مندناو" مدافعين عن استقلالهم الذاتي ضد صنوف الإرهاب من الحكومة التـي ورثـت الطغيـان الأسباني ثم الياباني ثم الأمريكي في النهاية، وقد كلف ذلـك المسلمون حتى الآن ٥٠,٠٠٠ قتيل بالإضافة إلى ٥٠٠,٠٠٠ لاجئ. اتحد الإسلام أيضا بالثقافات المحلية، وأصبحت اللغة العربية هي لغة الثقافة، ويمثل المسلمون هناك، وهم حـوالي اثنان مليونًا ونصف، أكبر تجمع إسلام في جنوب شرق آسيا خارج أندونيسيا والملايو. ويتركز المسيحيون في الشـمال. ويحاول النظام الرجعي الغربي في الشمال القضـاء علـى النزعات الوطنية الاستقلالية عند المسلمين في الجنوب. ففي كل مكان في آسيا يصبح الإسلام مرادفًا لحركة الاسـتقلال الوطني و تأكيد الهوية القومية.

وفي تايلاند يكثر المسلمون على حدود ماليزيـا، حـوالي المليون، ويصبحون أقلية. يطردون بالآلاف من البلاد وكأنهم عنصر دخيل على الديانات القائمة لان الإسلام يمثل التحدث الحقيقي للنظام السياسية القائمة الموالية للغرب بما للمسـلمين

من قدرة على الصمود، ومواصلة النضال والجهاد في سبيل الله، والانصهار بالأجناس، وتمثل الثقافات المحلية.

وفي بورما يبلغ المسلمون أيضا حوالي المليـون علـى حدود بنجلاديش. قامت ضدهم أكبر حملة إرهاب في ١٩٧٨ فهربوا وهلكوا بالآلاف لأنهم يمثلون عنصر جذب للوطنيين، وبؤرة انتشار وتكأثر. وفي سنغافورة يبلغون حوالي نصـف المليون من الملاويين محاصرين بأغلبيـة مـن الصـينين. والمسلمون في كمبوديا وفيتنام أقلية داخل البوذية قد يخرقون الحصار يوما ما.

سابعا: نهاية العلمانية والتغريب (تركيا).

ظهرت بوادر النهضة الإسلامية الجديد في تركيا وكـان الرجل المريض الذي كان يضرب به المثل منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن قد دبت فيه الحياة من جديد مـن خلال أحفاد أصحاء، يبعثون الأمل والحياة في سلالة الأسرة من جديد.

كانت الثورة الكمالية في ١٩٢٣ نتيجة طبيعية لما وصـل إليه حال الخلافة الإسلامية ومركزها فـي اسـتانبول: قهـر وطغيان وتسلط، فقر و تخلف، جهل وخرافة، هزائم عسكرية

متوالية، دسائس ومؤامرات، أطماع شخصية.. الخ. وكـان من الطبيعي أمام النموذج الغربي الناجح أن ينشأ "الضـباط الأحرار" أو جماعة "الاتحاد والترقي" من أجل القيام بانقلاب لتغيير الأوضاع وتنبي النموذج الغربي العلماني فـي شـتى مظاهر الحياة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتشـريع بل حتى في اللغة وأسلوب الحياة من لباس وسكن. فوضـع التقدم ضد التخلف، والحرية في مقابل التسلط، والغرب فـي مواجهة الإسلام، والعصرية على النقيض من التراث.

ولكن بعد جيل واحد منذ الحـرب العالميـة الثانيـة رأى المسلمون الآتي:

١. موالاه تركيا في نظامها الجديد للغرب، والـدخول معه في أحلاف عسكرية، حلف بغـداد، الحلـف المركزي، وجعل أرضها مرتعا للقواعد الأجنبية، ففقدت استقلالها الوطني، وتغيـر الحـال منـذ الخلافة فبعد أن كانت جيوش تركيا في كل مكان في العالم الإسلامي، تدافع عن وحدته واسـتقلاله ضد الحركات الانفصـالية والأطمـاع الغربيـة أصبحت قوات الجيش الأمريكي علـى أرضـها

تدافع عن المعسكر الغربي الذي كان يطمع في تمزيقها بالأمس القريب.

٢. اقتصاد غربي رأسمالي منهار، يعيش على معونات أجنبية بعد أن كانت تركيا البلد الزراعي الصناعي الأول، وتحويلها إلى مجرد تجميع لصناعات الغرب أو أسواق لتصريف منتجاته أو أيدي عاملة في دولة صناعية. عم الفقر في البلاد، وتفاوتت الدخول بين الأغنياء والفقراء، وزاد الفقراء فقرا والأغنياء غنى حتى أصبح يضرب به المثل أيضا كنموذج للبلاد المتخلفة.

٣. "التغريب": في الحياة العامة، وغربة الأجيال عن ماضياه، وانقطاع حاضرها عن ماضيها حتى ساد الغرب الشرق بعد أن كان الشرق يشع على الغرب. أصبحت تركيا "قطعة من أوربا" كما حاول الاستعمار مع مصر أيام إسماعيل، وأصبح مضيق "البوسفور" معبرا من الغرب إلى الشرق بعد أن كان معبرا من الشرق إلى الغرب.

٤. نشأة التيارات السياسية الجذرية مثـل الماركسـية وجماعـات المعارضـة واتحـادات الطـلاب والتنظيمات السرية التي ترفض كل ما هو وجود من تغريب ورأسمالية حتى أصبحت خطرا يهدد النظام القائم مما دفع أمريكا بالأسـراع بتـدبير الانقلاب لاستيلاء الجيش على السلطة خوفًا مـن اليسار الوطني أو من الثورة الإسلامية.

٥. اذكاء روح القومية التركية، وانفصإلها عن الإسلام كوحدة سياسية شاملة، والثناء على الثورة الكمالية وتأييدها وتشجيعها، والمشـاركة فـي تصـدير النموذج الغربي في القوميات المتصارعة، وتحديد القومية بالأرض والأنهـار والجبـال والوديـان والبحار فتنشأ الخلافات على الحدود.

٦. معاداة القومية العربي، وقطع لواءي الاسـكندرونة وقطنه من سـوريا، وإذكـاء التعـارض بـين القوميتين التركية والعربية بل وإقامة معارك على الحدود، وصف الأتراك بالمسـتعمرين، وحكـم الأتراك بالاستعمار التركي، والإيهـام بوقـوف

الغرب، انجلترا خاصة، بجانب العرب ضد الأتراك، أثر الحرب العالمية الأولى حتى ينقلب العرب على الأتراك، ويقضي على وحدة الأمة الإسلامية:

٧. الاعتراف بإسرائيل، وضرب العرب في أعز أمانيهم القومية، بل ووضع القواعد العسكرية الأمريكية على أراضيها تحت تصرف قوات الغزو على الأمة العربي، فأصبحت تركيا والاستعمار وإسرائيل جبهة واحدة ضد الأمة العربية عامة وشعب فلسطين خاصة.

٨. وكرد فعل لمعاداة الأتراك للعرب، عادى العرب الأتراك وكأنهم ليسوا مسلمين، فناصر العرب اليونان على الأتراك في قبرص، كما أيدت اليونان العرب ضد الأتراك في فلسطين. ونسى الجميع أنهم كانوا أمة واحدة لمئات السنين حتى الأمس القريب.

وهنا تذكر الناس أن الحاضر ليس بأفضل من الماضي وأن هذا الأمس القريب لم يكن أسوء حالاً من الحاضر. وتذكروا:

١. حفاظ السلطان عبد الحميد على وحدة الأمة، ومقاومة الحركات الانفصالية للقوميات بالرغم من إدانتهم لوسائل القمع والاضطهاد المتبعة لتحقيق هذا الهدف. فالأمة الإسلامية الواحد لا تنفي تعدد القوميات داخلها على قدام المساواة.

٢. الحفاظ على فلسطين، ورفض كل العروض لشرائها أو استئجارها أو استعمالها أو أخذها رهنا مقابل مبلغ من المال كانت الدولة في أشد الحاجة إليه. كما رفض بدايات الهجرة اليهودية إلى فلسطين وحددها، وبالتالي لم تضع فلسطين.

٣. فتوحات الجيش التركي في أوربا، وانتشاره في دول البلقان بالرغم من إدانتهم لوسائل الاحتلال والقمع والسيطرة التي قام بها الجيش لشعوب البلقان والتي تخصصت أجهزة الإعلام الغربية في تصويرها. فالإسلام يفتح البلاد، وينشر

الحرية و العدالة والمساواة، ويصاهر المسـلمون الشعوب ويتخلط دماؤهم بـدمائهم. ويتوحـدون بتاريخهم، ويصبحون جزءا منهم إلى أن يتحولوا إلى تاريخ البلاد الطبيعي.

٤. مقاومة شتى أنواع الاستعمار الغربي فـي شـمال إفريقيا، والصمود أمام القوى الغبية فترة طويلـة بالرغم من ضعف الدولة وقـوة الغـرب. بـل ظهرت بطولات الجيش التركي فـي المقاومـة وركوب البحار وقيادة الأساطيل. كما اسـتطاعت الوقوف أمام مؤامرات الغـرب لتفتيـت عـرى الوحدة والـدفاع عـن أطـراف الإمبراطوريـة العثمانية.

٥. الحفاظ على التراث الإسلامي، وجمعه وتصـنيفه، وشرحه وتمثله حتى أصبحت "الكتخانة" العثمانية وريثة "خزانات" العراق والشام ومصر والمغرب، وأصبحت مساجد تركيا دورا لحفظ المخطوطات مثل مسجد أحمد الثالث. والحفاظ على التراث لا

يقل أهمية عن الحفاظ على الأرض والأمة. وما تاريخ بني إسرائيل ببعيد.

٦. بدايات التحديث والإصلاح داخل الإمبراطورية العثمانية من داخل الإسلام وليس من خارجه، فقد ظهر المصلحون مثل الأفغاني يريدون نهضة تركيا حفاظًا على الخلافة ودفاعا عنها ضد أطماع الاستعمار الغربي والهيمنة الشرقية والحركات الانفصالية. والتغيير من الداخل مع الاتصال أكثر بقاء ودواما من التغيير من الخارج مع الانقطاع.

ومن ثم أصبح حال الإسلام في قلوب المسلمين اليوم في تركيا كالآتي:

١. حنين إلى الماضي، وظهور الإسلام السلفي، ونفور من الثورة الكمالية وكأن الاجداد كانوا على حق أكثر من الاحفاد، ينشرون التراث ويبعثون الدراسات الإسلامية، وينتسبون إلى الإسلام كحضارة وان استحال انتسابهم إليه اليوم كدولة. ويظهر ذلك في الازدحام على المساجد وعلى

الحج وعلى التمسك بشعائر الإسلام والحرص على الهوية الإسلامية والاعتزاز بكونهم مسلمين أكثر من اعتزازهم بكونهم أتراك.

٢. ظهور تيارات الإصلاح، وحركات الإسلام المستنير التي ورثت الحركات والتيارات الإصلاحية التي وجدت أثناء الخلافة. وظهور بوادر جديدة للتغير الاجتماعي من الداخل بتطوير القديم ونقده، والعودة إلى طبائع الأشياء بدلاً من التقدم المزروع من خارج الجسد القائم على أساس من التقليدية والمحافظة وكما هو الحال في بولندا بين المسيحية كأساس والماركسية كغطاء فوقي.

٣. ظهور التيارات الوطنية التركية التي تدافع عن الوطن ضد الاستعمار الأمريكي، وهي الوطنية الأصلية، في مقابل القومية على النموذج الغربي، وما أيسر أن تتحد هذه الوطنية بتراث الأمة وهو التقليد الشائع في مصر والمغرب والشام وعند الأفغاني واضع شعار مصر للمصريين، والحزب

الوطني عند مصطفى كامل، والطهطاوي والكواكبي وكل زعماء الإصلاح.

٤. بدايات الإسلام الثوري والنهضة الإسلامية النشطة وظهور الإسلام السياسي كتيار أساسي خاصة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وإمكانية هذا التيار في الجمع بين التيارات الإسلامية الإصلاحية والاتجاهات اليسارية الجذرية والاتجاهات الوطنية، وبالتالي تتحقق وحدة الأمة في الإسلام والثورة وفي التراث والتجديد.

٥. رفض التغريب والاحساس المتزايد بسلبيات الثورة التركية، واكتشاف مخاطر القومية التي مزقت الدولة وقضت على وحدة الأمة، والدفاع عن صورة تركيا الإسلامية التي طالما شوهها الغرب فجعلها مرادفة للتعصب والجهل والخرافة والجنس والحريم والدسائس والمؤامرات والقسوة.

٦. العودة إلى وحدة الأمة الإسلامية والتقارب مع العرب وقطع العلاقات مع إسرائيل وتفهم العرب لقضية قبرص التي فتحها المسلمون أيام عمر بن

الخطاب والتي كانت إسلامية مئات السنين، ومازالت تركيا في قلوب العرب مكانة خاصة في حياة الناس اليومية.

ثامنًا: خاتمة

أن الإسلام في مطلع القرن الخامس عشر الهجري في قلوب المسلمين ليستأنف دورة جديدة بدأت في الإصلاح الديني في القرن الماضي على يد الأفغاني، دورة بعث جديدة، يتحول فيها الإسلام من مشاعر تربط الأمة إلى طاقة مولدة لحركة الجماهير الإسلامية فتتغير نظمها القائمة بعد أن ظهرت حدود الأيديولوجية الغربية العلمانية والقومية الليبرالية. لقد انتشر الإسلام في أوله بين قوتين كبيرتين: الفرس والروم، وانتصر عليهما واحتواهما، وافترش أرضهما، وتمثل ثقافتيهما، وعرب شعوبهما كقانون للتاريخ. فقد كان الإسلام تحمله طليعة ثورية استطاعت تجنيد الجماهير الإسلامية والتحرك نحو تحقيق رسالة التوحيد بينما كان الفساد والتفكك يدب في عرى القوتين الكبيريتين في ذلك الوقت بقادة تتمتع بمظاهر الحكم والبذخ تحكم أغلبية مطحونة وبتوجيه من عقائد عنصرية وقومية.

إن إمكانيات الأمة الإسلامية لا حدود لها سواء في الفكر أو في الواقع. فلديها "التوحيد" كعنصر جامع وعامل موحد، ينبثق عنه نظام يكفي المسلمين في تنظيم حياتهم. كما أن لديهم ثروات في باطن الأرض، ومواقع جغرافية، وإمكانيات بشرية، وتاريخًا طويلاً يؤهلها إلى أن تبعث من جديد في دورة ثانية للتاريخ أمام قوتين عظميين: الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة حيث بدأت في الأولى أصوات المعارضة، والاضطرابات، والتخلي عن الأيديولوجية الثورية الأولى، وتحكم مصلحة الدولة دون مقتضيات الثورة. وبدأت في الثانية أزمة الرأسمالية في الإنتاج والموارد الأولية والتسويق والطاقة وفي المشروعات القومية والاستراتيجيات الحضارية والمبادئ العامة والقيم. وبدأ المفكرون يحذورن من انهيار الغرب، وانتحار الغرب، وأزمة المجتمع الصناعي المتقدم، ونهاية المجتمع الاستهلاكي. فعاصر المسلمون اليوم بوادر انهيار القوتين العظميين في نفس الوقت الذي بدت فيه بوادر نهضة المسلمين ثانية. فأصبح المسلمون اليوم في نقطة تحول في تاريخ البشرية كلها.

ولكن التاريخ لا يتحرك من تلقاء نفسه. ولا يتحـرك ألا بتدخل العنصر البشري فيه من خلال عمل الافرد وحركـة الجماهير وإلا أصبحت قوانين حركة التـاريخ فارغـة بـلا مضمون. وقد بدأ المسلمون في أجيالنا هذه تحويل إمكانياتهم الحضارية والمادية إلى عمل وحركـة ونشـاط وممارسـة، يدفعون حركة التاريخ ويجعلون أنفسهم مادة قانونه ومضمون صراعاته.

أن الإسلام قادر على أن يعطي المسلمين الهوية السياسية، وأن يمدهم بنظام اجتماعي يجدون فيه خلاصهم مما هم فيـه من ضنك وبؤس وفقر، ونظام عقائدي يحيلهم من بعد خوفهم أمنا، وينقلهم من التخلف إلى التقدم، ومن الثبات إلى الحركة، ومن الوراء إلى الإمام، ومن الخلود إلى التاريخ.

ولقد كانت آسيا بالنسبة إلى الإسلام، رصيده البشري فـي بداياته الأولى. وهي أيضا كذلك في بداياته الثانية.. ففي آسيا يسود التوحيد الطبيعي، وتنتشر فكرة "الوحـدة" فـي جميـع ديانتها، وحيث توجد الدولة في شعور الجماهير، فـالمواطن يؤمن بالله، وينتسب إلى دولة، ويظهر الزعماء والقادة مـن أجل تحويل فكرة الواحد إلـى دولـة علـى الأرض بفعـل

الجماهير. لذلك كان تراث تيمور وجنكيز خـان وهولاكـو تراثًا وطنيا في آسيا الوسطى ممثلة فـي "أوزبكسـتان" أي الواحد الذي يحرك الجماهير مرة إلى الشـرق إلـى حـدود الصين، ومرة إلى الغرب المشرق العربي. كل ذلك يجعـل من آسيا ومما تمثله من روح وطبيعة، وثقافـة وحضـارة، وتاريخ وتراث قومي في مقابل أوربا التـي طالمـا غـزت المسلمين في تاريخها الحديث.

يستطيع المسلمون في مطلع القـرن الخـامس عشـر أن ينهض طائرهم من جديد بجناحهم الآسـيوي فـي الشـرق وجناحهم الإفريقي في الغرب وجسده في العالم العربي، وقلبه في مركزه. فلربما نهض العالم كله معه، فيصبح المسـلمون كما كانوا صناعا لبشرية جديدة.

نشأة الاتجاهات المحافظة في وطننا العربي الراهن

إنه ليعز على الإنسان حقًا مصير الثـورة العربيـة فـي مصر. فقد بدأ الأمل في قلوبنا جميعا منذ حوالي ربع قـرن من الزمان، وتوالت انتصاراتنا، الواحد تلوم الآخـر، منـذ القضاء على الملكية، وانسحاب جيوش الاحتلال، وتأميم قناة السويس، واندلاع ثورة العراق في تموز/ يوليو، وإنشاء أول محاولة وحدوية في تاريخ العـرب الحـديث، الجمهوريـة العربية المتحدة، ثم قوانين يوليو الاشتراكية في ١٩٦١، ثـم الوقوف أمام الأحلاف الاستعمارية، حلف بغدا قديما والحلف الإسلامي حديثًا. ولكن أتت هزيمة حزيران/ يونيـو كـأكبر صدمة في تاريخ العرب الحديث بعد ضياع فلسطين ونشـأة إسرائيل في أيار/ مايو ١٩٤٨، وظننـا أن شـباب الثـورة العربية قد عاد بثورة الفاتح من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩ فـي ليبيا. ولكن اختفاء عبد الناصر عن الساحة العربية منذ عشر سنوات تقريبا جعلها تخوض معركة البقاء دون زعامة قادرة على توحيدها واستمرار نضإلها.

ثم بدأت المصائب تتوالى، وذلك ابتداء من القضاء علـى اليسار الناصري في مايو ١٩٧١ في الدولة وفي الحرب، ثم الانفصال عن الحليف التقليـدي للثـورات العربيـة بطـرد الخبراء السوفييت من مصر في ١٩٧١، والوقع فـي أزمـة التسليح، ثم عدم استثمار حرب تشرين الأول/ أكتوبر وضياع نتائجها والتلاعب بها على مسرح السياسة الدولية، ثم بدايـة الانفتاح الاقتصادي وضياع الإنجازات الاشتراكية، ثم تكوين جسور بـين مصـر وإسـرائيل مـن خـلال الاشـتراكية الديموقراطية وبمساعدة الاشتراكية الدولية حتى يتم تجـاوز التناقض بين القومية العربية والصهيونية من خـلال وحـدة المذهب السياسي، ثم زيارة القدس، وأخيـرا الصـلح مـع إسرائيل والاعتراف بوجودها والتسليم بالصـهيونية كفكـرة وكواقع، والأراضي العربية مازالـت محتلـة، والأطمـاع التوسيعة الصهيونية مازالت قائمة نظرا وعمـلاً، وحقـوق شعب فلسطين مازالت شعارا خافتًا. ومن يدري ماذا يخبـئ لنا القدر في السنوات القادمة، والي أي مدى تنحسـر إليـه الثروات العربية؟

ويبدو أن هناك خطة دولية لمعاقبة المنطقة وللتكفير عـن الناصرية ومعاداتها للاسـتعمار والرأسـمالية والصـهيونية والرجعية ومحاولتها تحقيق مشروع قومي يووقوم على الحرية والاشتراكية والوحدة، وكأن المراد هو الإيعاز إلى شـعوب المنطقة بأنه خلال الثورات العربية تحت زعامـة ناصـر، خسر الوطن العربي أكثر مما كسب، واحتلت أراضيه. ولن يكسب الوطن العربي وتتحرر أراضيه ألا بعد التخلي عـن مشروعه القومي فيصبح مواليا للاستعمار وحليفا للصهيونية، وعميلاً للرأسمالية الدولية، تحت زعامة الرجعيـة العربيـة، وتبدو لنا الناصرية اليوم التي كنا نعاني أيضا مـن مثإلهـا وعلى رأسها غياب الحرية والديموقراطيـة وكأنهـا أزهـى فترات حياتنا، وكأنها الآن بالنسبة لنا مطلبا بعد المنال، نتمنى تحقيقه من جديد أو الرجوع إليه إذا ما عـاد التـاريخ إلـى الوراء.

وتحت السطح تبـدو المأسـاة أعظـم. إذ انقلبـت هـذه الانتكاسات في نظم الثورة وأهدافها إلى ردة أعظم في أبنيـة الناس الذهنية ومكوناتها النفسية. فنشأت اتجاهات محافظة في الحياة العامة. وأصبحت هي المسيطرة على أذهـان النـاس

وسلوك الجماهير. تستغلها السلطات السياسية من أجل تدعيم الانتكاسات الثورية وتنظيرها حتى نتسـاءل. هـل تنقلـب الثورات العربية بعد ربع قرن من الزمـان وبعـد إلهـاب الناصرية لمشاعر ملايين العرب من المحيط إلى الخليج إلى عكس ما كانت تهدف إليه؟ صحيح أنه تحدث في الثـورات انتكاسات جزئية وردة نسبية ولكن لم تنقلب الثـورات إلـى نقيضها كما انقلبت ثوراتنا. بل أنها أصبحت رائدة الثـورات المضادة في العالم، ومناهضة لجميع حركات التحرر التـي تولدت من الثورات العربية في بدايتها.

والسؤال الآن: ما هي أصول الاتجاهات المحافظة السائدة في عالمنا العربي الراهن خاصة في مصر، وما هي أسبابها ومصادرها؟ ليس السؤال: ما أصول الاتجاهـات المحافظـة السائدة في عالمنا العربي الراهن خاصة في مصر، وما هي أسبابها ومصادرها؟ ليس السؤال المطروح هو أيهما أسـبق الانتكاسات الثورية في الواقع العملي أم الاتجاهات المحافظة في الأبنية النظرية، أيهما علة وأيهما معلول؟ بل السؤال هو كيف نشات هذه الاتجاهات المحافظة فـي وعينـا القـومي بالرغم من وجوده في ثورة مادمت حوالي ربع قـرن مـن

الزمان. وإذا كان لابد من الاجابة على السؤال التقليدي عـن العلة والمعلول فإننـا نـرى أن وجـود القوالـب الذهنيـة والمكونات النفسية الموروثة التي لم تتغير بتغيـر الأنظمـة الاجتماعية الخارجية هي التي دفعت بالاتجاهات المحافظـة للظهور في اللحظة التي اختفت فيها الزعامة الثورية، وكأن ثورية القمة تستلزم بالضرورة ثورة القاعدة، وكأن أخطر ما يهدد أية ثورة هو ثورية السلطة وتقليدية الجماهير.

ويمكن تحديد نشأة الاتجاهات المحافظة في الوطن العربي الراهن وخاصة في مصر بأربعة مصادر ساهمت جميعهـا متجمعة في نشأة هـذه الاتجاهـات فـي حياتنـا السياسـية والاجتماعية والاقتصادية، وفرضت نفسها علينا في حياتنـا الخاصة والعامة.

أولاً: المحافظة الدينية:

لا تعني المحافظة الدينية أن الدين يحتوي على المحافظة بل يعني نشأة المحافظـة بسـبب وضـع الـدين الـذهني والاجتماعي والسياسي وذلك أن الدين في البلاد النامية هـو تراثها الشعبي الذي يمدها بقيمها ويحدد إنماط سلوكها، وهو يقوم بنفس الدور الذي تقوم به الأيـديولوجيات فـي الـبلاد

المتقدمة. فالدين هو موروث نفسي عند الجماهير يوجهها، ويحدد تصوراتها للعالم، ويعطيها بواعث السلوك. ولقد اتت الثورة منذ ربع قرن بالمبادئ الستة: القضاء على الاستعمار، والقضاء على الملكية، والقضاء على الإقطاع، وإقامة جيش قوي، وإقامة عدالة اجتماعية، وإقامة حياة ديموقراطية سليمة. وظلت هذه المبادئ الستة بلا أساس ديني صريح، تعبيرا عن الأماني الوطنية لكافة الفئات الاجتماعية. واكتفت مواثيق الثورة وعلى رأسها "الميثاق" ببيان أن الدين في جوهره حركة تقدمية تهدف صالح الإنسان وخير الجماعة دون أن تطور المفاهيم الدينية وتجعلها حاملة لأهداف الثورة. فظل الدين قائما في وجدان الناس بلا تحديث من الداخل، وبلا تغيير للقوالب الذهنية التقليدية. فكان من السهل بعد أن يضعف المد الثوري ويبدأ الجزر المضاد للثورة، بعد أن تغيب الزعامة الثورية وتحل محلها زعامة مضادة للثورة أن تظهر الأعماق التقليدية بعد غياب السطح الثوري، وان تنطلق القوالب الذهنية والمكونات النفسية الدينية الموروثة في غياب الرقيب الثوري فتظهر وتبدو للعيان. فهي لم تنشأ من عدم، ولم تتخلق بفعل اللحظة، ولكنها كانت موجودة بالفعل

كتيار تاريخي أساسي سائد منذ أكثر من ألف عام منذ انتهاء عصرنا الذهبي القديم واختفاء العقلانية التي مثلها الاعتـزال منذ القرن الثالث الهجري وضياعه بعد المحنة، وبعـد هـدم الغزالي للعقل في القرن الخامس والقضاء عليه قضاء مبرما. ولم تفلح بارقة ابن رشد في إعادة التيار نظرا لبعده عن قلب العالم الإسلامي في الأندلس. ذلك الصـقع البعيـد، ونظـرا لحصار ابن رشد ذاته من الفقهاء، وتحريم كتبه. ولـم تنـتج البارقة إلا في الغرب عند الرشديين اللاتين. نشـأ المـذهب العقلاني الطبيعي في العصر الوسيط عند الرشديين الاتـين. نشأ المذهب العقلاني الطبيعي في العصر الوسيط المتـأخر والذي أصبح فيما بعد أحد روافد النهضة الحديثة في الغرب. لم تنجح الثورة إذن في معالجة هذه المحافظة الكامنة لأنها لم تحاول على الإطلاق وتركتها راسخة في نفوس الناس حتـى عادت من جديد وبشكل طبيعي في الظهور بعد انحسار المد الثوري باختفاء الزعامة الثورية وتغييرها بزعامة محافظـة، فظهرت المحافظة الكامنة متفقه مـع المحافظـة الظـاهرة، وحدث الوئام بين محافظة القاعدة ومحافظة القمة، وامتـدت المصالح بين المحافظة كمكون نفسي عند الناس مع المحافظة

في قمة السلطة السياسية. وهو ما يفسر التأييد الشعبي لكل ما تفعله السلطة السياسية بصرف النظر عن نوعية القرار حربا كان أم سلاما، اشتراكية كان أم رأسمالية، ثورة كان أم ثورة مضادة.

لم تفعل الثورة أكثر من أنها استخدمت الدين دفاعا عـن ذاتها، وتثبيتًا لأركانها. فقد ذهب عبـد الناصـر والضـباط الأحرار معه بعد اندلاع الثروة إلى رجـال الأزهـر طلبـا لتأييدهم طبقًا لتاريخ مصر منذ الحملـة الفرنسـية وتعـاون رجال الجيش مع علماء الدين في مواجهة الاحتلال الأجنبي. ثم استعمل عبد الناصر تاريخ الإسلام بعد ذلك أيام الوحـدة مع سوريا من أجل بيان أن وحدة مصر وسوريا كانت هـي الدرع الحامي لحمى الإسلام أثناء الحروب الصليبية في وقت لم تكن القومية العربية قد تحولت إلى ركـن رئيسـي فـي أيديولوجية الثورة المصرية. وأخيرا استعمل عبـد الناصـر رجال الدين بعد قوانين يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١، للدفاع عن الاشتراكية باسم الإسلام بعد أن شنت السـعودية حملـة شعواء على الناصرية التي تمثل بالنسبة لهـا خطـرا علـى العرش وتهديدا مباشرة للنظام الملكي وبديلاً أمام الجمـاهير

العربية في السعودية وخارجها عن الإقطاع العـائلي. قابـل عبد الناصر الهجوم على الاشتراكية باسم الدين من خـارج مصر بالدفاع عن الاشتراكية باسم الدين من داخل مصـر، وجند لذلك علماء الأزهر وائمة المساجد واساتذة الجامعـات ورجال الصحافة والإعلام بوجه عـام وخرجـت عشـرات الكتب ومئات المقالات عن الاشتراكية والإسلام. حدث ذلـك كله بين ١٩٦١، ١٩٦٤.

فلما هدأت إلهوجة وتمت المصالحة بين السعودية ومصر، وبين فيصل وعبد الناصر، انتهى الجـدل. ظلـت معركـة الإسلام والاشتراكية معركة بين نظـامين، وصـراعا بـين زعيمين، كل منهما يستأجر عماله، يصدرون لهما ما يودان من فتاوٍ. ومجموع الشعب لا يهمه الأمر في شيء. فقد كانت معركة احترافية مهنية من أجـل الصـراع علـى السـلطة والحفاظ على الزعامة ولكن لم تتحول الجماهير في مصـر إلى إسلامية اشتراكية ولا فـي السـعودية إلـى إسـلامية رأسمالية، وظلت الجماهير في كلا البلدين محافظة تقليديـة بنفس القوالب الذهنية القديمة، ونفـس المكونـات النفسـية الموروثة. وهو ما سمى فيما بعد، بعـد اختفـاء الزعامـة

الثورية الإسلام العقائدي الشعائري الغربي الرأسمالي. والحقيقة أن الأمر ليس كذلك. بل ظهر الإسلام التقليدي في مصر عبد اختفاء الزعامة في صمر التي مثلها عبد الناصر. بانتشار الإسلام السعودي في مصر الثورية وتقابله مع الإسلام التقليدي في السعودية وفي أرجاء أخرى من العالم الإسلامي قبل اندلاع الثورة الإسلامية التقدمية في إيران.

بل إن الثورة قد اصطدمت مع الاتجاهات الدينية التحديثية مثل الأخوان المسلمين بسبب الصراع على السلطة وليس بسبب اختلافهما في تفسير الدين. فقد كان هناك اتصال وثيق بين الضباط الأحرار والأخوان المسلمين قبل الثورة، وكان الأخوان على علم بالثورة قبل وقوعها، وكان الاتفاق أن يقوم الأخوان بحراسة المباني والمنشآت العامة والسفارات والمصالح الحكومية ليلة الثورة وبعدها، وان يقدموا للثورة بعد نجاحها كل عون شعبي ممكن. بل كان نصف مجلس قيادة الثورة الإثنى عشر ممن كان له صلة مباشرة أو غير مباشرة بالأخوان. وكان الأخوان يتلقون المشورة الوطنية من الأخوان. ولكن كان الصراع على السلطة هو المقتل الذي فرقهما وأدى بهما إلى الصراع قبل اندلاع الثورة عندما أراد

الأخوان ضم الضباط الأحرار وجعلهـم شـعبة عسـكرية للجماعة. ورفض عبد الناصر ذلك واعتبره وصـاية علـى تنظيمه المستقل. ثم نشأ الصراع بعـد الثـورة عنـدما أراد الضباط الأحرار الاستئثار بالحكم والانفراد بالسلطة. فلم قاوم الأخوان معاهدة الجلاء سـنة ١٩٥٤ التـي كانـت تعطـي لبريطانيا حق العودة إلى منطقة السويس واستعمال المطارات المثرية في حالة الحرب حدث الصدام. وعاد الصـدام فـي ١٩٦٥، واستشهد سيد قطب كما استشهد من قبل عبد القادر عودة. وكان كلاهما يناط به التحـديث. التحـديث الفكـري والاجتماعي عند سيد قطـب خـاة فيمـا يتعلـق بالعدالـة الاجتماعيـة فـي الإسـلام، والإسـلام بـين الرأسـمالية والاشتراكية، والإسلام العالمي، والتحديث القانوني التشريعي عند عبد القادر عودة خاصة فيما يتعلق بالتشريع الجنائي في الإسلام، انتهت إمكانية التحديث عند الأخوان بالقضاء علـى الإمامين المذكورين، واستحالة تطوير الدعوة سـواء عنـد الرائدين أو عند تلاميذهما ونشأة يسار إسلامي داخل الدعوة. وظلت الدعوة على مدى ربع قرن، وهو عمر الثورة، أسير الجدران، ينمو فكرها في ظلمات السجون، فتحجر وتعصـب

وتصلب وحقد، وانزوى وانطوى وكفر كل مخالفيه وأصبح بينه وبين الناصرية ثأر شخصي تستحيل معه المصالحة أو المغرفة. ومن ثم قويت المحافظة الدينية بهجوم الثورة عليها، وأصبح بين الدين والثورة عداء مستحكم وثأر لا يمحوه إلا الثأر بانقضاض الدين على الثورة كما انتقضت الثورة على الدين.

وقد سمحت خلافة عبد الناصر بهذا الانقضاض نظرا لتشابك المصالح بين هذه الخلافة والأخوان، فكلاهما يود محو الناصرية، ومن ثم ظهر الأخوان واستأنفوا نشاطهم العلني، وتغاضت السلطة عن الأمر مادام في عداء كليهما للناصرية صلح مشترك، بل واستعملت السلطة الدعوة الإسلامية على يد الجماعة الإسلامية، الشكل التنظيمي الجديد للأخوان لضرب الناصرية وجميع الاتجاهات القديمة. ونجحت في ذلك في الجامعات وبين الشباب، دون أن تعي الجماعة الإسلامية دورس الماضي ورفض الأخوان الدخول في جبهة وطنية أثناء لجنة الطلبة والعمال في ١٩٤٧ ضد القصر والانجليز بل عادى الأخوان هذه الجبهة فتفتت الوحدة الوطنية. ولو أن محاولات الجبهة قد عادت لفترة قصيرة

أثناء أزمة مـارس/ إذار ١٩٥٤ ولكـن الثـورة سـارعت بالانقضاض على الفريقين اليسار الماركسي واليمين الـديني حتى تخلو لها الساحة الوطنية. وقد تم لها ذلك بالفعل حتـى انتفاضة اليسار الماركسي من جديد في ١٩٥٩ أثناء معركـة عبد الناصر وخروتشيف وانتفاضة اليمين الديني في ١٩٦٥. ولما تم للنظام الجديد في مصر بعد عبـد الناصـر ضـرب اليسار باستعمال الجماعة الإسلامية حتى كـادت أن تختفـي الناصرية والتقدمية بين الشباب بعد أن كانت مزدهـرة فـي أوائل السبعينات، وبعد توقيع معاهدة السـلام بـين مصـر وإسرائيل، وبعد ثورة إيران، شـعرت السـلطة بخطـورة الجماعة الإسلامية فتوجهت إليها بالتحريم والقمع، وأصـبح أصدقاء الأمس أعداء اليوم، وعاد الأمر كما بـدأ فـي أول الثورة تحريم الاتجاهات الإسلامية المناوئة للنظام القائم.

ونظرا لعدم رغبة الجماعة الإسلامية في الـدخول فـي معارك مبكرة مع النظام القائم بعد تعلمها الدرس من حكـم عبد الناصر ودخول الأخوان معه في معركة مبكرة اطاحت بالدعوة أكثر من ربع قرن فقد ركزت الجماعة على الـدين الشعائري. الصلاة والصيام والزكـاة والحـج. والمطالبـة

بمصليات بالجامعات وبالزي الإسلامي وإطالة اللحى، وأذان الصلوات، والصلوات الجماعية حتى ولو أثناء المحاضرات، وتحرير مجلات الحـائط واليافطـات الإسـلامية، وإقامـة معارض الكتب الإسلامية أو دعوة بعض المحاضرين مـن أئمة الأخوان السابقين أو من المشايخ المعاصـرين لإلقـاء بعض المحاضرات عن الإسلام. فالمحافظة الدينية هنا، وإن كانت هي الأساس الفكري لاتجاهات الإسـلامية، أصـبحت أيضا خطة مقصودة من أجل موالاتها للسلطة وموالاة السلطة لها.

هذا بالإضافة إلى أن الإسلام المظهري أكثر جذبا للأنظار ولجذب الشباب الذي تستهويه المظاهر من أجل الإعلان عن الذات وتأكيدها في غياب أية أيديولوجية أخرى مطروحة بعد حصار الناصرية والتقدمية في الجامعات. وبدت الاتجاهـات الإسلامية مسيطرة على الشباب نظرا لنشاط الصـفوة منهـا ونظرا لعدم وجود أي بديل آخر مطروح. ومع ذلـك ظلـت دائرة منعزلة لا تحظى بتأييد جماهيري وان بدت أكثر ممـا هي عليه في واقع الأمر.

وفي هذا الجو الذي تغيب فيه الممارسة السياسية السوية للجميع، وتنقصه روح الديمقراطية والتعبير عن الرأي الحر، وفي غياب أية أيديولوجية تقدمية بدأت المزايدة في الإيمان وظهرت الجماعات الدينية المتطرفة، تستعمل نفس السلاح الذي تستعمله السلطة وهو تكفير فرق المعارضة، والدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، والتركيز على الإيمان ضد الإلحاد، والإكثار من مظاهر إلهوس الديني في أجهزة الإعلام. خرجت جماعة "التفكير والهجرة" كجناح يميني للجماعة الإسلامية التي هي في أصلها الجناح اليميني لجماعة الأخوان لتقسم المجتمع إلى قسمين مجتمع الإيمان
لجماعة الأخوان لتقسم المجتمع إلى قسمين مجتمع الإيمان
ومجتمع المؤمنين خارج مجتمع الكفار، وتحرم تعامل الأول مع الثاني، وتكون جماعة منغلقة تدين بالطاعة المطلقة لأمير الجماعة ولا ترى حرجا في التصفيات الجسدية للخصوم، وتطبق شريعة المجتمع المغلق، في أحكام المصاهرة والمعاملات المدينة.

توقف التحديث الديني في عمر الثورة على مدى ربع قرن، ولم يستمر الإصلاح الديني أو يتطور منذ مائتي عام.

وانقطع ما أراده حسن البنا من استمرار المنار بعد وفاة مؤسسها رشيد رضا في سنة ١٩٣٥. وبعد أن ارتفع قوس الإصلاح الديني على يد الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي هبط من جديد على يد رشيد رضا وحسن البنا والجماعة الإسلامية. بل أننا تراجعنا عن مكتسبات الإصلاح، فعدنا اشعرية في التوحيد والعدل بعد أن استطاع الإصلاح أن يكون معتزليا في العدل مثبتًا قدرة العقل على الوصول إلى حقائق الأمور، والتميز بين الحسن والقبيح، ومثبتًا القدرة على الأفعال، والاختيار الحر، ومؤكدا قانون الاستحقاق. تراجعنا عن ربط الأفغاني العقائد بحياة الشعوب، ومحاولته إعادة بناء العقائد بحيث يستطيع بها مواجهة الاستعمار والتخلف والطغيان وتحقيق رقى الشعوب وتقدمها. وتراجعنا عما بدأه الكواكبي من رفض للفتور عند المسلمين والوقوف أمام الاستبداد والاستبعاد. وعادت المرأة متحجبة، وعاد الصراخ إلى الحكم الديني بعد أن قطعنا شوطًا طويلاً من الليبرالية والاتجاهات العقلانية، والدعوة إلى إقامة الدولة الحديثة على الحرية والديمقراطية، والدستور والحياة النيابية. وتركنا الوطنية بعد أن خرجت الوطنية من جبة الأفغاني فهو

الذي وضع شعار "مصر للمصريين"، وبعد أن خرجت أيضا من عمامة الطهطاوي وهو واضع شعار "حب الـوطن مـن الإيمان". رجعنا إلى الجماعة الدينية التـي تلفـظ الوطنيـة والقومية وتعتبرها هرطقات وكفرا وتبعية للغرب.

أما المؤسسات الدينية فإنها ظلت على ما هي عليـه منـذ انتهاء الخلافة الإسلامية وبداية الدولة الأموية. يقطنها رجال الدين ويأتمرون بأمر السلطان رهبة أو رغبة، خوفًا أو طمعا حتى تحولوا أيام المماليك إلى موظفين رسمين فـي الدولـة ففقدوا استقلالهم كلية، وفقدوا شروط الاجتهاد والاستفتاء. ولم تنفع المحاولات الفردية للرفض والطاعة للنظام فمـا جـزاء هؤلاء ألا الفصل أو التعذيب. وبالتالي فقـد رجـال الـدين قدرتهم على التحديث. ولما كان فاقد الشيء لا يعطيـه فقـد بشروا بالإسلام العقائدي الشعائري، فأنتشر الإسلام المظهري لدى الناس، وانحسر الدين عن الشارع. وقد تبنـت السـلطة أخيرا هذا الموقف رسميا فأعلنت أنه لا شأن للدين بالسياسة أو السياسة بالدين، فالدين للعبادة والسياسة لرجال السياسـة، وعلى أكثر تقدير يكون الدين عقيدة أي فلسفة نظرية لا شأن للدين بالسياسة أو السياسة بالدين، فالدين للعبـادة والسياسـة

لرجال السياسة، وعلى أكثر تقدير يكون الـدين عقيـدة أي فلسفة نظرية لا شأن له بالممارسات العملية. فـإذا انحسـر الدين عن الحياة مات واندثر. وتحولت المحافظة إلى تخلـف والي مجرد مأمن متحفى. وجاء التحذير لرجال الدين إيـاكم أن يظهر فيكم خميني! وانتشر خبر في الصحف عـن نيـة الحكومة رفع مرتبات رجال الـدين بعـد انتصـار الثـورة الإيرانية في إيران حتى لو فكر أحدهم في حذو المثل أعيـد شراؤه واستيعابه داخل المؤسسة الدينية. كمـا تقـوم هـذه المؤسسة بإدانة كل من يخرج على النظام سواء باسم الـدين أو باسم الشعب، وتنتقى من تاريخ الإسلام الشواهد التي تؤيد قرارات السلطة السياسية، وتستخرج من القـرآن والحـديث مبررات لكل ما يفعله النظام السياسي خاصة إذا ما كان فـي حاجة إلى مثل هذه المبرارات حين يبدأ الهجوم عليـه مـن الخارج كما حدث بعد زيارة القدس، ومعاهدة كامب ديفيـد، وأخيرا معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فبالرغم مـن أن الصلح مع إسرائيل محرم شرعا نظرا لاحتلالهـا أراضـي المسلمين إلا أن رجال الدين سرعان ما أخرجوا "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" دون حتى معرفة بمعنى الشرط، وإسـقاطه،

وجعل السلم بلا قيد أو شرط. وبـالرغم مـن أن المؤسسـة الدينية لا تحظى بأية ثقة شعبية، يتهكم الناس عليها ويتندورن برجإلها نفاقًا وتخلفًا وفسادا إلا أنها ظلت سـلاحا تسـتعمله الاتجاهات المحافظة سواء في السلطة أو خارجها ضد كـل الاتجاهات التقدمية المعارضة.

ثانيا: المحافظة العلمانية:

تعنى المحافظة العلمانية المحافظة التـي نشـأت بسـبب انتشار العلمانية في ثقافتنا المعاصرة وعدم اسـتجابة وعينـا القومي لها استجابة كاملة، في نفس الوقت التي تحاصرها فيه أجهزة الإعلام، وتندد بها السلطة، وتتهمها بالكفر والإلحـاد، وتعتبرها افكارا مستوردة لا تعبر عن قيمنا وترابنا وأرضنا وتاريخنا وتراثنا، فقد حـدث أن انتشـرت أفكـار الحريـة والديموقراطية والاشتراكية

منذ بداية التيار العلماني الغربي في فكرنا الحديث على يد شبلى شميل وفرح أنطون وأديب إسحق ونقولا حداد ويعقوب صروف وولي الدين يكن وإسماعيل مظهر وسلامية موسى. ومن الإحياء د. زكي نجيب محمود وفؤاد زكريـا وجميـع ممثلي روافد الفكر الغربي فـي حياتنـا المعاصـرة الـذين

استطاعوا الانتشار خارج الجامعات وأحداث تأثير على الشعوب والترويج لهذه التيارات الغربية باعتبارها تمثل حركات إصلاحية تحديثية مثل العلمية (د. فؤاد زكريا) والوضعية المنطقية (د. زكي نجيب محمود) والوضعية الاجتماعية (عبد العزيز عزت) والماركسية (د. الطيب تيزيني، د. صادق جلال العظم) والوجودية (د. عبد الرحمن بدوي وزكريا إبراهيم) والشخصانية (د. الأحبابي، حبشي) وفلسفة الظواهر (أدونيس).. الخ. لم تستطع كلها أن تؤثر على الجماهير بنفس الدرجة، ولم تستطع كلها أن تتحول إلى فكر شعبي بنفس القوة، وظل أشهر التيارات، العلمية الوضعية والماركسية. أما المثالية الغربية فلم يحدث رد فعل عليها نظرا لأنها تقوم على الدين والإيمان وتؤمن بما رواء الطبيعة وخلود النفس، وتنحو نحوا صوفيا حدسيا إشراقيا بما يتفق وعقائد الجماهير وتراثهم الشعبي. ولكن الأشكال كان مع التيار العلمي الوضعي. والتيار الماركسي.

يبدو إذن أن التحديث من الخارج عن طريق مذاهب منقولة عن الغرب يسبب سرعة حصارها وتشويهها والقضاء عليها بعد تحديد أثرها واتهامها بالكفر والإلحاد أو الشيوعية.

صحيح أن الحضارات تتفاعل فيما بينها. وقد أخذنا قديما وأعطينا من الحضارات المعاصرة لنا وإليها. بل أن الأخذ هو شطر العطاء. فلولا الصياغات العقلية اليونانية لعقليتنا الإسلامية القديمة ما استطعنا أن نعطي للغرب عقلانيتنا المتميزة فينهض ويتحرر من عصره الوسيط الإيماني. ولولا أخذنا من الهند الحساب والإعداد لما استطعنا أن نعطي للغرب الجبر وحساب المعادلات. ولولا أخذنا من أبو قراط وجالينوس الطب لما استطاع أن يعطي ابن سينا وابن رشد للغرب الطب العربي. ولكن القدماء كانوا يعيشون في مجتمع متقدم، وكانوا على ثقة بحضارتهم وبأنفسهم وبانتصارهم، فلم يتورعوا عن الانفتاح الثقافي على الحضارات الأخرى، وتمثلوا، وخلقوا. ولكن الأمر يختلف اليوم.

فنحن نعيش في مجتمع متخلف مهزوم،فاقد الثقة بنفسه، يأخذ أكثر مما يعطي، وينقل أكثر مما يخلق، فكان من الطبيعي أن تقوم المحافظة الأساسية في وجدان الشعب المستمرة منذ أكثر من ألف عام بأن تلفظ هذه الأجسام الغربية المنقولة قسرا، دفاعا عن الأرحام، وحرصا على الأصالة، وتأكيدا على النقاء والشمول. وكلما زاد المنقول

وظهر أثره اشتدت حركة الرفض له، وزادت المحافظة قـوة وعمقًا.

ولما كانت هذه المذاهب المنقولة محصـورة فـي فئـات المثقفين فإنها لم تتحول إلـى تيـارات شـعبية وحركـات جماهيرية واتجاهات وطنية، وقد قوى من هذا الحصار عزلة المثقفين الطبيعية، وعدم وجد ثقـة مشـتركة بيـنهم وبـين الجماهير، سواء فيما يتعلق بالألفاظ مثل الماديـة الجدليـة، وقوانين الكيف والكم، وقوانين الحركة والطاقة أو فيما يتعلق بالمصادر التاريخية مثل هيجل وماركس أو نيوتن وبيكـون وأينشتين. وقد قوى من ذلك أيضا نظرة الجماهير إلى طبقة الافندية الذين يمثلون بالنسبة لها الطبقة الحاكمة المسـيطرة على أجهزة الإعلام أو على الأقل القريبة من الحكام والتـي تستعمل لغتهم والتي تستفيد أيضا من اتصإلها بالساطة فيمـا يتعلق باللباس المهندم، والمسكن النظيف، والمرتب المرفتـع وربما العربة الكبيرة وكل مظاهر الوجاهة الاجتماعية. قـد تشعر الجماهير بالنسبة لطبقـة الافنديـة بعقيـدة نقـص لا شعروية تمنع من أن تستمع إليها، حتى ولو كان فيما تقـول صالحها. كما قد يعطي المثقفون الجماهير سواء عن قصد أو

غير قصد أحساسها بمركب العظمة، فهم أصـحاب الياقـات البيضاء، وأهل العلم، واصحاب الحظوة لدى السلطات، وعن طريقهم تقضي الماصالح وتتحقق الوسائط، ويبلـغ المـراد. وبالتالي نشأت أزمة ثقة بين الأفندية والجماهير حتـى أنـه ليصعب أن تنشأ الزعامة بينها. فأصبح الأفندية زعماء بـلا جمهور، والجماهير شبعا بلا زعامة.

فإذا ما أحست السلطة بخطر البعض الـذين اسـتطاعوا أحداث أثر على أنصاف المتعلمين أو على طبقًـات العمـال وبالتالي اتسعت دائرة المثقفين خاصة في الجامعـات التـي مازالت محور الحركة الوطنية فـي الـبلاد الناميـة سـهل استئصالهم بالقبض عليهم. وزجهم بالسجون واتهامهم بالكفر والإلحاد والترويج للمبادئ الهدامة المخالفـة لتقاليـد الـبلاد وميراثها التاريخي. فلا تتحرك الجماهير، وكأن الأمر كـان صراعا على السلطة بين الزمرة الحاكمة والافنديـة الـذين يودون مشاركتهم في الغنيمة. وبعد مدة من الـزمن يـدرك المثقفون أنه لا حيلة لهم أمام السلطة القائمـة بشـروطها ألا العمل من داخل النظام مما يؤكـد للجمـاهير أن المثقفـين والحكومة شيء واحد وإن اختلفا مؤقتًا على اقتسام الغنيمـة.

أو الهجرة والعمل من الخارج ضد النظام مما يؤكد انعدام الأثر على الجماهير التي لا تقرأ الصحف الأجنبية أما لعدم معرفتها بالقراءة أو لمصادرتها أو لصعوبة الحصول عليها، وما أسهل حصار هؤلاء أيضا واتهامهم بالعمل ضد الوطن بالتعاون مع جهات أجنبية معادية فيتم عزلهم تماما عن الجماهير. أو العيش في صمت، يكتب المرء ويعود إلى أكاديميته الأولى التي لا يتجاوز أثرها أفرادا معدودين. أو العيش في سلام داخل البلاد وخارجها يعيش ويدخر، ويترك النضال للشبان، ويكتفي هو باجترار الذكريات أو إعطاء النصح لهم إذا ما طلب منه ذلك.

وبعد فشل التحديث من الخارج أمام الجماهير تبقى الساحة الفكرية خالية أمام المخزون النفسي الكامن عند الجماهير. فتظهر المحافظة الكامنة على السطح، ويبدأ رفض كل هذه المحاولات إما تلقائيا أو بتحريك من السلطة. ولكن يتفجر الغضب العشبي ضدها وبالتالي يستحيل على المثقفين التأثير أو القيادة، وتصبح المحافظة التقليدية هي الاختيار الوحيد أمام الجماهير، الصامد أمام جميع المذاهب الوافدة حتى ولو استغلت السلطة هذا المخزون القديم، وبالتالي تتقرب السلطة

للشعب ويتقرب الشعب للسلطة ضد التحديث من الخارج أولاً وضد التحديث ككل ثانيا، فالتناقض بين الشـعب والسـلطة تناقض ثانوي في أن التناقض بين الشعب والسلطة من ناحية وبين المثقفين من ناحية أخرى تناقض أساسي.

إن السبب في سيادة المحافظة هنا يرجع إلى فشل التحديث العلماني حيث إنه كان مجتث الجذور عن تراث الشعب وإن كان ما يحمل من أهداف مثل العلميـة والاشـتراكية يعبـر بصدق عن مطالب الأمة واحتياجاتها. ولكن هنا فرق بين أن تأتي هذه الأهداف من الخارج وبين أن تنبع مـن الـداخل. فمثلاً إذا أردنا أن ندعو شعوبنا إلى تمثل النظرة العلمية فـي الحياة العامة، وتفسير الظواهر تفسيرا موضـوعيا للقضـاء على نظرتنا الاسطورية للعالم التـي تعتمـد علـى الـوهم والخرافة، فإنه يصعب الدعوة لذلك عن طريق نيوتن وبيكون واينشتين وذلك لان هؤلاء لا يقبعون في المخزون النفسـي عند الجماهير ولكن يسهل ذلك عن طريق احيـاء التيـارات المماثلة في تراثنا القديم مثل التيار العقلاني عند المعتزلـة، والتيار الطبيعي عند اصحاب الطبائع، كمـا يمكـن بعـث نظرات علمائنا القدامى في الرياضة والطبيعة وتحليل رؤيتهم

للعامل. كما يمكن اللجوء إلـى القـرآن مباشـرة باعتبـاره المصدر الأول لوعينا القومي في دعوته إلى العقل والنظـر في الطبيعة وتسخيرها للإنسان. بذلك يتم التحيدث، وتتحـول المحافظة الكامنة في نفوس الناس والموروثة منذ أكثر مـن ألف عام إلى تحقيق طبيعي لمطالب الجماهير، فتتطور مـن تلقاء نفسها، ومن داخلها، فتتبخر، وتتحول إلى تقدميـة فـي العلم وفي المجتمع، وتصبح المحافظـة المتطـورة أسـاس النظرة العلمية ودعامة البناء الاشتراكي. وبالتـالي تتحقـق أهداف العلميين والماركسيين ولكن بوسائل مختلفة. فبدلاً من أن يتم التحديث عن طريق نقل المذاهب الغربية يـتم عـن طريق إحياء هذه المذاهب الكامنة في شعورنا القومي فتصبح بديلاً آخر عن المحافظة الموروثة، فتتصارع الدبائل حتـى ينتصر البديل الجديد باعتباره أكثر تحقيقًـا لمطالـب الأمـة وأكثر دفاعا عن مصالحها.

إن خطورة التحديث العلماني من الخـارج هـو إنكـار المرحلة التاريخية التي تمر بها مجتمعاتنا وإسقاط المـذاهب الغربية عليها طبقًا للمزاج والهـوى الشخصـي للأفـراد أو للفئات حتى أصبح واقعنا الثقافي سـاحة متضـاربة لجميـع

أنواع المذاهب الأدبية وفنانينا وكـلاء حضـاريين لغيرنـا. ويظن المحـدثون أن التريـوج لآخـر المـذاهب وأحـدث الصيحات يجعلهم أكثر تحديثا من غيرهم فينشأ لـدينا الفـن التجريدي والموسيقى الإلكترونية، كما تروج لـدينا البنائيـة ومسرح العبث.. الخ، ويصبح كل مثقف لدينا متخصصا في مذهب، يدعي إلى أجهزة الإعلام كمرجع متخصص، ويكون كمن يفتتح دكانًا ويرفض أية منافسة أخرى من دكان يريد أن يبيع نفس الصنف. قد تكون مجتمعاتنا في حاجة إلى عصـر إحياء الذي مر به الوعي الأوروبي في القرن الرابع عشـر والذي مررنا به نحن في القرن الماضي. قد تكون مجتمعاتنا في حاجة إلى إصلاح ديني مرت به أوربا في القرن الخامس عشر والذي بدأناه نحن في القرن الماضـي دون أن نكمـل الشوط إلى نهايته ودون أن نستثمر الإصلاح إلـى أقصـى حدوده. قد نكون في حاجة إلى عصر نهضة مرت به أوربا في القرن السادس عشر من أجل التأكيد على حرية الإنسـان في البحث وحقه في نقد الموروث وعـدم التسـليم بسـلطة القدماء والاعتزاز بجسد الإنسان وبتحليل الطبيعة وهو مـالم نجربه حتى الآن ولو أننا حاولنا، على استحياء منـذ القـرن

الماضي واختفت المحاولة أثر المد المحـافظ فـي الآونـة الأخيرة. لذلك يستبق البعض التاريخ عندما يروجون للمذاهب العقلية المثالية الدينية في القرن السـابع عشـر الأوروبـي خاصة الديكارتية التي أن هـي ألا حصـيلة جهـد طويـل استغرق أكثر من ثلاثمائة عام.

كما يتسبق البعض الأحداث عندما يريدون تأسيس فلسـفة تنوير شاملة كتلك التي حدثت في القرن الثامن عشـر فـي الغرب، وذلك لأنها أيضا حصيلة جهد طويل وصراع مـن أجل حرية الفكر دام أكثر من أربعة قـرون. وقـد يحـاول البعض أن يستبق التاريخ ويروج إلـى الماديـة التاريخيـة والجدلية والاشتراكية العلمية التي ظهرت فقط فـي القـرن التاسع عشر الأوروبي والتي كانت نهاية المطـاف بالنسـبة لتطور الوعي الأوروبي على أكثر من خمسة قرون، إن فشل التحديث العلماني إنما يرجع إلى عـدم الـوعي بالمراحـل التاريخية ونقل المذاهب الغربية وكأنها نشـأت فـي فـراغ وإعادة زرعها في تربة قد تكون غير صالحة المناخ والطين.

وأخيرا، أن عملية التحديث لا يمكن أن تتم علـى نحـو انتقائيي جزئي نسبي بل هي عملية تطوير شامل فـي حيـاة

المجتمعات. قد يحدث التحديث الانتقائي الخـارجي بعـض الأثر في بعض نواحي الحياة مثل إقامة معركة عسكرية على أساس من التخطيط العلمي السليم ولكنه لا يحدث أثرا مشابها في كل نواحي الحياة الاجتماعية. هذا التحـديث الشـامل لا يتأتى إلا عن طريق تطوير المخزون النفسي عند الجمـاهير الذي يمدها بالمحافظة كتيار تـاريخي مسـتمر. ومعـين لا ينضب، إن التحديث الجزئي سرعان ما تعصف به المحافظة الكامنة فتمحو أثره أو تسيء تأويله كما حدث فـي تفسـير عبور القناة بالمعجزات أو بمساعدة الملائكة مـن السـماء. كذلك ستظل المحافظة كامنة في النفوس طالما أنها لا تتحول برمتها في عملية التحديث إلى شيء آخـر حتـى تتخـارج وتعيش في ميدان الوعي اليقظ فتتطور تطورا طبيعيا. ومـن ثم نأمن من الردة، ولا نقع من جديد فـي هـوة الماضـي السحيق.

ثالثًا: المحافظة السياسية:

تعني المحافظة السياسية المحافظة التي نشأت بسبب فشل التحديث السياسي إبان الثورات العربية الأخيرة. لـم تنشـأ المحافظة من السياسة مباشرة بل نشأت كرد فعل على عملية

التحديث السياسي التي لم تمس جـذور الشـعب ووجدانـه التاريخي. فلم تتجاوز المبادئ الستة في عـام ١٩٥٢ التـي قامت الثورة لإعلانها مستوى الخطابة السياسية. كما كانـت الاشتراكية الديموقراطيـة التعاونيـة فـي ١٩٥٧ كلمـات فضفاضة لم ترتبط بجذورها في وجـدان الشـعب وتراثـه الطويل. ثم جاءت الاشتراكية في ١٩٦١ وكأنها أيديولوجيـة الحكومة تحدد الملكية، وتحدد ساعات العمل، وتحـدد الحـد الأدنى للاجرة، وترسى قواعد لتطاع العام. ولكن كـان ذاك تلبيات لحاجات الجماهير الوقتية دون أن تتأصل في وجدانهم ودون أن تتحول إلى أيديولوجية سياسية للجماهير.

صحيح حاولت منظمات الشباب، والمعاهد الاشـتراكية، والصحافة الحزبية، وأمانات الـدعوة والفكـر، وترجمـات أمهات الكتب عن الاشتراكية عـرض المـذاب الاشـتراكية عرضا مفصلاً ولكنها لم تتجاوز بعض المبادئ التي يتلقاهـا الشباب ويكررها والتي تقف فيها جماهير الشعب على الحياد التام. لذلك لم تدافع الجماهير عن أيديولوجية الثورة أي عـن الاشتراكية العربية في الوقت الذي اختفـت فيـه الزعامـة الثورية وحلت محلها زعامة الثورة المضادة وكأن الأمـر لا

يعنيها. لم تتحول أيديولوجية الثورة إلى عقيدة ثورية عند الجماهير متصلة بحياتها ومتأصلة جذرها في تاريخها. فظلت الجماهير مسلمة من جانب تسمع خطبا في الاشتراكية من جانب آخر دون أن يحدث تأويل لعقديتها الدينية بحيث تكون الاشتراكية مضمونًا لها ودون أن تتحول الاشتراكية إلى مضمون لعقيدتها. بقى التوحيد فارغًا بلا مضمون ألا من تشخيص الله الحي الرزاق.، وبقيت الاشتراكية خطبة حماسية تلهب مشاعر الناس وتنتظرها بين الحين والآخر فتخفف من سلواها وأحزانها حتى موعد الخطبة القادم أو بقيت أيديولوجية الطبقة الحاكمة توزع مكاسب الاشتراكية فيما بين إفرادها أو اشتراكية القول والكلام دون الفعل والممارسة.

لقد حاولت الثورة تطوير الدين من الناحية الشرعية ولكنها لم تعد تفسيره على نحو جماهيري بحيث تتحول عقيدة الجماهير إلى أيديولوجية ثورية. ألغت المحاكم الشرعية. وحاولت إعادة صياغة قانون للأحوال الشخصية عدة مرات، وألغت الوقف، ونظمت الطرق الصوفية، وأصدرت قانون تطوير الأزهر، وأنشأت المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وركزت على أهمية التربية الدينية في المدارس، وأقامت

برامج دينية جديدة في أجهزة الإعلام، ومحطة مستقلة للقرآن الكريم، وأكثرت من بناء المساجد والمعاهد الدينيـة لتحفـيظ القرآن الكريم. ولكن كل ذلك لم يمس قضـية إعـادة ربـط العقيدة بالمساواة والله بالأرض، ولم يسـتثمر كـل طاقـات العقيدة الدينية كحامل أو مد لمشروع الثـورة القـومي فـي معاداة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والرجعية. كانـت كل هذه الإصلاحات التشريعية تهدف إلى تحقيـق مصـلحة عامة.

فكانت تحديثا للقانون الديني، ولكنها لم تمس العقيدة الدينية ذاتها التي ظلت على ما هي عليه تقليديـة سـنية لشـعرية صوفية تقوم على سـلطوية التصـور، وحرفيـة التفسـير، وإطلاق الإرادة الإلهية، وفناء العالم، وتبعية الجسد. وما أن اختفت الزعامة الثورية حتى بقت المحافظة الدينية الأساسية. ولم تستطع الخطب الحماسية والأقوال والشـعارات الإبقـاء على شيء من المكاسب الاشتراكية. بل أنه حتى بعد السلام مع إسرائيل والاعتراف بالدولـة الصـهيونية لـم تتحـرك الجماهير ولم تعارض وذلك لأن العداء للصهيونية كان عداء

سياسيا خالصا ولم يرتبط بالعقيدة الدينية التي ظلـت علـى تقليديتها مضافًا إليها خطابة سياسية لا ثقل لها.

كانت هناك زعامة ثورية ولكن لم تكن هناك عقيدة ثورية أو جماهير ثورية، وهو ما حاولت الثورة الإيرانيـة تلافيـه فيما بعد. مما دعا البعض إلى القول بأن الثـورات العربيـة ذاتها لم تكن جادة في تحقيق مشروعها القومي فـي معـاداة الاستعمار والصهيونية والرأسـمالية والرجعيـة. فمعـاداة الاستعمار تقتضي ربط الله بـالأرض، والعقيـدة بـالتحرر، والإيمان بالمقاومة، وتبرز الجهاد كأول واجب على المسلم. ومعاداة الصهيونية تقتضي رفض عقيدة شعب الله المختـار، والوقوف أمام التوسع والعنصرية. وتقتضي أيضـا الكشـف عن تغلغل الفكر الرأسمالي في تصورنا للعالم بل وفي إيماننا بعقائدنا على النحو الموروث، والربط بين التوحيد والمساواة في المجتمع الإسـلامي اللاطبقـي، وإظهـار المالكيـة لله. واستخلاف الإنسان، وحق الدولة في التـأميم والمصـادرة، وملكية الوسائل العامة للإنتاج، ونقد تكدس المال بين حفنـة من الأغنياء، ونقد المجتمع الرأسمالي بوجه عام. كما تقتضي تفنيد النظم الرجعية المتخلفة والكشف عن وضع رجال الدين

فيها وكيف يأتمرون بأوامر الحكام، وكيف يفسر الدين لتثبيت الوضع القائم، وكيف تتم في مثل هذه المجتمعـات ممارسـة الشعائر الدينية نفاقًا وتسترا على مظاهر السـرقة والنهـب والتسلط والطغيان. ولكن ترك هذا التحديث الجوهري للعقيدة الدينية والاكتفاء بالتحديث السياسي الذي ساهم فـي غيـاب النقص النظري في الثورات العربية وجعلهـا متعثـرة ذات طابع تجريبي خالص، تسير وفقًا للظروف وتصدر قراراتها طبقًا للأحداث مما جعلها تسير من اليمن إلى اليسـار مـرة ومن اليسار إلى اليمين مرة أخرى، وكل ذلك بدعوى الوسط.

وكان من جراء ذلك التحـديث السياسـي دون المسـاس بعقائد الجماهير، عدم تأصيل التجربة الثورية على المستوى النظري. والقدر النظري الذي وجد غلب عليه طـابع النقـل والتجميع. ولكن الذي كان غالبا على مستوى تصورات العالم ورؤى القيادات والجماهير للكون هو التصور الغربي للعـالم الناتج عن الرأسمالية الغربية والتي سـرعان مـا تفجـرت وظهرت بعد اختفاء زعامة عبد الناصر الثورية. لم يحـدث نقد للثقافة الغربية يمكن تحرر أذهاننا منها. فأدرنـا القطـاع العام بعقلية القطاع الخـاص، وطبقنـا الاشـتراكية بعقليـة

الرأسمالية. وكما قيل في نكاتنا الشعبية أعطينا الإشارة يسارا واتجهنا يمينًا.

وكان من شأن الطابع الأوتقراطي للنظام القضاء على كل محاولة لتأصيل الاشتراكية وتطويرها وأخذ المشروع القومي العربي مأخذا أكثر جدية وذلك بتجنيد الجماهير لـه. ولمـا كانت القيادات كلها من تكوين ثقـافي غربـي فـإن معظـم القرارات قد صدرت لترسيخ البنـاء الرأسـمالي للمجتمـع خاصة في أولويات الخطة. وعندما يقوم البناء الرأسمالي في مجتمع متخلف فإنه يصبح أشبه بالإقطاع الطبقي منـه إلـى الرأسمالية المستنيرة إلى تقوم على التراث الليبرالي. ومن ثم تتأكد المحافظة على الرغم من التحديث السياسي بل وتتأصل المحافظة نظرا لقوتها الكامنة وقدرتها علـى التـأثير فـي الجماهير وتقديمها تبريرا للنظم القائمة. وأصبح الوضع هـو تحديث على السطح ومحافظة في الأعماق، ومـا أسـهل أن يتبدل السطح وتبقى الأعماق. وكأن ثوراتنا العربية الأخيرة، بالرغم من كل إنجازاتها الخارجية كرست المحافظة التقليدية حتى بدت مجتمعاتنا قبل الثورة أكثر تقدما نظـرا للتـراث الليبرالي الذي كان ثابتا فيها منذ القرن الماضي. وقـد كـان

لغياب حرية الفكر، وعدم مساهمة المثقفين في عملية التحديث عبد أن تركوا دورهم لأجهزة الإعلام، ونقص الجدية في تحقيق مشروعنا القومي نظرا لاتساع إلهوة بين الأهداف المعلنة والقرارات الصادرة كان لذلك كله أثر في ترسيخ المحافظة نتيجة لعملية التحديث في النظم الخارجية وترك القوالب الذهنية والمكونات النفسية الموروثة إبان الألف عام الخيرة دون تغيير أو تبديل.

رابعا: المحافظة الاجتماعية:

تعني المحافظة الاجتماعية تلك التي نشأت بسبب البناء الاجتماعي الذي تكون إبان الثورات العرابية الأخيرة. فبعد ضرب طبقة الإقطاع وكبار الملاك في الريف، انتقلت القيادة السياسية من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى. وقد ورثت هذه الطبقة بعض امتيازات الطبقة العليا وذلك لحاجة رجال الثورة للتعاون مع بعض الفئات يحكمون من خلالها ويعتمدون على خبرتها. حدث صعود اجتماعي سريع للطبقة المتوسطة إبان الثورة حتى أصبحت تسمى في منتصف الستينات الطبقة الجديدة وفي أوائل السبعينات القطط السمان أو مليونيرات مصر الجدد أو الإقطاع الجديد في الريف أو

الرأسمالية الوطنية بالرغم من التفرقة فيما بعـد بـين غيـر المستغلة، والمستغلة منها. ولما كانت لكل طبقة قيمها، فقـد ساعدت قيم الطبقة المسيطرة بتحالفها مع الطبقة المتوسـطة وقيمها على الدفاع عن الوضع القائم وترسيخ قـيم الطبقـة الدنيا والدفاع عنها. ولا تعني الطبقة هنـا معناهـا الضـيق الدقيق أعنى المعنى الاقتصادي فحسب بـل تعنـي أساسـا المعنى السياسي، أي نسبة كل طبقة مـن الحكـم، ومـدى مساهمتها في صنع القرار السياسي، وموقعها من السـلطة، وحتى إذا كانت السياسة تعبيرا عن الوضع الاقتصادي فـإن الحكم تعبر عن البناء الاجتماعي. وقد ظهـرت المحافظـة الاجتماعية ابتداء من السبعينات وبعد اختفاء زعامـة عبـد الناصر الثورية وظهور تحكم البناء الاجتماعي والاقتصادي في إصدار القرارات السياسية، وسيطرة الطبقة الجديدة على الحكم بعد أن بانت مخاطرهـا. وكانـت هنـاك محـاولات لتحديدها أثر هزيمة حزيـران وفـي برنـامج ٣٠ مـارس ١٩٦٨، وفي دراسات مؤتمر المبعوثين المقدمة مـن وفـد الدارسين بفرنسا في أغسطس ١٩٦٦ بالاسكندرية ولكن أحد لم ينتبه إليها إلا بعد تجسيم مخاطرها بعد الهزيمة.

وتتمثل قيم الطبقة الحاكمة في عدة قيم يجمعهـا مفهـوم "كبير العائلة" أو "رب الأسرة" الذي وجب له الاحترام، وعدم مناقشته أو الاعتراض عليه، وتقبل قراراته الأبوية باعتبارها خيرا للجميع حتى وإن بدت في الظاهر مضرة عليهم، ويبرر رجال الدين قائلين أن مرارة الدواء ضرورية للشفاء، وأن ما يراه القادة الحكماء المبصرون على المدى الطويل أنفع للناس مما يراه المحكمون الذين يتحركون بدافع الجوع والحاجة في اللحظة الحاضرة. هذه الصورة الأبوية التي تقررها الطبقـة الحاكمة في وعي الجماهير تثبت الوضع القائم، وتمنع مـن أي حراك اجتماعي أو معارضة سياسية وذلك لأنـه كبيـر العائلة، تجب له الطاعة المطلقة، والاحترام والتبجيل، وهـو أشبه برجل الدين المقدس، أو بزعماء القبائـل، أو ببطريـك العبرانيين. ويساعد على ذلك "عصا المارشـالية" والوشـاح الأخضر، وكأنها عصى موسى ووشاح الولى. ويظهر فـي أجهزة الإعلام وهو يصلي في مساجد القريـة أو بالجلبـات البلدي أو يتمتم بشفتيه، ويسبل عينيه، وبيده سبحة يذكر بهـا اسماء الله الحسنى. ينادي الجنود بأولادي، والمذيعة بـابنتي، والطلبة بأبنائي، وهو الأب الكبير. وتذاع الأغاني عن كبيـر

العائلة الذي يفيض حكمة وبصيرة. وأفضل الأفلام التي يجب أن يتم الإكثار منها هو "وبالوالدين إحسانًا" التي يرجع فيهـا الأبن الضال، تائبا عن ثورته إلى الاعتراف بالسلطة الأبوية. وعندما يتم تنظيم حزب يتم إحضار وجهاء القـوم، وكبـار الموظفين، ورؤساء الجامعات وينثر حولهم الشـباب حتـى تتأكد صورة رؤساء القبائل والعشائر. ويلجأ إلـى السـلطة الدينية لتأكيد الصورة الأبوية، فيبدأ باسـم الله ويخـتم بآيـة المغرفة والتوبة أو بدعاء صوفي، فيتحد الرجل السياسي مع الرجل الديني، ويكون أخطر زعيم هو الخمينـي، وأخطـر ثورة ثورة إيران، الأول يجعل من الدين ثورة، ومن الزعامة تعبيرا عن مصالح. الشعب ضد التسلط والظلـم والطغيـان. ويكون أخطر استاذ هو الذي يدعو الطلبة إلى التفكير والنقـد ونبذ سلطة الموروث، وتكون أخطر صحافة هي التي تنقـد السلطة،فكل نقد تشكيك أو عمالة ويصبح أخطر حزب هـو الحزب المعرض الذي لا يأتمر بأوامر السـلطة، ويحـرك الناس. وفي مقابل السلطة الحاكمة التي تمثل الطبقـة العليـا تأتي جماهير الشعب المحكومة والتي تمثل الطبقـة الـدنيا، ونظرا لجهل هذه الطبقة وتغيب وعيها فان الطبقة الحاكمـة

تفرز لهذه الطبقة قيما تناسبها وتؤكد على طاعاتها لأولي الأمر مثل الطاعة، والإيمان، والصبر، والحب، والسلام. وهي كلها قيم سلبية تدعو إلى الاستكانة وعدم الحركة أو تفسر قيما أخرى إيجابيه مثل الأصالة والصلابة على نحو سلبي.

فالطاعة واجبة لأولي الأمر. وكل ثورة على السلطة خروج ومروق وفتنة وعمالة للخارج أو حقد من شخص موتور أو تعصب وجهل ديني. وبالتالي أصبح الثبات الاجتماعي هو نموذج التحديث وليس الحراك الاجتماعي، ومن ثم كثرت قوى الأمن المركزي، وعظم دور وزارة الداخلية، وكثر أمناء الشرطة، ونظم الحرس الجامعي، وطلب من مؤسسة أو نقابة أو هيئة تطهير صفوفها من المشاغبين والملحدين والعملاء والمشككين والحاقدين والمتعصبين. والإيمان أخص ما يميز هذا الشعب، الإيمان بالله وكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر، الإيمان بالغيبيات وبالموضوعات المفارقة لعالم. وليس من مضمون الإيمان حق الفقراء في أموال الأغنياء، أو ضرورة تحرير الأرض، أو معادة العنصرية والأطماع التوسعية، أو الوقوف في

مواجهة الاستعمار والرجعية. الإيمان مفتوح نحو الماضي ونحو الأعلى وليس نحو الحاضر ونحو الأسفل. فهو إيمان بالتراث والعقائد وليس إيمانًا بالتجديد وبحاجات الناس. والصبر صفة أخرى للشعب تجعله يرضي بالوضع القائم. وأنه لا خلاص في الحاضر على يد أحد من البشر بل الخلاص في الآخرة. حيث يطعم الجياع، ويلبس العراة، ويسكن الذين بلا مأوى، ويتحرر المستعبدون. فالصبر مفتاح الفرج كما يقال في أمثالنا العامية. ويؤول رجال الدين آيات الصبر في القرآن لإثبات الصبر ناسين الآيات التي تحث على ترك الصبر مثل "فما أصبرهم على النار". والحب وسيلة للترابط الاجتماعي، وسيعطي الغني الفقير بالحب، ويعطي صاحب رأس المال حقوق العامل بالحب. ويتنازل الطاغية عن سلطته للشعب بالحب. فالحب مهرجان بين القائد والشعب، يظهر في الاستقبال والاحتفالات الشعبية التي تنظمها الحكومة لنفسها باسم الشعب. والحب يقضي على الصراع، ويلغي المتناقضات، ويجب التفكير والتحليل. أما السلام فإنه يعبر عن طبيعة الشعب الذي يتسامح مع المسئ.

ويقوم التبرير الديني بإعلان أن الحرب لم تشرع لـذاتها، وان العدو محب للسلام فيجب أن نقابل سلاما بسلام، إذا سار نحونا خطوة سرنا خطوتين. وهكذا يكون التعامل من شعبين متحضرين يعيشان في جزيرة منعزلة وسـط دول همجيـة متخلفة! أما الأصالة فلا تعني تطوير الجديد، وبالتالي تكـون قيمة ايجابية بل تعني المحافظة على القديم والتعصـب لـه، والتصلب في الدفاع عنه، فالموروث القـديم خيـر دعامـة للمحافظة على الوضع القائم. تعني الأصالة رفض الأفكـار المستوردة، والوقوف أمام المذاهب الهدامة المعارضة لتراث البلاد. والحقيقة أن الهدف منها هو الدفاع عن الوضع القائم، ومنع أي عناصر حركة فيه وعلى رأسـها الفكـر الثـوري والمذاهب الداعية إلى التغيير الاجتماعي. أما الصلابة فتعني رفض التغير، والوقوف أمام كل المحاولات لتغييـر النظـام الاجتماعي. فهي صلابة المحافظة على القديم، وتصلب ضد قوى التغير، وعدوانية ضد جميع مراكز التفكيـر والخلـق، ودوائر النقد والمعارضة. لا تعنـي الصـلابة التبـات فـي الجهاد، والمثابرة على المقاومة، ولكن تعني الثبـات علـى القديم، والعض بالنواجذ على الموروث.

أما الطبقة المتوسطة التي تحكم الطبقة العليا من خلالها، والتي تفرز من خلالها قيم السيطرة لها والخضوع لغيرها فإنها أيضا تفرز قيمها بمساعدة الطبقة الحاكمة التي تخدم مصالحها، وهي نفس مصالح الطبقة الحاكمة. مثل الشرعية الدستورية، سيادة القانون، النظام والأمن، دولة المؤسسات. فالشرعية الدستورية تعني حكم النظام والدولة وليس حكم التغير والثورة. والانتقال من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية هو في حقيقة الأمر إلغاء للثورة من أجل الدولة، وقضاء على التغيير من أجل الثبات. هذا بالإضافة إلى أن الدستور يتغير من أجل الثبات، وتتغير بنوده من أجل إطالة حكم الرؤساء إلى مدى الحياة أو لاستعمال بنوده الاستثنائية التي تعطي الحكام الحق المطلق في إصدار القوانين وإصدار الأحكام العرفية، والمحاكم الاستثنائية، وتنظيم الاستفتاءات الشعبية لتأييد الحكام أو لأخذ رأي الشعب في الموافقة على إسقاط حريته، وقبول احتلال العدو لأرضه. أما دولة المؤسسات فتعني إعطاء كل ردة رجعية صيغة قانونية. فمجلس الشعب مؤسسة لا يمكن تجاوزها طالما أنها في يد الحكام. ولا يطلق فيها صوت معارض حتى ولو كان واحدا،

ويكون جزاؤه الفصل أو التجاهل أو السجن أو المحاكمة والإدانة سلفًا. والصحافة مؤسسة مادام رؤساؤها معينون من السلطة ينفذون أوامرها، ويكون جزاء المخالفين الطرد أو المنع أو التجاهل أو التخوين. والقضاء مؤسسة مادام يشرع القوانين الاستثنائية، ويصادر صحف المعارضة، ويدين المتظاهرين بالشيوعية ويحكم عليهم بالسجن والفصل، والجامعة مؤسسة مادامت تراقب الأساتذة، وتمنع الطلاب من نشاطهم الجامعي، وتحرم مجلات الحائط، وتوقف نشاط الأسر والجمعيات.

وهكذا تعني المؤسسة اولوية الحكومة أو السلطة وسيطرتها على مضمونها وشل حركتها حتى توقفت حركة المجتمع ونشاط هيئاته بالمرة. أما سيادة القانون فتعني أيضا خضوع كل معارض لقانون العقاب. فالقانون ليس موضوعيا يقوم على الصالح العام بل يعبر عن هوى الحكام ومصالحهم واستحواذهم على كل السلطات. فكل يوم يصدر قانون لتكبيل الحريات، ومنع نشاط الأفراد وإلهيئات، ومنع الحديث في الموضوعات الوطنية الكبرى أو مس القضايا السياسية العليا حتى أثناء المعركة الانتخابية حتى تكون المعركة نزيهة

شريفة. تعني سيادة القانون تحريم الثورة، وقهر المعارضة، ومنع حرية التعبير، والخضوع التـام لإرادة السـلطة. أمـا النظام والأمن فيعني الإعلان الصريح علـى ضـرب كـل تجمهر بحجة إثارة الفوضى وخرق النظام، فالمحافظة علـى الوضع القائم لا تكون بإفراز قيم الطبقات بحيث تخدم الطبقة العليا فحسب بل تعني الإبقاء على هذا الوضع القائم بالفعـل عن طريق أجهزة الأمن المركزية والمحلية، عصب السلطة، ودعامتها الرئيسية. فيدعو الحاكم "اقتلوهم حيـث ثقفتمـوهم" ويعني المعارضة، ويقول وزير الداخلية "سأنزل وراءهم إلى الشوارع وإطاردهم بمدفعي الرشـاش"، ويقـول السـلطان "سأصدر أوامري بإطلاق النار على كل المارقين". وهكـذا تكون قيم الطبقة المتوسطة في تحالف مع قيم الطبقة العليـا من أجل السيطرة على الطبقات الدنيا بعد أن يفرز لها قيمها التي تدعو إلى السكينة والخضوع. وبالتالي تنشأ المحافظـة هنا من البناء الاجتماعي الذي يقوم على قيم الطبقـات فـي نظام سياسي تسلطي يبغى الإبقاء على الأوضاع القائمة.

أن البحث عن اسباب سيادة الاتجاهـات المحافظـة فـي حياتنا الراهنة لواجب وطني على كل المثقفـين والبـاحثين

الاجتماعيين والتي قد يسميها البعض الانتكاسية الثوريـة أو الهجمة التترية أو الردة المعاصرة. ويمكن لمختلف المنـاهج التحليلية المساعدة على الكشف عن هذه الأسباب. والمـنهج الفكري الخالص الذي يعتمد على تحليل الموروث باعتبـاره موضوعا مستقلاً في الشعور قد لا يكون هو المنهج الوحيـد لدراسة هذه الظاهرة التي نراها جميعا ونقف منهـا موقـف الدهشة والتعجب. ولكن على الأقل يستطيع المنهج الظاهري (الفينومينولوجي) الكشف عن نشأة الظـاهرة وتتبعهـا فـي الوعي الحضاري. ومن يدري فقد نكون أشبه بهذا الطـائر "فينكس" الذي تبعث فيه الحياة من خلال الرماد.

أثر أبي الأعلى المودودي على الجماعات الدينية المعاصرة

مقدمة:

بالرغم من وجود أسباب اجتماعية وسياسية واقتصـادية لظهور الجماعات الدينية المعاصرة خاصة تلك التي تحـاول أن تحقق أهدافها بالقوة[٢١] إلا أن الأسباب الفكرية أو الأسس العقائدية لا تقل أهمية عن الأسباب الأولى لأنها هـي التـي تعطي الأسس النظرية للسلوك، وبالتالي تكون هي المحـرك

---

[٢١] المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائيـة، بحـث الحركـات الاجتماعية المتطرفة، الحركات الدينية، الندوة الأولى ١٤/١٠/١٩٧٩.

- أن وصف بعض الجماعات الدينية المعاصرة بالتطرف هـو حكـم مسبق يفترض أن الدعوة الدينية تقوم على الموعظة الحسـنة كمـا أن وصفها بالعنف أيضا حكم مسبق لان محاولة تحقيق الاهـداف بالفعـل ليست عنفا ألا من وجهة نظر السلطة القائمة وعند فشل هذه المحاولات فقط.

الأول لهذه الجماعات والدافع لها على الحركة والنشاط والتي تمدها بقيمها وأهدافها ووسائل تحقيقها وتنفيذها.

ولما كانت هذه الجماعات إسلامية أي أممية (تنتسب إلـى الأمة الإسلامية) فان مصادر فكرها تتجاوز حـدود مصـر بطبيعة الحال وتمتد إلى باكستان التي نشأت بناء على دعوة إسلامية من أجل إقامة الدولة الإسلامية التي يجد فيها مسلمو الهند فلاحهم في الدنيا ونجاتهم في الآخر. ومفكـر الدولـة الإسلامية الأول هو الإمام أبو الأعلى المودودي الذي أنشـأ حركته "الجماعة الإسلامية" بعد الأخوان المسلمين في مصر بثلاثة عشر عام تقريبا. وقد أثر فـي فكـر الجماعـة بعـد استشهاد مؤسسها الإمام الشهيد حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ عند الإمام الشهيد سيد قطب. فجمع فكر الأخوان بين الفكـر الإصلاحي عند آخر ممثليه السيد رشيد رضا (وقد كان حسن البنا تلميذًا له يفكر في إصدار "جريدة المنار" بعـد توقفهـا ١٩٣٥) والفكر الإلهي عند أبي الأعلى المودودي. ولما كان الفكر الإصلاحي لا ينمو نموا طبيعيا إلا بالممارسة العمليـة لحركة الإصلاح فقد توارى الفكر الإصـلاحي فـي فكـر الجماعي عند يد قطب وظهر الفكر الإلهي عنـد المـودوي

تغذيه وتقويه جدران السجون. وقد نشأت الجماعات الدينيـة المعاصرة داخل حركة الأخـوان المسـلمين فـي أروقـة المعتقلات وفي نقاش حـول حاضـر الحركـة الإسـلامية ومستقبلها. وقد ظهر الخميني بعد المودودي وسـيد قطـب يعطي نفس لطابع ويوويه النجاح المذهل في إسقاط الشاه.

وستحاول هذه الدراسة وصف البناء الأيـديولوجي لفكـر أبي الأعلى المودودي أساسا في إطار الظروف الاجتماعيـة والسياسية التي سهلت تأثير هذا الفكر على الجماعات الدينية في مجتماعتنا الإسلامية المعاصـرة. كمـا سـتحاول هـذه الدراسة إعادة هذه البناء إلى مساره الطبيعـي لأن الفكـر لا يقف أمامه ألا فكر، ولا تنفع مع وسائل القمع المضاد.

ويتسم الفكر الديني عند المودوي بطابع خص تجعلـه ذا بناء محدد، يظهر فـي سـلوك هـذه الجماعـات الدينيـة المعاصرة. ويمكن وصف هذا البناء على النحو الآتي:

١- الحاكمية لله:

تعطي الحاكمية لله تصورا مركزيا للعالم. فالله قمة الكون خلقه ويحكمه ويسيطر عليه. "الأرض كلها لله وهـو ربهـا والمتصرف في شئونها. فالأمر والحكـم والتشـريع كلهـا

مختصة بالله وحده وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو شعب بل ولا للنوع البشري كافة شيء من سلطة الأمر والتشريع. فلا مجال في حظيرة الإسلام ودائرة نفوذه ألا لدولة يقوم فيهـا المرء بوظيفته خليفة لله تباركت أسـماؤه. ولا تتـأتى هـذه الخلافة بوجه صحيح ألا من جهتين: إمـا أن يكـون ذلـك الخليفة رسولاً من الله أو رجلاً يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه"[٢٢]. فالأنبياء هم المعلنون عن هذه الحاكمية، ومعهم القادرون على السير على هداهم. وتتبع السيطرة على الكون بكل مافيه حدا لا يسـتطيع معـه أحـد الخروج عنه، "ما من حاكم ولا ولي ولا مليك مقتـدر لهـذا الكون ألا ذلك الإله الواحد الفرد الصمد. وأنه هـو الحـاكم القاهر الذي لا معقب لحكمه ولا شريك له فـي الملـك، ولا ينفذ في السموات والأرض إلا أمره[٢٣]

فلا تكن إلا عبد الله ولا تأتمر إلا بأمره ولا تسجد لأحـد من دونه فإنه ليس هناك من صاحب جلالة فالجلالـة كلهـا

---

[٢٢] أبو الأعلى المودودي: منهاج الانقلاب الإسلامي ص ١٥ – ١٦.

[٢٣] المصدر السابق ص ٤١ – ٤٢.

مختصة بذاته جل وعلا، وليس هناك من صـاحب قداسـة فالقداسة بأسرها مركزة فيه تقدست أسماؤه، وليس هناك من صاحب سمو، فالسمو لا يستحقه أحد من دونه، تعالى شأنه، وليس هناك من صاحب سيادة، فالسيادة بأجمعها مقتبسه من شره، جلت قدرته وعظم شأنه، ولا شارع من دونه، فالقانون قانونه، ولا يليق التشريع ألا بشأنه، ولا يستحقه ألا هو، ولا ملك ولا رازق ولا ولي إلا هو، وليس من دونه من يسـمع دعاء الناس ويسـتجيب لهـم، وليسـت مفـاتيح الكبريـاء والجبروت إلا بيده، ولا علو لأحد ولا سمو في هـذه الـدنيا فكل من في السموات والأرض عباد أمثالك والرب هـو الله وحده. فارفض كل أنواع العبودية والطاعة والخضوع لأحـد من دونه، وكن عبد الله، فأنت مستسلما لأوامره".

ولما كانت الحاكمية لله فالاسـتخلاف لا يكـون إلا فـي الحاكمية. "فالحاكم الحقيقي في الإسلام إنما هو الله وحـده.. فإذا نظرت إلى هذه النظرية الأساسية وبحثت عـن موقـف الذين يقومون بتنفيذ القانون الإسلامي في الأرض تبين لـك أنه لا يكون موقفهم ألا كموقف النواب عن الحاكم الحقيقـي،

فهذا هو موقف أولى الأمر في الإسلام بعنيه"[٢٤]. الحاكمية لله وحده فهو وحده الحاكم الحقيقي في واقع الأمر ولا يستحق أن يكون الحاكم الأصلي إلا هو وحده وهي حاكمية قانونية تعني خضوع كل من في الكون له. ولكنها تبقى فرضا مادامت لا تستند إلى حاكمية واقعية أي سياسية أي مالكة للسلطة التي تحقق هذه الحاكمية في الواقع. وهنا تأتي الخلافة تنفيذًا للحاكمية[٢٥].

ويعبر المودودي عن الحاكمية والخلافة في "الحكومة الإسلامية" قائلاً "أن تصور الإسلام عن الحاكمية واضح لا تشوبه شائبه. فهو ينص على أن الله وحده خالق الكون وحاكمه الأعلى، وأن السلطة العليا المطلقة له وحده، أما الإنسان فهو خليفة هذا الحاكم الأعلى ونائبه. والنظام السياسي لابد وأن يكون تابعا للحاكم الأعلى. ومهمة الخليفة تطبيق قانون الحاكم الأعلى في كل شيء، وإدارة النظام

---

[٢٤] أبو الأعلى المودودي: نظرية الإسلام السيسية ص ٤٥.

[٢٥] أبو الأعلى المودودي: تدوين الدستور الإسلامي ص ١٨ – ٢٨.

السياسي طبقًا لأحكامه"[٢٦]. وقد قرر جميـع الأنبيـاء هـذه الحاكمية وهذا الاستخلاف مؤكدين حقائق ثلاث: الأولـى أن السلطة العليا التي على الإنسان أن يخضع لها ويطبعها ويقر بعبوديته لها والتي يتأسس علـى طاعتهـا النظـام الكامـل للأخلاق والمجتمع والحضارة هي سلطة الله وحده وينبغـي التسليم بها وقبولها على هذا الأساس. والثانية حتمية طاعـة النبي وحكمه بوصفة ممثلاً ونائبا عـن السـلطان الأعلـى والحاكم المطلق.

والثالثة أن القانون الحكم الذي يقرر التحليل والتحريم في جميع الميادين هو قانون الله وحده الناسـخ لكـل القـوانين البشرية وليس للعباد حق المساءلة والنقاش في أحكام الله فما حرمه الله يكون حراما وما حلله يكون حلالاً لأنه مالك كـل شيء ويفعل ما يشاء. وقد بين القـرآن طاعـة الإنسـان لله وللرسول ولاولى الأمر. كما نص على الحاكمية في "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". ويصفهم القرآن مرة أخرى بالظالمين ومرة ثالثة بالفاسقين. وليس صحيحا أنهـا

---

[٢٦] أبو الأعلى المودودي: الحكومة الإسلامية ص ٦٤.

آيات خاصة نزلت في أهل الكتاب في مناسبات خاصة بـل هي أحكام عامة تتجاوز أسباب النزول وتنطبق على كل امة بالنسبة لكتابها في كل زمان ومكان[٢٧].

وتتضمن الحاكمية رفض البشر وضرورة الثورة عليهـا، وكأن عصيانها أمر إلهي. لذلك خرجت الجماعـات الدينيـة على النظم القائمة كما فعلت الخوراج من قبـل. ولا تعنـي الخوارج هنا ما يقصده رجال الدين والسياسة من شق عصا الطاعة ورفض سلطة الدولة وبالتالي إدانتهم ومحاكمتهم أمام القانون بل تعني رفض الانضواء تحت اللاشرعية الدينية كما رفض الخوارج من قبل وكما رفض آل البيت بقيـادة علـى والحسين وباقي الأئمة الرضوح لسلطة الدولة الأموية التـي اغتصبت الحكم وأخذته بالقهر والتهديـد تـاره وبالرشـوة والإغراء تارة أخرى. ويتمثل هذا الرفض لحاكمية البشر في قول المسلم "لا إله إلا الله معلنًا السيادة لله ضد سيادة البشر. فنظرية التوحيد هذه ليست بعقيدة دينية فحسب... بـل إنمـا تقضي هذه النظرية على نظام الحياة الاجتماعية المبني على

---

[٢٧] المصدر السابق ص ٦٧ – ٧٤.

أساس استقلال الإنسان بأمره أو حاكمية غير الله وألوهيتـه، وتنقطع بها هذه الشجرة الملعونة من جذورها، وينهدم هـذا النبيان من أساسه، ويقوم وينهض بنيان جديد علـى أسـاس غير هذا الأساس... المنادي يقول أنه لا ملك لي إلا الله، ولا حاكم إلا الله، ولا أخضع لحكومة، ولا أعترف بدستور، ولا أنقاد لقانون، ولا سلطان على المحكمة من المحاكم الدينوية، ولا أطيع أمرا غير أمره، ولا أتقيد بشـيء مـن العـادات والتقاليد الجاهلية المتوارثة ولا أسلم شيئًا مـن الامتيـازات الخاصة، ولا أدين لسيادة أو قداسة، ولا أستخزى لسلطة من السلطات المتكبرة في الأرض المتمردة على الحق. وإنما أنا مؤمن بالله، مسلم له، كافر بالطواغيت والإلهة الكاذبـة مـن دونه..."[٢٨]. فالنظرية السياسية في الإسلام تقوم على مبـدأ أساسي وهو "أن تنزع جميع سلطات الأمر والتشـريع مـن أيدي البشر منفردين ومجتمعين ولا يؤذن لأحد منهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه أو ليسن قانونًا لهم فينقـادوا لـه

---

[٢٨] منهاج الانقلاب الإسلامي ص٤٤ – ٤٥.

ويتبعوه فان ذلك أمر مختص بالله وحده لا يشاركه فيه أحـد غيره"[٢٩].

لذلك تتميز الدولة الإسلامية بثلاث خصائص: الأولى أنه ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أي نصيب من الحاكمية فإن الحاكم الحقيقي هو الله. والثانية أنه ليس لأحد مـن دون الله شيء من أمر التشريع. والثالثة أن الدولة الإسـلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذي جـاء بـه النبي من عند الله مهما تغيرت الظـروف والأحـوال. وأن الدولة لا تستحق الطاعة إلا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أوامره في خلقه[٣٠].

وتتمثل حاكمية البشر في ثلاثة نظم: العلمانية، والقومية. والديموقراطية وهي النظم التي سيطرت على الحياة السياسية في الغرب. فالعلمانية تعني عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد وقصره فقط بين العبد وربه. أما القومية فإنها تقـوم على مصلحة الأمة ورغباتها بصرف النظر عـن مصـالح

---

[٢٩] نظرية الإسلام السياسية ص ٢٧.

[٣٠] المصدر السابق ص ٢٩.

الأمم الأخرى ومن ثم نشبت الحروب بين القوميات، والويل للمغلوب فلا مكان للضعيف. أم الديموقراطية فقد نشأت في بداية أمرها ثورة على الإقطاع ولكنها انتهت إلى سيادة الأكثرية على الأقلية. فالدولة العلمانية القومية الديموقراطية هي الدولة الحديثة التي تتمثل فيها حاكمية البشر في الغرب والتي يرغب المسلمون في تقليدها. وهي نظم كلها ترفض الحاكمية لله وبالتالي تجعل الفرد خاضعا لشهواته ورغباته، وتجعل المجتمع خاضعا لأهوائه ومصالحه. وفي غياب حاكمية الله لا يوجد مكان إلا للشيطان الذي يبشر بالإلحاد والعنف. أما القومية فإنها "تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم، والحق عندها هو ما محققًا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم"[٣١].

الدولة الإسلامية إذن ليست دولة ثيوقراطية لأنها ليست دولة رجال الدين، وليست دولة ديموقراطية لأن الحكم ليس للشعب، ولكنها دولة "ثيوديموقراطية" الحاكمية فيها لله طبقًا

---

[٣١] أبو الأعلى المودودي: الإسلام والمدنية الحديثة ص ١٥.

لاختيار الشعب، فالله هو المشرع والمسلمون هم المنفذون[٣٢]. هي دولة لا تقوم على جنس أو عنصر أو مصلحة أو حدود جغرافية بل دولة فكرية أي دولة مبادئ وغايات[٣٣] الدولة الإسلامية تقوم على الديموقراطية الإسلامية، وفيها يكون كل عضو في المجتمع خليفة، لا فوارق في النسل أو في المهنة، وليس فيها استبداد طائفة بأخرى على الانتخاب بناء على التقوى، ويحكمها قضاء ليس من صنع أهواء البشر.

هذه الدعوة لحاكمية ورفض حاكمية البشر هي التي تدفع الجماعات الدينية المتطهرة إلى قيام مجتمع مغلق داخل المجتمع الكبير، وتجعل هدفها إقامة الدولة الإسلامية، وشق عصا الطاعة على النظم القائمة، وعدم التعاون مع الدولة اللادينية الذي يظهر في الطعن في شرعية دساتيرها، ورفض الطاعة لمن يحكم بغير ما أنزل الله، وتحريم الصلاة

---

[٣٢] نظرية الإسلام السياسية ص ٢٩ – ٣١.

[٣٣] منهاج الانقلاب الإسلامي ص٩ ، وأيضا نظرية الإسلام السياسية ص ٤٠ – ٤٤، وأيضا ٤٦ – ٥٢.

في مساجدها، وتحريم الخدمة في قواتها المسلحة، وتحـريم العمل في وظائفها الحكومية، وجعل موضوع "الخلافة" أهـم مؤلف لأمير الجماعة الدينيـة. ويقويهـا ضـعف نظمهـا السياسية، وتضارب قوانينها، وقيامها على مصلحة الـبعض دون البعض الآخر، وسـن القـوانين لعقـاب المعارضـة، والرغبة في تغيير الأمر الواقع وتكوين نظام أفضـل. ولمـا غاب التنظيم الأم أعني "جماعة الأخوان المسلمين" التي كان يمكن أن تمتص عاطفة هؤلاء الشباب كما كانت تفعـل فـي الأربعينيات واوائل الخمسينات، ولما غاب أيضا أي نشـاط إسلامي علني ظهرت هذه الدعوة في هذا الأسلوب المغلـق السري. وستظل الحاكمية لله مصدر قوة لهـذه الجماعـات ومصدر قلق للنظم القائمة ما لم تستند إلـى أسـس إنسـانية وشعبية. فبالرغم من أن الحاكميـة لله تعبيـر عـن الإرادة الإلهية إلا أنها أيضا تظهر في خلافة الرسول والأئمة مـن بعده. وهؤلاء من اختيار البشـر طبقًـا للبيعـة، وتحقيقًـا للشورى، وكما تم إعلان ذلك في حضارة أخـرى مـن أن "صوت الله هو صوت الشـعب" Vox Deii vox populii ولكننا لم نصل إلى هذه المرحلة بعد، ومازالـت حضـارتنا

مركزة حول الله Theocentric ولم تصبح بعد مركزة حول الإنسان، ويقوى هذا الوضع الإلهي ويغذيه ما عليـه نظمنـا الاجتماعية من أنها أيضا تعبير عن إرادة الحـاكم المطلقـة يفعل ما يشاء دون أي وجود لمؤسسات دستورية تراجعه أو لتنظيمات شعبية تقره أو لأجهزة جماهيريـة تراقبـه. فكـل قوانيننا ودساتيرنا تعبير عن هذا الحاكم المطلق. فإذا وضـع الشباب المؤمن في الاختيار بين حاكمية الله وحاكمية البشر، فما أسهل الاختيار بالنسبة له، وقد عبر عن ذلك أحد قضـاة الأخوان عندما رأى التعارض الصارخ بين القانون الإلهـي والقانون البشري بقوله "أنا قاضٍ ولكني مسلم"[٣٤].

٢- التنزيل والنص:

يبدو التنزيل الإلهي في اعتبارنا الأوامر الإلهيـة للتنفيـذ ومعرفتنا من الوحي مباشرة بقراءة النصوص الدينية وفهمها فهما حرفيا بالاعتماد على سلطة النص وحده المتمثـل فـي "قال الله" و "قال الرسول". لذلك تسود الحجج النقليـة وتقـل

---

[٣٤] عبد القادر عودة: الإسلام واوضاعنا القانونية.

الحجج العقلية. ولما كانت الحجج النقلية قاطعة لا تحتمل وجهين كانت الأوامر الإلهية كلها محكمات وليس بها من المتشابهات شيئًا. لذلك أن أهم كتاب لمودودي هو "ترجمان القرآن" الذي يشابه "في ظلال القرآن" لسيد قطب. وهو تفسير شامل للقرآن سورة سورة. وآية آية حتى يتم الكشف عن التنزيل دون تاويل أو جمع للموضوعات المتفرقة وعرضها في نسق محكم[٣٥].

وخطورة منهج التنزيل أي استنباط الأحكام الإلهية مباشرة من القرآن دون اعتماد على العقل أو المشاهدة هو أولاً إخراج الكلم عن مواضعه واستعماله في غير ما أنزل فيه، وتأويله على غير معنها، ومن ثم تنتهي الحرفية إلى عكسها أي التأويل بلا شاهد حسي أو دليل عقلي. ثانيا أخذ بعض الكلام وترك البعض الآخر، وانتقاء الآيات التي تشير إلى الحاكمية لله وترك الآيات الأخرى التي تشير إلى وضعية الشريعة حتى تتفق الحاكمية مع التنزيل. ثالثًا: عدم أعمال

---

[٣٥] انظر أيضا: أبو الأعلى المودودي: المبادئ الاساسية لفهم القرآن، وأيضا تفسير سورة النور.

العقل والإثبات بالبرهان والاعتماد على سلطة النص وحدها وبالتالي استحالت مخاطبة غير المؤمنين كما استحال الحوار بالعقل حول معاني النصوص. فالنصوص ليست موضـوعا للحوار بل موضوع للتنفيذ. رابعا: استحالة المعارضة العقلية لسلطة النص وإيجاد التفسيرات المغايرة التـي تقـوم علـى الدليل العقلي والشاهد الحسي. خامسا: تحويل الشـاهد إلـى تعصب وقوة واقتناع لا يتزحزح عنه حتى ولو كانت أمامـه عشرات البراهين العقلية المضادة حتى تحول الحـوار إلـى جدل أنفعالي يقوم على مقدما نفسية مسبقة.

ويوقى ذلك في مجتمعاتنا أننا مازلنا نعيش مرحلة النقـل، والاعتماد على سلطة الموروث، واستمرار علمنا من الكتب والنصوص، واستشهادنا في حياتنا العامـة بـأقوال القـادة والحكام وكتابات أولي الأمر وخطبهم. ولكن عنـد الشـباب المؤمن أي الكتب أولي بالاستشـهاد: كتـاب الله أم كتـاب الأمير؟ لذلك يرفض المودودي وضعية الشريعة بمعنى أنـه لها أسسا وضعية تقوم عليها. فينقذ قانون تحريم الخمر فـي أمريكا لأنه من وضع البشر بعد أن عرفـوا أنهـا "ضـارة بالصحة ومفسدة للقوى الفكريـة، وهدامـة لبنـاء المدنيـة

الإنسانية"[٣٦] مع أن أهم ما يميز الشـريعة الإسـلامية هـو وضعيتها. فبالرغم من أن القانون الإسـلامي تعبيـر عـن الإرادة الإلهية إلا أنه يقوم أيضا على الدفاع عـن مصـالح البشر. فهو قانون وضعي يقوم على أسس موضـوعية فـي الدفاع عن المصالح العامة والتي أطلق عليهـا الأصـوليون القدماء الكليات الخمس: الدين، والحياة، والعرض، والعقـل، والمال. وإن كل أبحاثهم في العلل وأنواعها وطرق معرفتها ترمي أساسا إلى البحث عن وضعية الشريعة وقيامها علـى جلب المنفعة ودفع المضرة. وبالتالي يمكن الدخول في نقاش مع الجماعات الإسلامية عـن الأسـس الوضـعية للتنزيـل والاشتراك معهم في تحديد مصالح المسلمين. وقد يصـعب ذلك لسببين: الأول تحجر فكر الجماعات وعدم اسـتطاعتها التفكير في الأسس الوضعية للتنزيل. والثاني تحـرج الـنظم القائمة من الدخول في نقاش عام حول "مصـالح المسـلمين"

---

[٣٦] نظرية الإسلام السياسية ص ٣٤ – ٣٥ ، وأيضـا أبـو الأعلـى المودوي: نحن والحضارة الغربية، بين الشـريعة الربانيـة والقـانون الوضعي ص ٥٢ – ٦٩.

نظرا للأوضاع المخالفة للشرع التي نعيش فيها مثـل الفقـر والتسلط والخوف. فلا يمكن النقاش حول الدين وقد تحـول إلى شعائر وطقوس ومظـاهر خارجيـة وبعـد أن قامـت الدعوات لفصله عن الدولة. كذلك لا يمكـن النقـاش حـول الحياة والنظام السياسي يدعو إلى الفصل بين الدين والدولة، ويجعل الدين لدور العبادة والدنيا للمؤسسات السياسـية. ولا يمكن الحوار حول المال نظرا لوجود الأقلية المترفة بيـدها المال في مقابل الأغلبية الفقيرة المعدمة التي تكد من أجل سد رمقها. ولا يمكن المناقشة حول العقل نظرا لما تبثه السـلطة القائمة من دعوات إيمانية واحتفالات دينية وابتهالات صوفية ورؤية للمعجات تجعل العاطفة هي وسيلة التخاطب، وتفسح المجال للتعصب الديني. ولا يمكن الحديث عن العرض نظرا لما تسمح به الدولة من مظاهر للخلاعة والفجور في حياتنـا العامة وفي أجهزة الإعلام.

ويمكن التخفيف من حـدة التنزيـل بعـدة طـرق: أولاً: استعمال النص المعارض، ومقاومة النص بالنص حتـى لا تكون شرعية النص أحادية الطرف. ثانيا: نقل المجتمع كلـه من مرحلة المنقول إلى مرحلة المعقول من أجـل الاعتمـاد

على العقل حتى ينشأ الحوار، وتتم البرهنـة علـى الشـيء بالدليل فتخف حدة التعصب والانفعال. ثالثًا: الاعتماد علـى الواقع المرئي والعيان المباشر وإدخال الواقع في بطن النص حتى يتحول الشكل إلى مضمون وحتى يمكن رؤية المنفعـة والضرر كأساس للتحليل والتحريم.

٣- الثنائية المتصارعة:

تكشف هذه الثنائية المتصارعة عن جدل الكل أولاً شـيء كما تكشف عن ثنائية متعارضة متصارعة بين النقيضـين: الخير والشر، الحق والباطل، الصـواب والخطـأ، الهدايـة والضلال، الإيمان والكفر، الإسـلام والجاهليـة، الإسـلام والغرب أو عن عدة صور فنية مثل الملاك والشيطان، الجنة والنار، ولا سبيل إلى إيجاد حل وسط بين هـذين الطـرفين المتصارعين أو الانتقال من أحدهما إلى الآخر عن طريـق التوسط والتدرج. الخير مطلق، والشر مطلق، والحق مطلق، والباطل مطلق ولا مكان للمواقف النسبية أو الشك أو الظـن أو التردد. وهي ثنائية تحدد العلاقة من جديد بين حاكمية الله وحاكمية البشر، بين الحكومة الدينية والحكومة اللادينية على مستوى العمل والممارسة.

والعلاقة الطبيعية بين الطرفين هي علاقـة التضـاد دون واسطة أو مصالحة. فبقاء أحدهما مرهون بالقضـاء علـى الآخر. وإن بقاء الباطل في غيبة الحق عنه. ومن ثـم ينشـأ الصراع بين الجماعات الدينية والسلطة القائمة، كل طـرف ينتهز الفرصة للانقضاض على الطرف الآخر، ويتشكك في نواياه. ولما كانت سلطة الدولة هي الأقوى كان القهر دائمـا من جانبها، وكان رد الجماعات عفويـا، جزئيـا، إعلاميـا لإثبات الحق من حيث المبدأ فينال أعضاء الجماعة الشـهادة ويكونون علامة على الطريق.

فهناك صراع بين الإسلام والجاهلية. ففي المعرفة تكـون الجاهلية طريق الحس والمشاهدة وطريق الحدس والتخمـين. فالطريق الأول يقود إلى الفكر الطبيعي الذي يجعـل العـالم مصدر المعرفة والذي يؤدي على مستوى السياسة والاجتماع إلى الحاكمية البشرية، حاكمية الطبقة أو الأسرة أو الجمهور، وحب الذات والشهوات، والخلاعة والفحشاء، والي الانتقـال من الإقطاع إلى الرأسمالية في دكتاتورية العمال وأخيرا إلى التعليم العملي المهني وليس إلى التعليم الديني العقائدي. وهو الفكر الذي أنتج كل المذاهب السياسية الغربية مـن قوميـة

وتسلطية (استعمار)[٣٧]. والطريق الثـاني طريـق الحـدس والتخمين يؤدي إلى الشرك الذي يجعل الحياة مرتعا للاوهام والطقوس والخرافات أو إلى الرهبانية التي لا تتجاوز الفردية والانانية والسلبية والتكفير عن الذنب أو إلى وحدة الوجـود التي يمحى فيها التمييز بين الخالق والمخلوق[٣٨]. أما طريق الإسلام فهو طريق النبوة ونظرة الأنبياء للإنسـان وللكـون التي تجع الله مسيطرا على كل شيء وحاكما وأمرا وقاضيا. ولا سبيل إلى المصالحة أو إلى التوفيق بين الطريقين، طريق الجاهلية وطريق الإسلام[٣٩]. ولا يذكر المودودي أن الحـس والمشاهدة مصدرا من المعرفة عند الأصوليين وأن الحـدس يعطي البديهيات وهي أيضا مادة للمعرفة في علـم أصـول الدين. كما أن المودودي لا يذكر الآثار العملية التي تنتج عن كل طريق وكيف أن الغرب تقدم بالفكر الطبيعي وأننـا قـد تأخرنا بالفكر الإلهي.

---

[٣٧] أبو الأعلى المودودي: الإسلام والجاهلية ص ١٣ – ٢٤.

[٣٨] المصدر السابق ص ٢٤ – ٣٦.

[٣٩] المصدر السابق ص ٣٦ – ٦٤.

وأحيانًا تكون الثنائية المتصارعة بين الإسلام والغـرب، الروحانية والمادية، الدينية واللادينية. فالمذاهب الأوروبيـة كلها فلسفية أم سياسية أم اجتماعيـة أم اقتصـادية مـذاهب جاهلية: المادية، مذهب المنفعة (فلسفة الذرائع). والقوميـة، الديموقراطية، العلمانية، الرأسمالية، الاشـتراكية، الفاشـية، النازية، الفوضية، فالغرب بعد أن ترك الدين نظرا لظررف الكنيسة في العصر الوسيط، لم يبق له إلا الدنيا، ولما كـان غنى الأمم بالأفكار ورقيها بالآراء فان الغـرب قـد بـدأت نهايته بعد إفلاسه على مستوى المذاهب والعقائد والنظريات!

العلم، والإلحاد، والمذهب العقلي، والمـذهب الطبيعـي، والمذهب الاجتماعي كلهـا مـذاهب تقـوم علـى الخـداع والتضليل، وجاء المسلمون فأصبحوا عبيدا لها! ولقد انهارت حضارة الإسلام في الهند بسبب عبودية المسلمين للغـرب. لذلك يجب أن يتحرز المسلمون في باقي الاقطار الإسـلامية من هذا الداء. وهنا يرد المودوي على الـدهريين كمـا رد الأفغاني من قبل. وإذا كانت الحضارة الغربية قد انتحـرت فإن الإسلام مازل حيا في قلوب الناس وفي تراثهم المجيـد. وإذا كانت تركيا قد سارت مع الهند في التقليد والانهيار فان

باقي العالم الإسلامي مازال يرغب في الإسلام دينًا ودنيا. لقد تأسست الثقافة الغربية في هيجل وفلسفته التاريخية، وداروين ونظريته في التطور الإنساني، وماركس وتفسيره المادي للتاريخ. وقد تجاوب معها المسلمون إيجابا أم سلبا فأصبحوا عابدين لها أو رافضين إياها. والإسلام يرفضها وينقدها[٤٠] لأن الإسلام قد بدأ حضارته ويعاود نهضته الجديدة. ويعطينا المودودي فلسفة التاريخ ذات أربع مراحل مثلما أعطانا ابن خلدون من قبل: مرحلة البداية، مرحلة الاكتمال، مرحلة الانهيار ثم مرحلة النهضة. تأسست الدولة الإسلامية أولاً، وحققت أكبر ثورة في التاريخ في بضع سنين بعد تربية بضعة أفراد. ثم أتت مرحلة الملكية عندما تحولت الخلافة إلى ملك عضود يقوم على الشعوبية وأنقسام القيادة إلى رجال الحكم ورجال الدين. ثم جاءت مرحلة الانهيار عندما تحول التعليم إلى علماني وديني. وتكوين رجال دنيا أو رجال دين.

---

[٤٠] نحن والحضارة الغربية، وأيضا نظرية الإسلام السياسية ص ٥ – ٦ ، منهاج الانقلاب الإسلامي ص ١٩ ص ٢٤، وأيضا أبو الأعلى المودودي: واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم.

وأخيرا يعاصر المسلمون مرحلة النهضة. تود الشعوب الإسلام وتود الحكومات العلمانية. ومن هنا وجب أن تقف الشعوب ضد الحكومات[٤١].

وتقوى هذه الثنائية المتصارعة في مجتمعاتنا نظرا لسيادة هذا النوع من التفكير في حياتنا وقسمة تصوراتنا أيضا بين الحق المطلق والباطل المطلق وهو ما يميز أيديولوجيات المجتمعات المتخلفة بوجه عام. وتقوم أجهزة الإعلام برفض أحد الطرفين، وهو الباطل في نظرها والحق في نظر الجماعات الدينية فتكفر المعارضة وتجعل السلطة صاحب الحق المطلق. فنسبة النظام القائم إلى المعارضة نسبة الخير إلى الشر، والحق إلى الباطل، والصواب إلى الخطأ. ثم تقلب الجماعات الدينية العلاقة بين الطرفين فتجعل نسبتها إلى السلطة القائمة نسبة الخير إلى الشر، والحق إلى الباطل، والصواب إلى الخطأ، والإيمان إلى الكفر، والإسلام إلى الجاهلية.

---

[٤١] أبو الأعلى المودودي: الإسلام اليوم، وأيضا منهاج الانقلاب الإسلامي ص ٦٢ – ٦٥.

ويمكن التخفيف من حدة الثنائية المتصارعة عن طريق الحوار بين الطرفين، والاعتراف بالجماعات الإسلامية كتيار أصيل في البلاد، وإعطائها كافة الحقوق للتعبير عن نفسها. والإعلان عن دعوتها، وقبول السلطة القائمة المراجعة والنقد. فالجماعات الإسلامية على حق من حيث المبدأ. فإذا ما أعطى لها حق التعبير الحر قامت بالموعظة الحسنة وتخلت عن العنف الذي لا يتولد ألا تحت الكبت السياسي والحرمان من وسائل التعبير.

ولقد ظلت حياتنا الوطنية خلوا من هذه الوحدة بين الشكل والمضمون، الشكل الديني والمضمون السياسي. فالحاكمية لله تشرع من حيث المبدأ، وهو ما تفعله الجماعات الإسلامية ولكنها لا تتحقق ألا في مضمون سياسي واجتماعي وهو ما تفعله النظم السياسية القائمة على اختلاف مذاهبها. وتصبح المسألة هي: الحاكمية لصالح من؟ والقرارات السياسية لصالح من؟ فلو أمكن تفسير الحاكمية لصالح جماهير المسلمين ولو أمكن قيام نظم سياسية تعطي الأولوية لصالح الأغلبية على امتيازات الأقلية لما حدث الصدام بين الجماعات الدينية وبين الدولة.

ولا يقتصر الأمر على الحوار بين الشكل والمضمون في حياتنا السياسية، بين الدين والتنمية، بل يتجاوز ذلـك إلـى الوحدة الوطنية ذاتها التي يجد فيها كل تيار ذاته متفقًا علـى برنامج للعمل الوطني مع باقي التيارات وأن كـان مختلفًـا معها في باقي منطلقاتها النظرية. إذ لا يقتصر الخروج على الجماعات الدينية وحدها بل يشمل أيضا الجماعات اليسـارية التي دأبت في الأربعينيات أيضـا علـى إظهـار نشـاطها باستعمال القوة ثم أمكن امتصاصها أخيرا داخـل الثـورات العربية واستطاعت التعبير عن نفسها على نحو طبيعي على عكس ما حدث لجماعة الأخوان المسلمين ابتداء مـن أزمـة مارس ١٩٥٤ حتى اليوم. ويثبت تاريخنا الحديث أنـه فـي لحظات الوحدة الوطنية، عندما يتم تجنيد الشعب كلـه فـي أهداف قومية واحد تخف حدة الجماعات الدينية أو التنظيمات اليسارية النشطة الخارجة على النظام القائم كما حـدث فـي مقاومة عدوان ١٩٥٦ وكما ظهر في أوائل السـتينات، فـي مرحلة التحول الاشتراكي.

٤ – منهج الانقلاب:

ويتم حسم الصراع بين الثنائية المتعارضة عـن طريـق منهج الانقلاب. وفي اللغة الفارسية يعني لفظ "انقلاب" ثورة، وكأن الثورة لا تكون إلا انقلابا وكأن الانقلاب هـو طريـق الثورة. وهو المنهج السائد أيضا في التراث الآسيوي، هـذا الذي عبر عنه الأفغاني بالتغيير الاجتمـاعي عـن طريـق انقلاب السلطة السياسية. وهو الغالب أيضا علـى التـراث الشيعي على عكس محمد عبده وأهل السنة بوجه عام. وهـو التيار الذي يرمي إلى أحداث التغير الشامل في الأمـة عـن طريق التربية وعلى مدى عدة أجيال.

يرفض المودودي طريق التـدرج والإصـلاح والـنهج الديمقراطي لأحداث الانقلاب. "يزعمون أنـه إذا تـم لهـم تأسيس دولة قومية يمكن تحويلها تدريجيا فيما بعد إلى دولـة إسلامية بوسائل التعليم والتربية وبفضل الإصـلاح الخلقـي والاجتماعي. ولكن شهادات التاريخ والسياسة وعلوم العمران تفند مثل هذه المزاعم وتعدها من قبيل المستحيلات.

وإن نجح مشروعه كما يزعمون فلا شـك أنـه يكـون معجزة. فإن نظام الحكومة لـه أصـل ثابـت فـي الحيـاة الاجتماعية.. فلا يمكن أن يحدث انقلاب ثابت فـي نظامهـا

بطريـق مـن الطـرق إلا إذا سـبقه تبـدل فـي الحيـاة الاجتماعية"[٤٢]. فكل محاولات الإصلاح عن طريق التـدرج وبالنهج الديمقراطي وهم خداع وأمـاني معسـولة لخـداع الشعوب سواء من العلمانيين أو المسلمين الخطابيين.

وهذا الانقلاب هو الجهاد، وهو "السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل إقامة نظام الحق"[٤٣]، وهو الركن السادس من أركان الإسلام دون الإعلان عنه. وإن لم يكن ركنا عند البعض فهو فريضة من أجل حماية الإسلام[٤٤]. والجهاد ليس هو ما أطلق عليه الأوروبيون الحرب المقدسة بل هو فكـرة انقلابية. "الإسلام فكرة انقلابية يريد أن يهدم نظـام العـالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي. ومن هنـاك تعـرف أن لفظ "المسلم" وصف للحزب الانقلابي العالمي الـذي يكونـه الإسلام وينظم صفوفه ليكون أداة في أحداث ذلك البرنـامج

---

[٤٢] منهاج الانقلاب الإسلامي ص ٣١ – ٣٢.

[٤٣] الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص ١٧.

[٤٤] أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام ص ١١٨ – ١٢١.

الانقلابي الذي يرمى إليه الإسلام ويطمـح إليـه ببصـره. والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلابي عن تلك الحركة الدائبـة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الغاية وإدراك هـذا المبتغى"[٤٥]. ودعوة الإسلام الانقلابية ليست موجهة للعمـال والفلاحين أو الملاك أو أصحاب رؤوس الأموال بل موجهة إلى البشر كافة، دعوة إلى انقلاب عالمي شامل مـن أجـل رفض سلطة الطواغيت مبعثي الفساد في الأرض من الأمراء والملوك والحكام من أجل الانضواء تحت سلطة الله وحـده حتى لا يقع السلمون في الشرك بين الله والحكام. "فإن أبيـتم عبودية الله الواحد الفرد الصمد دانت رقابكم للطواغيت الذين علوا في الأرض وتمأدى بهم الطغيان فاتخذوا مـن أنفسـهم إلهة وأربابا من دون الله. ولن تتخلصوا من نير عبـوديتهم أبدا فإنهم لا محالة يمتلكون ناصية أمركم يعبثون في الأرض فسادا"[٤٦].

---

[٤٥] أبو الأعلى المودودي: الجهاد في سبيل الله ٢٣ – ٢٤.

[٤٦] المصدر السابق ص ٣٤.

وتمتاز دعوة الإسلام الانقلابية بأنها دعوة الرسل لتجديـد النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتغييرهـا تغييـرا شاملاً. ومن هنا أتت الحاجة إلى الجهـاد. فالإسـلام لـيس مجموعة من المناسك والشعائر بل هو "نظام كلي شامل يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ويقطع دابرها ويستبدل بها نظاما صالحا ومنهاجا معتـدلاً لا يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخـرى وإن فيـه نجـاة للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان وسعادة له وفلاحـا في العاجلة والآجلة معا"[٤٧]

وحزب الانقلاب هو حزب الله، حزب الحق والعدل ليكون شهيدا على الناس. ومهمته "أن يقضى علـى منـابع الشـر والعدوان ويقطع دابر الجور والفساد في الأرض والاستغلال الممقوت وأن يكبح جماح الإلهة الكاذبة الذين تكبـروا فـي أرض الله بغير الحق وجعلوا أنفسـهم أربابـا مـن دون الله ويستأصل شأفة ألوهيتهم ويقيم نظاما للحكم والعمـران"[٤٨]،

---

[٤٧] المصدر السابق ص ٣٩.

[٤٨] المصدر السابق ص ٤١.

إن حزب الانقلاب هو الوحيد المرشح لأخذ السلطة من أجل القضاء على الفساد. يقول المودودي "أن هذا الحزب لابد له من امتلاك ناصية الأمر، ولا مندوحة له عن القـبض علـى زمام الحكم لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض"[٤٩]. لذلك لا يمكن تقسيم الجهاد إلى هجومي ودفاعي لأن هـذين اللفظين يصدقان فقط على الحروب الوطنية. وليس الجهـاد في الإسلام كذلك لأنه هجومي ودفاعي معـا "هجـومي لأن الحزب الإسلامي يضاد ويعارض الممالـك القائمـة علـى المبادئ المناقضة للإسلام ويريد قطع دابرها ولا يتحرج في استخدام القوة الحربية لذلك"[٥٠]. هذا الحزب هو الذي يقـوم بتنفيذ برنامج الجماعة وهو "أن تستأصل شـأفة كـل نظـام للحياة أسس بنيانه ووضعت قواعده علـى الانسـلاخ مـن عبودية الله وعدم المبالاة بالمسؤلية الأخروية والاستغناء عن تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم فإنـه مبيـد للإنسـانية مقـوض

---

[٤٩] المصدر السابق ص ٤٢.

[٥٠] المصدر السابق ص ٥١.

لدعائمها، وأن تقيم مكانه نظاما للحياة مبناه على طاعـة الله عز وجل والإيمان بالآخرة واتباع الرسل والأنبيـاء فإنـه لا سعادة لإنسانية ولا فلاح فيه"[٥١].

ويفصل المودوي هذا البرنامج في نقاط أربـع: الأولـى: تطهير الأفكار وتعهدها بالغرس والتنمية ومن هنا كان اهتمام المودوي بالتعليم والتربية وتطهير الثقافة. الثانية: استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم من أجـل تكوين الزعامة من الصفوة. والثالثة: السعي فـي الإصـلاح الاجتماعي الشامل في الدين والـدنيا دون اكتفـاء بـالوعظ والإرشاد. والرابعة إصلاح الحكم والإرادة لأن تغيير نظـام الحكم هو السبيل لمنع الفساد في الأرض[٥٢].

ويحدث الانقلاب عن طريق تكوين جماعة من الصـفوة تقوم بالانقلاب "فإنها لا تظهر دولة إسلامية بطريقة خارقـة للعادة بل لابد لإيجادها وتحقيقها منـان تظهـر أولاً حركـة شاملة مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتهـا وعلـى

---

[٥١] واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ص ٦ – ٧.

[٥٢] المصدر السابق ص ٥٦ – ٦٢.

قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام وتوائم طبيعته يقوم بأمرها رجال يظهرون استعداداهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة المخصوصة من الإنسانية، ويسعون لنشـر العقليـة الإسلامية، ويبذلون جهودهم في بث روح الإسلام الخلقية في المجتمع"[٥٣]. ثم تتحول هذه الصفوة شيئًا فشيئًا إلـى حركـة شعبية شاملة "تقوم هذه الحركة الشعبية وتنهض وتقوى حتى تغير بجهادها المستمر العنيف أسس الجاهلية الفكرية والخلقية والنفسية والثقافية السائدة في الحياة الاجتماعية وتأتي بنيانها من القواعد"[٥٤]. وكلما كانت الصفوة مختارة كـان نجاحهـا أعظم. يقول المودودي: "إن إعلاء كلمة الله والـدعوة إلـى القيام بها تحتاج إلى رجال ذوي صلاح، يتقون الله في السر والعلن من لا يلهيهم عـن العمـل بالشـريعة والاستمسـاك بعروتها شيء من مطامع الـدنيا ولا تصـرفهم عـن ذلـك العقبات والشدائد. ولا يهم الدعوة بعد ذلك هل بـرز للعمـل أمثال هؤلاء الرجال من الذين ورثوا الإسلام عن آبـائهم أو

---

[٥٣] منهاج الانقلاب الإسلامي ص ٢٠.

[٥٤] المصدر السابق ص ٢٤.

من قبلوا هذه الفكرة بأنفسهم. وأيم الحق أن عشرة رجال من أمثال هؤلاء أرجح كفة وأثقل وزنًـا فـي ميـزان الـدعوة الإسلامية من الآلاف المؤلفة مـن ضـعاف الأخـلاق"[٥٥].

هؤلاء الرجال يكونون الزعامة الحقة التي لا تبغـي النفـع العاجل ولا تنظر إلى مصالح قومها بل هي الزعامـة التـي تحقق حاكمية الله الأوحد كما فعل رسل الإنسانية وكما تثبت سنن الله في الكون. ويحدد المودودي الدعوة الإسلامية فـي ثلاث مبادئ: عبادة الله، تطهير النفس، والانقـلاب العـام. ويقول المودودي شارحا المبدأ الثالث: "ودعوتنا لجميع أهـل الأرض أن يحوثوا انقلابا عاما في أصول الحكـم الحاضـر الذين استبدت بهم الطواغيت والفجوة، الذين مـلأوا الأرض فسادا واستطاعوا أن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعمليـة من أيديهم حتى يأخذوها رجال يؤمنون بالله وباليوم الآخـر ويدينون بدين الحـق ولا يريـدون علـوا فـي الأرض ولا فسادا"[٥٦].

---

(٥٥) المصدر السابق ص ٢٨ – ٢٩.

(٥٦) أبو الأعلى المودوي: تذكرة دعاة الإسلام ص ٧ – ٨.

وأهم عنصر في هذه الجماعـة هـو تربيتهـا وتأهيلهـا للزعامة وذلك عن طريق التربية الخلقية. الغاية هو "أحـداث انقلاب في القيادة" قبل أن يحدث الانقلاب في الشعب وأعني بذلك أن أقصى ما نبتغي الوصول إليه والظفر به فـي هـذه الدنيا أن نطهر الأرض من أدنـاس قيـادة الفسـقة الفجـر وسيادتهم ونقيم فيها نظام الإمامة الصالحة الراشـدة. فهـذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجع وسـيلة موصـلة إلى نيل رضا الرب تعالى وابتغاء وجهه الأعلى فـي الـدنيا والآخرة.. فإن أراد أحد اليوم أن يطهر الأرض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد والأمن بالاضراب والأخلاق الزكية بالأباحية والحسنات بالسيئات لا يكفيه أبدا أن يـدعوهم إلـى الخيـر ويعظمهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الأخلاق الحسنة بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الإنسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة متضامنة وقوة جماعيـة تمكنه من انتزاع زمام الأمر من الـذين يقـودون موكـب الحضارة في الدنيا وأحداث الانقلاب المنشود فـي زعامـة

الأرض وإمامتها"[٥٧] يجب إذن تكوين زعامة طـاهرة فـي مواجهة الأغلبية الدنسة من أجل تحويلها إلى جماعة طاهرة لأن غاية الدين الحقيقية هي إقامة نظام الإمامـة الصـالحة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض" وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية. والذي يضعضع القوة الجماعية ويفـت في عضدها يجني على الإسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها.. ثم إذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الإسـلامي ألا بالمساعي الجماعية لم يكن بد مـن أن تكـون فـي الأرض جماعة صالحة تؤمن بمبادئ الحق وتحافظ عليها ولا تكـون لها غاية في الحياة إلا إقامة نظام الحق وإدارة شؤونه"[٥٨].

وتقوم التربية الخلقية للزعامة علـى القـوانين الماديـة والمعنوية. فالإنسان موجود طبيعي تسري عليه سائر قوانين الطبيعة ولكنه أيضا موجود خلقي لا يـذعن للطبيعـة بـل يسطير عليها ويتحكم فيها. فالأخلاق هي مناط رقي الإنسان

---

[٥٧] أبو الأعلى المودودي: الأسس الأخلاقية للحركة الإسـلامية ص ٩ – ١١.

[٥٨] المصدر السابق ص ١٦ ص ١٨.

وانحطاطه. وهي نوعان: الأخـلاق الإنسـانية الأساسـية، والأخلاق الإسلامية. فالأولى مثل "قوة الإرادة والمضاء فـي الأمر والعزم والإقدام والصبر والثبـات والأنـاة ورباطـة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسـالة والنشـاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضـحية بكـل شيء في سبيل تحقيقها، والحزم والحيطة وإدراك العواقـب والقدرة على تقدير المواقف المختلفة"... وهذه كلها صـفات القيادة الحازمة والزعامة الصلبة. أما الأخلاق الإسلامية فلها مهام ثلاث:- الأولى: تزويد الأخـلاق الإنسـانية بمركـز صحيح وقطب مستقيم إذا اقترنت به حولها إلى الخير والرشد وهو ما توفرها الزعامة بوجودها. والثانية: تأصيل الأخلاق الإنسانية وتوسيعها وتطبيقها وتقويتها مثل الصبر والمثـابرة والجهاد وهو ما توفره الزعامة أيضا بقدوتها. والثالثة تطهير القلب من أدران الأثرة والأنانية والظلم والخلاعة والاستهتار وهو ما توفره الجماعة أيضا بإيمانها. زعامة الجماعـة إذن تجمع بين الأخلاق الأساسية والأخلاق الإسلامية وتسـتخدم

الوسائل المادية والمعنوية لتحقيق غايتها. وهي وإن كانت قلة من حيث الكم إلا أنها كثرة من حيـث الكيـف[٥٩]. ويضـع المودودي أربع مراتب للأخلاق الإسلامية يتدرج المسلم فيها من بدايتها إلى نهايتها فيصل إلى رتبة الزعامة. الإيمان وهو مجرد إقرار باطني ثم الإسلام حيث يظهر الإيمان من الباطن في عمل للجوارح ثم التقوى وهو عود إلى الباطن من أجـل خشية الله ثم الاحسان وهو عود إلى إلى العالم الخارجي لبدء النضال الجماعي من خلال الجماعة[٦٠]. ويحـدد المـودودي منهاج العمل للجماعة بثلاث مبادئ: الاصطباغ بالدين كلية، وتقوية أواصر الصداقة والقرابة، والصـبر علـى الشـدائد والثبات في المصاعب. ويعدد مميزاتها في أربع: أنها جماعة تقوم على المبدأ، راسخة العقيدة، حسنة الأخلاق، قادرة على الكشف عن اللئام[٦١].

---

(٥٩) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص ٢٠ – ٤٥.

(٦٠) المصدر السابق ص ٤٦ – ٦٨.

(٦١) تذكرة دعاة الإسلام ص ٢٠ – ٣٢.

يقول المودودي: "لأنه في مثل هـذا الكفـاح والمقاومـة يمتحن القائمون بالدعوة وحاملو لوائهـا بـأنواع المصـائب والشدائد فيقاسون الآلام والأهوال ضربا وقتلاً وإجلاء عـن الوطن، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد وإخلاص وعزم ويبتلون بالشدائد ويفتنون"[٦٢].

ويبرز المودودي دور الطلبة في بنـاء مسـتقبل العـالم الإسلامي مما يفسر إقبال الطلاب خاصة علـى الجماعـات الدينية. فالطلبة هم قادة الـوعي. القـادرون علـى الفكـر والمؤهلون للزعامة. الطلاب في البلاد الإسلامية في أوضاع متجانسة يرون انهزام الأمة أمام الاستعمار وأثر الحضـارة الغربية في ثقافاتهم. وبالتالي فعلى عاتقهم يقع تحويل التراث الحضاري إلى الأجيال القادمة. وهناك طريقان لذلك. الأولى تخص الطلبة والثانية تخص الحكومات. فما يخص الطلبة هو تربيتهم على مبادئ الإسلام الثلاث: مبـدأ التوحيـد ومبـدأ الرسالة ومبدأ البعث بعد الموت، وضرورة تركيز الجهـود للمحافظة على هذه المبادئ من أجل الاستمسـاك بـالأخلاق

---

[٦٢] منهاج الانقلاب الإسلامي ص ٢١ – ٢٢.

الإسلامية والحضارة الإسلامية أمام جرائم الـذين ينشـرون الثقافات العاهرة في الشباب الإسلامي ووسط انتشار الخيانات في المجتمع. أما ما يخص الحكومات فهو ضرورة التربيـة العسكرية على مبادئ الإسلام حتى يمكن للشـباب تحقيـق أهداف الإسلام[٦٣].

والحقيقة أن كل ما يقوله المودودي لحـل هـذه الثنائيـة المتعارضة صحيح من حيث المبـدأ ولكـن الخـلاف فـي التطبيق. فلا يمكن إدانة الواقع كله وهدمه وتقويضه ثم إعادة البناء من جديد. بل الممكن هو تطوير الواقع تماما وبالتـالي تتحقق الحاكمية لله. فإدانة الواقع كله لا تسمح والواقع تمامـا وبالتالي تتحقق الحاكمية لله. فإدانة الواقـع كلـه لا تسـمح بالتعامل معه بل تسبب النفور من كل محـاولات الإصـلاح والتغيير. صحيح أن هذه الثنائية المتعارضة تعبر أيضا عـن البناء الثقافي للمجتمعات المتخلفة التي لا تعرف التوسط بين الأطراف إلا أن اكتشاف الواقع هو الذي يمكـن أن يجمـع الأطراف المتصارعة حوله. فالواقع ليس حقًا أو باطلاً، خيرا

---

(٦٣) أبو الأعلى المودودي: دور الطلبة في بناء مستقبل العلم الإسلامي.

أو شرا، بل هو الواقع ذاته يتغير ويتحرك ويتبدل. هو ميدان العمل والجهاد والكفاح المتواصل، إن توجيه نشاط الجماعات الإسلامية إلى البناء وحل المشاكل الأساسية التي تعرضت لها مجتمعاتنا مثل الفقر والأمية ونقص الخدمات هو السبيل لاكتشاف الواقع. وإن إعادة البناء هو خير من إلهدم.

٥- الإيمان والطاعة:

الدين هو الإيمان والتسليم بمعطياته دون أعمال لعقل أو إقامة لبرهان على صحة هذا الإيمان أو حتى مضمون اجتماعي له. والإيمان أكثر عاطفة وأنفعالاً وأقل عقلاً وبرهانًا. لذلك غاب الحوار، وانعدم النقاش، وزادت الحمية الدينية، وانقلبت إلى تعصب وهوس.

عندما يتحدث المودوي عن مبادئ الإسلام فإنه لا يتحدث عن الإيمان بالواقع عن طريق الحس والمشاهدة وبطريق العقل والاستدلال ولكنه يتحدث عن الإيمان عن طريق النبوة، نبوة الرسل. فالعقل البشري يتخبط في طريقه، والمعرفة البشرية ناقصة وخاطئة، والإنسان جاهل ونزاع للهوى. أما الرسل فهم أكمل البشر وأفضل الخلق لذلك هم مصدر العلم والمعرفة. النبوة إذن هي الطريق إلى العلم

الصحيح، ليس عن طريق الجهد البشري بـل عـن طريـق الوحي والإلهام. والدليل على صدق النبي هو المعجـزة أي الدليل الخارجي المحض. النبـوة ضـرورية للإنسـان لأن الإنسان لا يكفي ذاته، إن استطاع معرفة دنياه فإنـه قاصـر على معرفة آخرته[٦٤].

أما مضمون النبوة فهو دينـي خـالص، الإيمـان بـالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعلى رأسـه تصـور الألوهية وصفاتها.

يغيب عنه المضمون الاجتماعي الـذي يـربط الإيمـان بقضايا الواقع حتى لا ينغلق على نفسه فيتصلب ويتحول إلى هوس ديني. والعجيب أن يجعل المودودي نسبة التصوف إلى الفقه نسبة الدين إلى الشريعة، التصـوف شـريعة للبـاطن والشريعة شريعة للظهار. والمسلم من يجمع بين الشـريعتين وأصبح باطنيا في سره ظاهريا في علنه. يتصـوف ويقـيم الشعائر[٦٥].

---

[٦٤] مبادئ الإسلام ص ٣٠ – ٣٥ ص ٦٤ – ١٠٣.

[٦٥] المصدر السابق ص ١٢٦ – ١٢٩.

ويقوى ذلك ما يسود مجتمعاتنا من دعايـة للإيمـان لان الإيمان يعني التسليم، والتسليم بالمعطيات مسبقا يخدم الـنظم السياسية لأنه يضمن لها طاعة الجماهير والتسليم المسبق بما تعطيه لها الصفوة الحاكمة. كما أنه الطـابع العـام المميـز للمجتمعات المتخلفة إذ يقاس التقدم بمقادر مـا يتـوفر فـي المجتمع من عقلانية وممارسة للنقد. ويمكن بطبيعة الحـال التخفيف من حدة هذا الإيمان الانفعالي عـن طريـق عمـل العقل، وطلب البرهان، وتحليل المعطيـات، والتفرقـة بـين التمني والرغبات من ناحية وبين الفكر الموضوعي من ناحية أخرى.

ويقترن الإيمان بالطاعة فان أي تنظيم اجتماعي لابـد أن يقوم على الإيمان الراسخ لأعضائه وعلى طاعة الأمير. وقد انهارت المجتمعات الإسلامية لفقدانها هاتين الـدعامتين[٦٦]. والطاعة مطلقة تنفيذًا للأوامر ودون مناقشـة لمـا تقتضـيه الحاكمية لله. وقديما عرف الصوفية التصوف بأنه "الإعراض عن الاعتراض".

---

[٦٦] نحن والحضارة الغربية ص ٢٣٣ – ٢٤١.

ويعرف المودودي الإسلام حسب التعريف الشـائع بأنـه الانقياد والاستسلام. فالكون كله منقاد لقاعدة معينة وكـذلك حياة الإنسان. أما الكفر فهـو العصـيان والجهـل والظلـم والخسران المبين. ويقرن بين الإيمـان والطاعـة، ويجعـل حاجة الإنسان إلى العلم واليقين من أجل الطاعة وليس لأجل الرفض. يجعل الإيمان الإنسـان مطيعـا منفـذًا للأوامـر والأحكام، ومن لا يؤمن بالله يكون رافضا عاصيا خارجـا. وإن طاعة النبي واجبة فيما نفهم وفيما لا نفهم. أما العبـادة فهي أيضا خضوع العبد للرب. وأحكام الشريعة تطلب مـن الإنسان حق الله في الطاعة والإيمان والانقياد(٦٧).

ويحدد المودودي الصفات اللازمة للعاملين في الحركـة الإسلامية على نوعين: فردية وجماعيـة. فالفرديـة تشـمل الخضوع للأوامر والنواهي. وطبقًا لهذا الخضـوع تتحـدد درجات الجهاد ثم الهجرة ثم بداية الحرب مع البيئة المحيطة ابتداء من المنزل حتى المجتمع. أما الجماعية فإنهـا تهـدف

---

(٦٧) مبادئ الإسـلام ص ٣ – ١٣ ص ٢١ – ١٣ ص ٢١ – ٢٩ ص ٣٥ - ٣٧ ص ١٠٥ – ١٠٦ ص ١٣٤ – ١٣٨.

إلى التحريك الجماعة عن طريق أواصر الصداقة والقرابـة. والمجاهد في سبيل الله تتحدد علاقته بالله بالتفهم والتفكر أولاً وبالعمل ثانيا. وتقوى علاقته بالله بالصلاة وذكر الله والصوم والإنفاق. ومقاس علاقته بالله إيثاره الآخرة على الـدنيا. ولا مكان للانتقاد الاجتماعي إلا عـن طريـق إسـداء النصـح والمشورة لأمراء الجماعة لأن واجـب المجاهـد أولاً هـو الالتزام بالسمع والطاعة. فلا يكون الانتقاد فـي كـل حـين ومجلس بل بناء على طلب من أمير الجماعة المحليـة مـع توخي رقابة الله ودون إطالة مع توقع لما يأتي عن الانتقـاد الزائد من الفساد[٦٨].

وتبدو هذه الطاعة في الولاء المطلق لأعضاء الجماعـات الدينية لأمرائهم، وفصل كل من يشق عصا الطاعـة عليهـا لدرجة التهديد بالقتـل، وتنفيـذ الأوامـر بالقتـل والعنـف والاستيلاء على مؤسسات الدولة دون تفكيـر أو مناقشـة أو اعتراض أو حتى مراجعة. وهنـا تتحـدد حاكميـة الدولـة بحاكمية الأمير طبقًا للتفسير الشـائع الآيـة "وأطيعـوا الله

---

[٦٨] تذكرة دعاة الإسلام ص ٣٢ – ٨٢.

وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". بل ويتم التحكم في أعضاء الجماعة حتى في أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق أو عمل في الدنيا وهجرة إلى الآخرة.

ويقوى ذلك الطابع التسلطي لمجتمعاتنا المعاصرة التي يسودها أيضا هذا النمط من السلوك طبقًا للتصور الهرمي للعالم. فالحاكمية للسلطان الذي يأمر فيطاع جدل أو نقاش حتى ولو أعترضت على أوامره وقوانينه بعض جماعات المعارضة. وبالتالي تعبر أيديولوجية التسلط ليس فقط عن الحاكمية لله بل أيضا عن الأوضاع السياسية في مجتمعاتنا المعاصرة، كل منها يقوى الآخر ويغذيه. تقوى هذه الطاعة نظمنا السياسية المعاصرة التي يدين لها المواطن بالولاء. فتعتقل المعارضين، وتتهمهم بالمروق والعصيان، وتدين حركات الرفض. وتصف الثوار بالكفر والعمالة والإلحاد.

ويمكن التخفيف من حدة هذه الطاعة العمياء عن طريق إذكاء روح المعارضة في المجتمع، وإفساح المجال للتعبير عن مختلف الآراء، وعدم سيادة الرأى الواحد والإرادة الواحدة، وسماع آراء الشباب بدلاً من تلقينهم للمذاهب السياسية والمعتقدات الدينية أو دفعهم نحو المراجعة

والتمحيص، وعدم قبول شيء على أنه حـق إن لـم يثبـت بالدليل أنه كذلك. ويبدو أن المأساة هو ظهور هذه الجماعات الدينية في مجتمعات متخلفة نظرا لأن الطاعة العمياء وغياب النقد هي إحدى سمات التخاف الحضاري حتى ولو ظهـرت مثل هذه الجماعات في المجتمعات الصناعية المتطورة.

٦- المحارم والطقوس:

الحجاب والستار والمحرم علامـات مميـزة للجماعـات الدينية تخصها عن غيرها من الجماعات تأكيدا للهوية الدينية والانفصال عن باقي المجتمع، فجسم الإنسـان بـه أجـزاء محرمة لابد من تغطيتها، والعلاقات الإنسانية بهـا جوانـب محرمة لا يجب الاقتراب منها. ويصل الأمر إلـى تصـور العالم مملوء بالمحرمات التي تتحول إلى مقدسات كمـا هـو الحال في المجتمعات المتخلفة، والأخطر من ذلك أن يتحول ذلك المجهول إلى نشاط سري وإلى تحول الجماعات الدينية إلى جماعات باطنية تخضع لقوانين العالم السري، عالم مـا تحت الأرض. ومعروف أنه يغلب علـى هـذه الجماعـات الطابع السري على ما هو معروف في فرق الشـيعة لأنهـا

جماعات مناوئة للنظام القائمة، وتبدأ بالعمل السري في الخفاء قبل أن تظهر في العلن.

لذلك تظهر مسألة الحجاب وكأنها مسألة جوهرية في الإسلام وفي تنظيم الجماعات الدينية. وتبدو مسائل الجنس والزواج وغض الطرف وعدم لمس يد النساء والهجوم على حفلات التعارف والرحلات والجلوس المشترك للطلبة والطالبات في الجامعات، كل ذلك فتن وشبهات! فالإنسان حيوان مملوء بالرغبات والشهوات والغرائز التي يجب كبح جماحها وذلك عن طريق المحرمات أي اقتصاص جوانب في الإنسان لا يمكن الاقتراب منها بل معاملتها بالكبت والحرمان مثل الجنس المحرم. ويفصل المودودي أحكام اللباس وستر العورات وحدود العورة للرجال وحدود العورة للنساء وتحريم منع الخلوة واللمس وضرورة الاستئذان. كما يحرم النظر إلى النساء ويمنع أبداء الزينة ويطالب بإصلاح الباطن لمقاومة الشهوات والفتن: فتنة النظر وفتنة اللسان، وفتنة الصوت، وفتنة الطيب وبطبيعة الحال فتنة العرى. ولما كان عمل المرأة في منزلها إلا عن حاجة ترخص لها الخروج فإنه يؤذن بحضور المساجد والحج وخروجها

للجمعة والعيدين وزيارة القبور واتباع الجنائز. والرجل قوام عليها ومسئول عن معاشها وتربيتها وصلاحها[٦٩]. وفي كـل كتاب يعقد المودودي فصلاً عن المرأة وملك اليمين وما تمت والزواج والطلاق وكأنها موضوعا خاصا له كيانه وقانونـه الخاص[٧٠].

وينتج عن هذا أخـلاق التزمـت والالتـزام بالشـعائر والطقوس والمظاهر الخارجية. ويتحول الدين إلـى مجـرد أعمال للجوارح كنوع من الإعلان عن النفس والدعاية الدينية المرئية التي يلاحظها كل الناس. فما أسـهل إطالـة اللحـى بدعوى السنة، ومسك السبحة بدعوى ذكر الله، ولبس الجلباب الأبيض بدعوى الزي الإسلامي، وإقامة الصلاة في الكليـات والمعاهد ودور العلم بدعوى الاميان. فمبادئ الإسـلام هـي الأركان الخمس[٧١]، وقانونه هو قانون العقوبات، وحـدوده

---

[٦٩] أبو الأعلى المودودي: الحجاب ص ١٥١ – ٢٣٥.

[٧٠] مبادئ الإسلام ص ١٤١ – ١٤٤ ، تدوين الدستور الإسـلامي ص ٨٤ – ٩٣.

[٧١] مبادئ الإسلام ص ١٠٧ – ١١٨.

لمن يقترب من المحرمات، والشريعة وضعت القيود لزجر النفس وكبح جماح شهواتها وعقابها حتى أصبح العالم كله متغلغلاً بالشريعة، وكل شيء محكوم عليه بقانون. فضاعت البراءة الأصلية وانعدم السلوك الفطري. وكل مالم يذكر اسم الله عليه من الذبائح فهو حرام حتى ولو كانت ذبائح أهل الكتاب[(٧٢)]. ويحدث هذا كرد فعل عما يحدث في المجتمع المتخاف عن انحلال خلقي وإثارة جنسية ينشأ بعده التزمت المضاد عند الاتقياء. هذا بالإضافة إلى أن المجتمع المتخاف يتسم بالتشدق بالفضائل والرغبة في الإعلان عن التقوى في مظاهرها الخارجية حتى يفعل الباطن ما يشاء بغير حساب كما هو الحال عند المنافقين.

ويظهر نشاط الجماعة نظرا لغياب أي نشاط سياسي آخر لاي حزب أو جماعة. فيبدو فريدا نظرا للسلبية التامة لمعظم التنظيمات السياسية. ويظهر سريا نظرا لغياب أي نشاط إسلامي علني يدعو إلى تحقيق الحاكمية لله بعد القضاء على نشاط الأخوان المسلمين منذ ١٩٥٤ حتى الآن. ويمكن

---

(٧٢) أبو الأعلى المودودي: الذبائح.

التخفيف من حدة التزمت الدين عن طريق العودة إلى الفطرة والي البراءة الأصلية التي تحدث الأصوليون عنها، ففطـرة الإنسان بطبيعته تدفعه نحو الخير، والبراءة الأصـلية فـي العالم، الأشياء على الإباحة مالم يرد فيهـا تحـريم، تجعلـه خارج نطاق المحرمات. ويمكن القضاء على كل المحرمات والأسرار "التابو" عن طريق العلم والمعرفة. فلا حيـاء فـي الدين، والإنسان قادر على معرفة ذلك المجهول حتـى ولـو كانت أعضاء بدنه أو بدن الغير.

ومن مظاهر التزمت الديني ما يذكره المودودي باستمرار عن أهل الذمة وحقوقهم في الدولة الإسلامية والبداية بتقسـيم مواطني الدولة الواحدة إلى مسـلمين وذميـين ممـا يثيـر الضغائن والاحقاد ويبعث على الطائفية والفتن وكأن الدولـة الإسلامية أصبحت قاب قوسين أو أدنى أو كأنها قد تحققـت بالفعل وأخذ المسلمون حقوقهم والآن جاء الدور على أهـل الكتاب وأخذوا حقوقهم والآن نبحث عـن واجبـاتهم. بـل ويصنف المودودي أصناف الرعية غير المسلمة وهي كلهـا

أصناف نظرية خالصة بالنسبة للعصـر الحاضـر ومجـرد تمييزات فقهية تأتي من بطون الكتب تضر أكثر مما تنفع[٧٣].

ومن مظاهر التزمت الديني أيضا الهجوم علـى حركـة تحديد النسل وبيان أسباب نشـأتها فـي الـدول الصـناعية كضرورة من ضرورات الصناعة وكنتيجة لعمـل المـرأة. ولكن آثارها على الغرب كانت وخيمة فيمـا يتعلـق بكثـرة الفواحش، والأمراض الخبيثـة، وكثـرة وقـائع الطـلاق، وانخفاض نسبة المواليد. أما الإسلام فإنه يترك خلق الله على الطبيعة لأنه يعلم مضار هذه الحركة في الجسد والروح وفي الحياة المدنية والاجتماعية وفي الأخلاق وفي النسل والحيـاة القومية. ويمكن علاج مشاكل الأمة عن طريق إعادة تنظـيم اقتصادها وتوزيع مواردها وليس عن طريق خنق إمكانياتها البشرية. وهو وإن كان على حق من حيث المبدأ إلا أن سبب التحريم ليس هو الطبيعة بل ضرورة الثورة السياسـية فـي مجتمعاتنا من أجل إعادة توزيع الدخل القومي على أسـاس

(٧٣) أبو الأعلى المودودي: حقوق أهل الذمة فـي الدولـة الإسـلامية وأيضا، الجهاد في سبيل الله ص ٥٢ – ٥٤.

من العدل والمساواة والعجيب أن يـدين المـودودي الفكـر الطبيعي في الغرب وينادي بالطبيعة في هجومه على حركة تحديد النسل[٧٤].

والأغرب من ذلك كله هو تأكيد المودودي على الملكيـة الخاصة في الإسلام ملكية الأرض بموجب القرآن والحـديث ورفضة جميع أنواع الاشتراك فـي فلاحـة الأرض مثـل الزارعة. والأغرب من ذلك كله هو وقوفه أمـام الإصـلاح الزراعي ونفيه للتأميم والمساواة في توزيع الثورة ودفاعـه عن حقوق الملكية وإنكاره لأية قيود عليها التي لا أصل لهـا إلا في هوى النفس وكأن الجماعات الدينية المغلقة تؤدي إلى الاستحواذ على الأشياء والتسلط على المادة وتجعل المقصود من حدود الله إثبات حق الملكية الفردية في حين أن مثل هذه الجماعات عادة تكون ذات نوعة اشتراكية. ولكن ظهورهـا في المجتمعات المتخلفة التي مازالت خاضعة لتأثير الثقافـة الغربية وعلى رأسها الفكر الرأسمالي جعلهـا تنحـو نحـوا

---

[٧٤] أبو الأعلى المودودي: حركة تحديد النسل.

رأسماليا في تصورها للملكية مما يدل على أنهـا جماعـات تسلطية أكثر منها "كوميونات" للحياة المشتركة(٧٥).

(٧٥) أبو الأعلى المودودي: مسألة ملكية الأرض في الإسـلام وأيضـا نظرية الإسلام السياسية ص٣٦.

خاتمة

يتضح من هذا البناء النظري لفكر أبي الأعلى المودودي الآتي:

١. لقد ظهر التوحيد الإسلامي، وهي عقيدة الإسلام الأولى، في صورة ثنائية متصارعة فتحول التوحيد في فارس إلى مانوية ثنوية، حاكمية الله ضد حاكمية البشر، النور والظلمة، وتجعل حياة الإنسان صراعا بين النور والظلمة، ونجاته بانتصار أحدهما على الآخر. وهو تصور يحيل حياة الإنسان إلى جحيم ويقضي على هدوئه واطمئنانه ويجعل الجهاد حريقًا، والمسلمين حطبا. أما التوحيد الإسلامي فهو تحويل الوحي كنظام مثالي للعالم عن طريق محو الثنائية بين الواقع والمثال، وهو معنى تطبيق الشريعة أو إقامة الدولة الإسلامية.

٢. يبعد الفكر الديني عند المودودي عن الأيديولوجية المستنيرة التي تقوم على البناء النظري المضاد. فحاكمية البشر تعني الاتفاق الجماعي على

الصالح العام خاصة وإن حاكمية الله لا تفعل مباشرة إلا من خلال البشر في جماعة معينة وفي نظام سياسي خاص وتحت زعامة محددة. وطالما استعملت حاكمية الله كتبرير لحاكمية البشر وإضفاء السلطة عليها. واستقراء الصالح العام مضاد للتنزيل وأحكام للمتشابه، والبدء بأسباب النزول قبل التنزيل وبالتالي البحث عن العلل المادية المباشرة التي تؤثر في سلوك الناس. والعقل والرفض مضادان للإيمان والطاعة وتحويل للمجتمع السلبي إلى مجتمع ايجابي. يراجع الحاكم فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. والأعمال الصالحة على الضد من الشعائر والطقوس وتعبر عن جوهر الإسلام وتفرده عن غيره من الديانات. والطبيعة على النقيض من السر، والكشف على الطرف الآخر من الستر والحجاب. وقد استطاع المعتزلة من قبل صياغة هذه الأيديولوجية المستنيرة القائمة على العقل والحرية والشورى والطبيعة

والإنسانية والتقدم. ولكن يبدو أن معاصرينا لم يلحقوا بعد بالسابقين علينا.

٣. ولا تتحقق الدعوات مرة واحدة بلا مراحل وإعداد مسبق. وإن إدانه كل ما و موجود والتشريع من جديد، وهدم كل ما هو قائم والبناء من جديد ليعبر عن عاطفة غضب وتدمير أكثر مما يعبر عن التغير الثوري، فالعلمانية لا شك أنها تمثل مكسبا للفكر الديني. ولا يمكن هدمها بل إكمالها. وكذلك القومية والديموقراطية والاشتراكية كلها تمثل مكاسب إنسانية لا يمكن هدمها بل إكمالها. وكل دين لم يأت لنسخ الدين السابق ولكن لإكماله. ولو كان اللاحق هادما لسابق كما حدث تراكم حضاري بشري ولعادت البشرية باستمرار لما بدأت ولما تقدمت عن نقطة الصفر.

٤. لا يتم التغير الاجتماعي بتغيير الصفوة ونقل الزعامة من فئة إلى فئة أخرى. فتغير السلطة على القمة قد لا يتغير البناء الاجتماعي والهيكل الاقتصادي والتصورات الذهنية للأمة، إنما يحدث

التغير الاجتماعي بتغير تصورات الناس للعـالم التي توجه سلوكهم، وتعطيهم البواعث، وتمـدهم بالغايات. وليست الزعامة إلا أحد أطراف ثلاثـة مع الفكر الثوري والجماهير المجنـدة. وتركيـز المودودي على الصفوة هو تفكير انقلابي يغيـر المجتمع بتغير السلطة، وهو أضعف ما في الفكر السني المعروف في القول المأثور "أن الله يـزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن". وما أسهل معارضة الانقلاب بانقلاب آخر. وتظل الجماهير متفرجـة ويظل فكرها خامدا مستكينًا خاملاً.

٥. لا تحدث التغيرات الثورية الدائمـة عـن طريـق العنف بل بتوعية الأمة حتى تأتيها السلطة طوعا لا كراهية، واختيارا لا إجبارا.

والعنف لا يولد إلا العنف سواء من الدولة ضد الجماعـة الدينية أو من الجماعة الدينية ضد الدولة، جهد ضائع، وأمـة تأكل بعضها بعضا، وقتال على السلطة، وحـروب أهليـة، وانقسامات وفتن، إن العنف استباق للأحـداث، واصـطناع للثورة، يخيف الأغلبية، ويشكك الناس في الثورة أكثر مـن

اطمئنانهم لها. لا يقدر عليه كل فرد، ولا تحبذه كل جماعة، ولا ترضاه كل حضارة.

٦. لا يحدث التغيير الثوري في جيل واحد بل قد يستغرق عدة أجيال. المهم أن يعرف كل جيل دوره في الثورة وفي أية مراحل الثورة هو يعيش حتى لا يقوم بدور لم يحن بعد وحتى لا يعيش حياة جيل لاحق ويفقد حياته ويضيع دوره. قد لا ترى أجيالنا الحاضرة الدولة الإسلامية التي ضاعت منذ صدر الإسلام ولكننا الممهدون لها، إذ لا يمكن القضاء على تخلف عدة قرون تبلغ الألف عام في قرنين من الزمان منذ بدأنا حركاتنا الإصلاحية الأخيرة. ولكن عذر الشباب أنهم يتصورون أنهم شيوخًا عاشوا سنينًا طويلة أو أحفادا يعيشون قرونًا تالية. وفرق بين الحلم واليقظة، وشتان ما بين التمني والواقع. فالزمن هو مادة الثورة وحركاتها ومقياس فشلها أو نجاحها. فلا توجد ثورة خارج التاريخ، ولا يوجد تاريخ بلا مراحل.

أولاً: مؤلفات أبي الأعلى المودوي[٧٦]:

١. الحكومة الإسلامية، نقله إلى العربية أحمد إدريس، المختار الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٧٧.

٢. منهاج الانقلاب الإسلامي، تعريب محمد عاصم الحداد. دار الفكر.

٣. الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية. تعريب محمد عاصم الحداد، مكتبة الشباب المسلم.

٤. نظرية الإسلام السياسية، تعريب محمد عاصم الحداد، دار الفكر، دمشق.

٥. مسألة ملكية الأرض في الإسلام. تعريب محمد عاصم الحداد، مكتبة الشباب المسلم.

٦. تدوين الدستور الإسلامي. دار الفكر.

---

[٧٦] نأسف لعدم ذكر مؤلفات المودودي كما يجب بذكر اسم المترجم، والطبعة، ودار النشر، ومكان النشر، والسنة، بل ذكرنا فقط الموجود منها على أغلفة الكتب أو بداخلها.

٧. القانون الإسلامي وطرق تنفيذه، تعريب محمد عاصم الحداد، دار الفكر.

٨. مبادئ الإسلام، دار الأنصار، القاهرة.

٩. تذكرة دعاة الإسلام. دار الأنصار، القاهرة.

١٠. دور الطلبة في بناء مستقبل العالم الإسلامي، دار الأنصار. القاهرة.

١١. الجهاد في سبيل الله، دار الاعتصام، القاهرة.

١٢. نحن والحضارة الغربية، دار الفكر.

١٣. واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم تعريب محمد عاصم الحداد، مكتبة الشباب المسلم.

١٤. الإسلام والمدنية الحديثة، المختار الإسلامي.

١٥. الإسلام اليوم، دار التراث العربي.

١٦. الحجاب، دار التراث العربي.

١٧. الذبائح، المختار الإسلامي.

١٨. حركة تحديد النسل، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٦٥.

١٩. حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، دار الفكر.

٢٠. المبادئ الأساسـية لفهـم القـرآن، دار التـراث العربي.
٢١. تفسير سورة النور، دار الاعتصام.
٢٢. الإسلام والجاهلية، لجنة الشباب المسلم.

ثانيا: مؤلفات أخرى لابي الأعلى المودودي:

١. المصطلحات الأربعة في القرآن، مكتبـة الشـباب المسلم.
٢. البيانات، مكتبة الشباب المسلم.
٣. أسس الاقتصاد بين الإسلام والـنظم المعاصـرة، مكتبة الشباب المسلم.
٤. نظرية الإسلام الخلقية، مكتبة الشباب المسلم.
٥. نحو الدستور الإسلامي، مكتبة الشباب المسلم.
٦. الدين القيم، مكتبة الشباب المسلم.
٧. معضلات الاقتصاد وحلها فـي الإسـلام، مكتبـة الشباب المسلم.
٨. نظام الحياة في الإسلام، مكتبة الشباب المسلم.
٩. المسألة القاديانية، مكتبة الشباب المسلم.

١٠. شهادة الحق، مكتبة الشباب المسلم.

أثر الإمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة

بالرغم من ظهور الفكر أولاً في ظروف اجتماعية معينة ومرحلة تاريخية محددة ثم استقلاله عنها ثانيا واحتوائه على أبنية خاصة به تصبح واقعا جديدا له وأساسا يرتكـز عليـه حتى أنه ليصبح موجها لسلوك الناس ومنبعـا لتصـوراتهم للعالم ألا أنه يمكن أن يتطور وطبقًا للظروف النفسية التـي يمر بها المفكر اعتدالاً أو تطرفًا، هدوء أو حدة، شـمولاً أو تركيزا. فالأديب والمصلح والفيلسوف والسياسي، كل مـنهم ابن وقته، ووقته جماع عصره وتجربته. فـإذا كـان مـن الصعب إن لم يكن من المستحيل تغيير العصـر فإنـه مـن الممكن تغيير الظروف النفسية التي يعيشها المبدع عن طريق

تهيئة المناخ الفكري الملائم الذي يسمح بحرية التعبيـر دون المنع والقهر أو الإدانة والعزل النفسي أو البدني(٧٧).

وأفضل المناهج في هذه الحالة الـذي يتتبـع الظـروف النفسية التي يمر بها المفكر خلال مراحل عمره هو المـنهج النشوئي الارتقائي الذي يتتبع تكـوين المفكـر مـن خـلال المواقف النفسية والظروف الاجتماعية التي ولدتها(٧٨).

وسنعتمد على تحليل فكر الإمام الشهيد على معظم مؤلفاته وإرجاعها إلى المواقف النفسية والاجتماعية التي مر بها دون الاعتماد على المواد الثانوية مثل كتابات الآخـرين عنـه أو رؤيتهم له أو حتى سيرته الذاتية الخاصة وحياته الشخصـية نظرا لما يمتاز به من اتساق بين حياتـه الخاصـة وحياتـه

---

(٧٧) المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، وحدة بحث السـلوك الإجرامي القسم الثالث من ندوة (الحركـات الاجتماعيـة المتطرفـة" (الحركات الدينية)، القاهرة ١٩٨٠.

(٧٨) من هذا النوع دراستنا عن "اثر أبـي الأعلـى المـودودي علـى الجماعات الإسلامية المحاصرة. المركزالقومي للبحـوث الاجتماعيـة والجنائية، وحدة بحوث السلوك الاجرماي، ندوة الحركات الاجتماعيـة المتطرفة، اكتوبر ١٩٧٩.

العامة، ووحدة بين النظر والعمل. وليس الهدف من ذلك هو إعطاء سيرة فلسفية شاملة بل أثره على الجماعات الإسلامية المعاصرة. كما سنعتمد على فهم فكر مبنيى على الملاحظـة المباشرة والتجارب المعاشة. ومما يسهل ذلك انتسابنا جميعا إلى جيل واحد يجعل المؤلف يحلل الموقف كله مـن خـلال وحدة تجربة الدعوة الإسلامية في عصر الثورات الوطنيـة الاشتراكية وهي التجربة التي مازالت مستمرة حتـى الآن. فان كنا في الربع قرن الماضي قد عاصرنا المـد الـوطني الثوري وانحسار حركة الدعوة الإسلامية فإننا نعاصر منـذ عدة سنوات انحسار حركة المد الـوطني الثـوري وعـودة حركة الدعوة الإسلامية إلى المد من جديد.

ويمكن التعرف على أربعة مراحل في فكر الإمام الشهيد تعبر عن تطوره الروحـي: المرحلـة الأدبيـة، والمرحلـة الاجتماعية، والمرحلة الفلسفية، والمرحلة السياسية. وهي في نفس الوقت مراحل تعبر عن تاريخنا الثقافي منذ أكثر مـن نصف قرن ساهم فيها الأم الشهيد. فقد كان جزءا منها مثـل طه حسين والعقاد. وهي مراحل متداخلة فيما بينهما ولكنهـا تتمايز بالطابع العام الذي يغلب على كل منهـا. كمـا أنهـا

تتفاوت فيما بينها في الطول والقصر أطوإلها الأولى المرحلة الأدبيـة (١٩٣٠ – ١٩٥٠). وأقصـرها الثانيـة المرحلـة الاجتماعية (١٩٥١ – ١٩٥٤) بعد أن وأدتها وهي في المهد الثورة المصرية. ولو لم تندلع الثورة المصرية فـي ١٩٥٢ وبداية الصراع بين الأخوان والثورة على السلطة وليس على المبادئ الثورية الست لامتدت المرحلـة الاجتماعيـة حتـى ابتلعت قوانين يوليو ١٩٦١، وطوت فـي داخلهـا مرحلـة التحول الاشتراكي (١٩٦١ – ١٩٦٤) في الثورة المصرية، وطورتها وعمقها وأصلتها، وحافظت عليها، ودافعت عنهـا، ولكتب لها الاستمرار والدوام، ولأصبح سيد قطب ليس فقـط من أمثال الصحابة الأوائل عمرو بـن الخطـاب وأبـي ذر الغفارى بل أيضا من دعائم الثورة التحررية العالميـة مـن أمثال ماركس، وماوتسي تونج، وهوشى منه، وغرامشـى، وجيفارا، ولكن حلقة الاتصال بين ثوارنا القدماء المحـدثين مثل الأفغاني، والسلطان جالييف، والإمام الخمينـي. ولكـن الإمام الشهيد راح ضحية هذا الصراع بين الأخوان والثورة.

كما أن هذه المراحل تتفاوت فيما بينها من حيث التطـور والوقوف ثم النكوص والارتداد. فهناك تقدم وتطور فعلى من

المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية. ولكن هناك توقف في المرحلة الثالثة، المرحلة الفلسفية (١٩٥٤ – ١٩٦٢)، التي تمت بين جدران السجون والتي تحولت فيها "معركة الإسلام والرأسمالية" إلى "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" أي تحولت معارك الإسلام عن النضال الاجتماعي إلى عرض نظري خالص للإسلام. ثم حدث نكوص من المرحلة الفلسفية إلى المرحلة السياسية في (١٩٦٣ – ١٩٦٥) إبان موجة الاضطهاد الثانية للأخوان والتي بلغت ذروتها في آخر عام عاشه الشهيد عندما تحول "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" إلى "معالم في الطريق" وانتقاء فقرات طويلة من "في ظلال القرآن" وقد تم معظمه بين جدران السجون، بالإضافة إلى بعض تجارب السجن الفكرية التي تعبر عن "فكر المضطهدين". حينئذ برزت أفكار الألوهية والربوبية والحاكمية والدينونة والطاعة، وتم التعارض بين الإسلام والجاهلية حيث لا بقاء لأحدهم ألا بقضاء الآخر. وهنا يبدو أثر أبي الأعلى المودوي عليه. ومن هذه المرحلة فقط خرجت جميع الحركات الإسلامية المعارة سواء التي استعملت العنف في حادثة الفنية العسكرية أو مقتل الشيخ

الذهبي أو تلك التـي تسـتعمله الآن فـي حـرم الجامعـة ومدرجاتها أو تلك التي ستستعمله فيما بعد وتعد لها نفسـها الآن خارج الجامعة على نطاق النظام الاجتماعي ككل.

أولاً: المرحلة الأدبية (١٩٣٠ – ١٩٥٠):

وهي أطول المراحل الأربعة والتي يبدو فيهـا المؤلـف جزءا من الحركة الثقافية والأدبية التي كانت عم البلاد فـي هذه الفترة[٧٩]. ويتفاوت إنتاجه فيها بين النقد الأدبـي مثـل "مهمة الشاعر في الحياة" عام ١٩٣٢[٨٠] أو "النقـد الأدبـي، أوصوله ومناهجه" عام ١٩٤٧[٨١] وبين الإنتاج الأدبي فـي

---

[٧٩] لم نستطع للاسف الاطلاع على "نقد كتاب مسـتقبل الثقافـة فـي مصر" الذي نفذ ولا يوجد بالمكتبات الوطنية العامة مثل كـل مؤلفـات سيد قطب. وهو يدل على نشاط المؤلف في الحركة الثقافية ورفضـه اتجاه "التغريب" الذي مثله طه حسين في ذلك الوقت.

[٨٠] هي محاضرة ألقاها سيد قطب وقدم لها الاستاذ/ محمد مهدي علام استاذ التربية في دار العلوم في ١٩٣٢/٢/٢٨.

[٨١] هناك أيضا النقد الادبي التطبيقي مثل "كتب وشخصيات" (١٩٤٦) الذي لم نستطع الاطلاع عليه والذي يتحوتي في غالـب الظـن علـى

=

الشعر مثل "الشاطئ المجهول" عام ١٩٤٣[٨٢] وفي الروايـة مثل "المدينة المسحورة "أشواك". "الأطياف الأربعة" أو فـي السيرة الذاتية مثل "طفل من القرية" عام ١٩٤٥[٨٣] وقد تـم تتويج هذه المرحلة باكتشاف الجانب الفني في القرآن وذلـك في "التصوير الفني في القرآن" عام ١٩٤٥ ثم تطبيق النظرية في "مشاهد القيامة في القرآن"[٨٤]

مراجعات ومقالات. كما أعلن عـن مجموعـة ثانيـة "لحظـات مـع الخالدين". وهناك بعض المقالات التي شنرت أغلب الظن في منتصف الاربعينات مثل "منهج الادب"، "الإسلام حركة شاملة في الفن والحياة" وقد نشرنا في "التاريخ، فكرة ومنهاج" ص ١١ – ١٢، ص ٢٢ – ٢٩.

(٨٢) أعلن سيد قطب في الطبعة لكتابه "العدالة الاجتماعية في الإسـلام" عن ديوان آخر "حلم الفجر" ولكن يبدو أنه لم يصدر.

(٨٣) لم نستطع للاسف الاطلاع على الأطياف الأربعـة التـي كتبهـا بالاشتراك مع اخوته الثلاثة (دار المعارف) أو على "افـراح الـروح" (دار الشروق).

(٨٤) نظرا للطبعات الأولى التي نفذت أو التي لا يوضع عليهـا تـاريخ الطبعة (نظرا للطبعات التجارية التي تمت بعد ذلك الشرعية منها وغير الشرعية والتي لا يوضع عليها أيضا تاريخها أو تاريخ الطبعة الأولى، فانه يصعب معرفة تاريخ نشرها بالدقة، وقد استعملنا الاستدلال للتغلب

=

كانت الإحساسات الأدبية والفنية هي الطاغية على التصورات العقلية والاهتمامات الوطنية والاجتماعية السياسية. ويبدو أن الشعر كان أعلى الفنون. وهو بمثابة المنبع الأول للفكر. فالشاعر فيلسوف. يحس ويشعر ثم يعبر ويصوغ مرة بالصورة فهو شاعر، ومرة بالتصور فهو فيلسوف. فالشاعر مصور. تقوم الصورة لديه على الخيال وتعتمد على التناسق. وهو قادر بالخيال على الاحساس بالحقيقة، حقيقة الإنسان والحياة والكون. وهو الشاعر الصادق في مقابل الشاعر الزيف الذي لا يبدأ بالتجربة الوجدانية. صحيح أن للبيئة في التذوق والخيال، ومع ذلك فالتجربة الشعرية لها استقلالها الخاص.

بهذا التصور للشعر وضع سيد قطب أولى إنتاجه الأدبي وفيه بذور "التصوير الفني" وبدايات "التصور" للحياة والإنسان والكون دفاعا عن الأدباء الشبان ضد طه حسين

على هذه الصعوبة وذلك عن طريق هوامش الكتاب والاحالة إلى المؤلفات السابقة بالرغم من وجود هوامش أخرى يصعب معرفة مصدرها، هل هو المؤلف أم الناشر.

الذي ينكر عليهم إنتاجهم وموهبتهم، ومعطيا له نماذج شعرية من خمسة منهم بالإضافة إلى نموضج واحد للعقاد قائلاً لطه حسين "أنك تبحث عن الشاعر الشاب الذي نشـأ فـي هـذه الأعوام فعرف جماعة من الشـباب عـن شـوقي وحـافظ ومطران فلا تجده وعن الكاتب الشاب الذي ظهر فاسـتحدث مذهبا في النثر صرف بعض الناس عن هيكـل والمـازني والعقاد فلا تظفر به[85]. هنا يظهر سيد قطب مـدافعا عـن الخلق والإبداع الذي سيصبح فيما بعد لديه مرادفًا للإسـلام. وفي ديوانه الشعري الأول "الشاطئ المجهول" الـذي يضـم مجموعة أشعاره في ١٩٣٤ وبداياتها قبل ذلك بعشر سنوات تبدو الموضوعات الفلسفية والميتافيزيقية من خلال الوجـدان والإحساس الشعري بالزمان والخلود. يعقد مقدمـة للـديوان يتحدث فيها كناقد عن نفسه كشاعر وكأنه انقسم شطرين ذات وموضوع، مبينًا أن الشعر أوسع مجالاً من العلم والفلسـفة، عارضا لموضوعات الجسم والعقل والروح والزمن والوحدة ومستشرقًا المجهول. وفي نفس الوقت يتحـدث عـن ملكـة

---

[85] سيد قطب: مهمة الشاعر في الحياة ص ٨.

التصوير الفني وروح القصص، والحركة الداخلية، وموسيقى الشعر[٨٦].

وقد ظهرت كثير من الموضـوعات الميتافيزيقيـة مثـل الغربة والموت. فقد اعتاد الشاعر أن يتردد كثيرا على وادي الموت في أوقات مختلفة أكثر ما تكون عند مغرب الشـمس وقبل طلوعهـا[٨٧]. إلا أن ذلـك لـم يمنـع مـن ظهـور الموضوعات الاجتماعية أو السياسية. بل إن الشاعر يتغنـى في جبال ريف مصر(٨٨) وأنه سر بقائهـا ويطالـب لـه

---

[٨٦] سيد قطب: الشاطئ المجهول، مقدمة.

[٨٧] يقول مثلا بعنوان "غريب".

غريب أجل أنا في غربة — وان حف بي الصحب والاقربون
غريب بنفس وما تنطوي — وعليه حنيا فؤادي الحنون
غريب وان كان لا يزل — وجاور فيها الشكوك اليقين
ولكنها داخلتها الظنون — ببعض القلوب لقابى حنين

الديوان المذكور ص ٥١

[٨٨] يقول الشاعر:

اسلم فدتك مواهبي وحطامي — ياريف مصر وانت سر بقائها

- الديوان المذكور ص ٨٦.

بالسلامة. ولم يشر إلى الإسلام إلا مرة واحدة مقارنًا صورته بالجسم والـزمن والوحـدة إمـا بالنسـبية أو بالتصـوف الإسلامي[٨٩]. ولكن الموضوع الغالب هو للوطنيات بـالرغم من أنه أقل الأجزاء جميعا[٩٠]. وتدور الأشعار الوطنية حول مصر، والسودان، وفلسطين، والشرق، ومن الموضـوعات التي كانت سائدة أيضا عند شاعر النيل حافظ ابراهيم وفـي شعر العقاد[٩١]. فمصر في كبـوة مـن التسـلط والتخلـف والاستعمار آن لها أن تنهض من عثراتها، ويحثهـا الشـعر على النهوض بعد حادثه البدارى ومأمورها المقتول وسـجن أهالي البدارى، دنشواي الجديدة[٩٢] كما كتب الشاعر أشعارا

---

(٨٩) الديوان المذكور ص ٧.

(٩٠) ينقسم الديوان خمسة أقسام: ظلال، ورموز – صور وتـأملات – غزل، ومفاجأة، وطنيات.

(٩١) يشير الديوان إلى العقاد والحركة الأدبية في مصر، ص ٤٤.

(٩٢) منعت الوزارة نشر مقطوعة من ضمنها:

يا أيها الرفقاء بالحيوان لا ... تنسوا اناسا تئن وتألم

في مصر قد تلقى الكلاب رعاية ... بينما يحقر شعبها ويحطم

في مصر لا يلقى المسئ جزاءه ... لا بل يكافأ دونه ويكرم

=

في ذكرى سعد في ١٩٣٢ والثورة الوطنية المصرية. كمـا حاول الاستعمار فصل شطري وادي النيل والأمة في شـغل عنه بما هي فيه من نكبات عامة. وقد قام السيد العبيدة رئيس جمعية اللواء بتأليف جمعية على أثر إخراج الجيش المصري من السودان في ١٩٢٤، وقام يناضل عن وحدة وادي النيـل المقدسة في جرأة ورجولة وبطولة غيـر عـابئ بسـجن أو بتنكيل بلغ من وحشيته "أن يسجن الفقيد وهو سياسي!". كمـا عبر الشاعر عن صوت مصر الوطنية بعـد موافقـة وزارة وبرلمان صدقي على مشروع خزان الأوليـاء فـي ١٩٣٢. ونظم الشاعر نداء إلى البلاد العربيـة الشـقيقة فـي ١٩٣١ بمناسبة ثورة فلسطين وحوادثها الدموية. كما رثى شـهيدي الطيران على طليعة الضحايا في ١٩٣٢. وقد ظل صـراعه

في مصر لا يحفظ التاريخ من — فحش يعج بها وفحش يكتم
في مصر لو مصر بعض كرامة — غضبت وفار على جوانبها الدم
ماذا يعز على الهوان نصونه — لم يبق من حرماتنا ما تكرم
الموت! ياللموت! يا شرف شرعة — مما نسام به وما نسوم.
الديوان المذكور ص ٢٠٣ – ٢٠٥.

مع الصهيونية منذ ذلك الحين حتى استشهاده[٩٣]. ومصر هي درة الشرق ومركزه في مواجهة الغرب. فصيحة الأفغـاني وشعر حافظ يتكرران معا عند شاعر الوطنية[٩٤]

فلا غرابة إذن أن يكون أول مهد له هو "مصر الفتاة" في أواخر الأربعينيات.

أما "المدينة المسحورة"[٩٥] فهي مدينة عظيمة في مصـر القديمة تقع فيها فرصة حب وانتقام. وقد كان البحـث فـي مصر القديمة كمادة روائية طريق جيل كامل من الأدباء أثر دعوة الأفغاني مصر للمصريين وتحت تأثير الحركة الوطنية

---

[٩٣] ايه يا مصر عزاء انما — أنت اولى بالتحيات الوصفاء

[٩٤] يقول الشاعر:

الشرق ياللشرق تلك دماؤه — والغرب، ياللغرب يضويه الدم

مصر الفتاة وما تزال خفية — تهفو اليكم بالقلوب وتعظم

[٩٥] لم نستطع للاسف معرفة تاريخ صدور هذه الرواية ولكنهـا مـن بواكير انتاج سيد قطب، انظر محمد على قطب: سيد قطـب الشـهيد الاعزل.

المصرية[٩٦] وتأسيس الحزب الوطني وقيـام ثـورة ١٩١٩ ونضال مصر عند الاستعمار، وتحقيقًا للوطنية المصرية التي بدأها الطهطاوي ولطفي السيد وطه حسين والعقاد. ومع ذلك فالقصة موضوعة في قالب روائي إسلامي، قصة من ليـالي ألف ليلة وليلة، الليلة المائة بعد الألف، تقصها شهرزاد على شهريار. وتدور حول قصة حـب وتعتمـد علـى التحليـل الوجداني للمحبين مما يظهر فيما بعد في منطـق الوجـدان والتعبير الحسي عنه[٩٧] كما تظهر بعض الموضوعات الدينية مثل الخرافات والسحر والشعوذة والأقدار "حتى يقضـي الله

---

[٩٦] كتب نجيب محفوظ مثلا "كفاح طيبة"، "رادوبيس" وترجم لاردمان تاريخ مصر القديمة. وكان توفيق الحكيم من قبل قـد كتـب "عـودة الروح".

[٩٧] مثلا وضمت ساقيا المتفرجتين وذراعيهـا المتـراخيتين "المدينـة المسحورة ص ٢٣ أو بعض عبارات الاحساس بجمل المرأة مثل وهي تتمنى فيبدوا قوامها الفاتن ص ٩ أو وكانت قد نضجت أنوثتها وتفتحت رغباتها (ص ١٥) أو قول الام فأني اخشى عليها ما هو أشد من سلب الاغنام ص ١٩ وليس بين الرجل والمرأة حين يخلوان ذلـك الحـاجز المتوهم من الكهرباء أو غير الكهرباء.

أمرا كان مفعولاً" وتحقق النبوة والإلهام[٩٨]. كما تظهر صورة الطريق بين عهدين، وهي الصورة التي لم يخـل منهـا أي عمل من أعماله والتي أصبحت فيما بعد عنوانًا لمؤلفه "معالم في الطريق" الذي دفع حياته ثمنا له[٩٩]. كما تظهـر بـدايات أفكار ستصبح فيما بعد نقدا للغرب مثل ضرورة إشراف الأم على تربية الأطفال فان "إشراف الأم لا يعدله إشـراف"[١٠٠]. وتظهر أيضا بذور "التصور الإسلامي" خارجة مـن الأدب مثل الحديث المستمر عن الحلم والواقع وعدم الفصل بينهما، وبيان أهمية الحلم والخيال "لأن الحياة بلا خيال نـوع مـن التحجر"، ولأن الإنسان لن يصل إلى شـيء إلا بالوجـدان والخيال والأحلام، ولأن الواقع الأصيل لن يحصـره إدراك فرد وهو ما سيصبح فيما بعد "التصور الإسلامي"[١٠١]. ولكن

---

(٩٨) المصدر السابق ص ٤٣ – ٤٤، ص ٦٧.

(٩٩) المصدر السابق ص ٣١، ص ٦٦.

(١٠٠) وسيجد هذه الفكرة فيما بعد في كتاب أنـا فرويـد وزميلتها "أطفال بلا أسر" المصدر السابق.

(١٠١) المدينة المسحورة ص ١٠ – ١١.

الواقع أيضا طرف للخيال. فالإنسان يحس أيضا بشوق إلـى الحياة في الأرض والعودة إلى الواقع[١٠٢]. وإذا كان السـحر قد جسد الحياة وأوقف الزمان[١٠٣] فإن الحب قد أعاد الحيـاة وحرى الزمن. والزمن والتطور والحياة والتجدد والحركـة بذور "التصور الإسلامي". ويظهر التناسق الفني فـي بنـاء الرواية بين البطل والبطلة "الابنة والابن". فالرواية تقوم على فن هندسي متقن، وهو ما سيصبح فيما بعد أساس "التصـور الفني في القرآن". كما يبدو الصراع بين الخير والشر، بـين الحب والانتقام، بين الحياة والموت مع الإفاضة في تصـوير نزوع الخير لأن الأدب الإسلامي كما يقـول فيهـا بعـد لا يصور لحظات الضعف الإنسانية بل لحظات القوة والاكتمال. لذلك لم يبين المؤلف لماذا يعتى المدافعون عن المدينة، ومـا ذنب القتلى من المتفرجين على المدينة.

ولكن الأظهر في ذلك كله هو الجانب الاجتماعي. فالبطل والبطلة راعية غنم، فالحب لا يعرف التفرقة الطبقية وينتصر

---

[١٠٢] المصدر السابق ص ١١.

[١٠٣] المصدر السابق ص ٧٢.

على الملك في النهاية. وقد استبشر فريق وهلل لهذا الانقلاب وفي صميم نفسه شعور غامض بأن هذا تصرف إلهي يرفع من مقام الشعب ويزيل الفوارق بينه وبين أكبر الرؤوس في البلاد[١٠٤]. ثم تكون البطلة الأميرة ابنتهما والبطـل راعـي غنم، وينتصر الحب أيضا في النهاية على انتقـام الأميـرة الأولى المهجورة، وهو أميرة شريرة تحولت إلـى سـاحرة وفقدت حبيبها. وقد زعم فريق أن الأميرة كانت قد قسـمت على امرأة عجوز فقيرة رأتها تلوذ بحوائط القصر من الوابل المنهمر فأمرت بإبعادها عن القصر حتى لا تشهوه بمنظرها القذر[١٠٥] هذا الجانب الاجتماعي هو الذي سيستمر فيما بعـد المرحلة الأدبية كلها.

أما روايته "أشواك" فيبدو من الاهداء إلى رفيقـة عمـره التي انفصل عنه أنها تجربة شخصية مر بها الكاتب الأديـب تدور حول الصراع بين الإنسان والأدب، بين الحياة اليومية وحياة الإبداع، وإيثار رفيقة العمر أن يبقى لعمله الأدبي فهو

---

[١٠٤] المصدر السابق ص ٧٢.

[١٠٥] المصدر السابق ص ٤٤.

أدوم وأخلاد[١٠٦]. وهي قصة تدور حول فترة الخطوبـة بـين الحبيبين وتحليل نفس كل منهما بما فيها من عـزل وحـب وتوتر وغضب. ويأخذ الحب الرومانسـي صـورا حسـية ووصفًا للصدور والرؤوس والشعور[١٠٧]. كما يظهر موضوع الخيال والواقع من جديد مما يوحي بالتصوير الفني كمقولـة في النقد الأدبي فيما بعد[١٠٨]. ويمكن تلمس بعـض جـذور الموضوعات الدينية لديه مثل الحديث عن بيئتـه المحافظـة

---

[١٠٦] سيد قطب: أشواك ص ١٣٧.

[١٠٧] يقول مثلا "فاذا شفتاه تهويان على شفتيها فتستجيب له بكل ما فيها (ص٣٥ – ٣٦) صدرها الفاتن، صـدرها البـارز الفـاتن (ص ٤٥) نظرات اليه نظرة متوددة راضية تمازجها الفتنة والاغراء ولـو كـان النور مطفأ لصنع شيئا آخر (ص ٤٦) فاستجابت اليه في لين وإغـراء ولو في غير هذه اللحظة لارتكب الحماقة التي يشمئز منها طبعـه (ص ٤٨).

[١٠٨] "وما الفرق بين الخيال والواقع اذا كان كلاهما يستجيب له القلـب والذهن، ويترك آثاره في النفس والحياة؟ وما الفرق بين الحلم والحقيقة، وكلاهما طريق عابر يلقى ظله على النفس ثم يختفي من عالم الحـس بعد لحظات" ص ١٤٦، ١٤٨.

التي جعلته يقترب من الشعر والفن والخيـال ويرتبـك مـع المرأة أو مثل بعض التشبيهات الصوفية مثل "لقد خلا إلهيكل من الصنم المعبود، واسـتوحش الصـوفي مـن سـبحات الشهود[١٠٩]. وقد يكون موضوع الرواية كلهـا وهـو ثقـل الماضي في الحاضر أو الماضي الحي وأثر صـديق الفتـاة القديم على عواطف خطيها الحالي هـو البـذور لموضـوع التراث والتجديد، والدين والتطور[١١٠]. وتراث الأمـة الـذي مازال يعيش في قلوب الناس. ومع ذلك فإنـه يغلـب علـى الرواية التحليل النفسـي للفـرد. ولا أثـر فيهـا للجوانـب الاجتماعية أو التصورات الإسلامية. كما أنها انتهت نهايـة مأساوية وهي القطيعة والانفصال بين الحبيبين على عكـس التفاؤل الإسلامي.

أما "طفل من القرية" فإنه سيرة ذاتية للمؤلف في طفولتـه المبكرة منذ أكثر من ربع قرن أيام الكتاب والمدرسة وقبـل الرحيل إلى القاهرة مثل "الأيام" لطه حسين ومهداة إليه. بهـا

---

(١٠٩) أشواك ص ١٢٣.

(١١٠) المصدر السابق ص ٨٩، ٩٥.

اختلاف واتفاق مع مثل الخـلاف والاتفـاق بـين الأجيـال والطبائع وللحياة والاتجاه[١١١]. ويتجـاذب السـيرة جانبـان: الجانب الديني والجانب الاجتماعي.

ويظهر الجانب الديني في دين القرية الـذي يتمثـل فـي تصوف المجذوبين والإيمان بالعفاريت والأوليـاء، فلاعـب الجمباز مثل المجذوب. ولكن يبرز الدين العلمي علـى يـد المدرسين الشبان فيحدث التقابل بين الخرافة والعلـم: بـين العلاج عن طريق العفاريت والتمائم وكتابات سليمان وآيـة الكرسي أو الصمد وذكر الله الاعظم لطرد العفاريت الشريرة التي تختفي في شهر رمضان وبين الطب والعلم الحديث. بل يقوم المدرس الشاب مع الأطفال بتجربة علمية يذهب فيهـا إلى المكان المسكون، رواق المنـزل القـديم التـي سـكنها

[١١١] لم يكن سيد قطب كشاعر وقصاص وناقد فريد في جيله بل كـان وزملاؤه في لجنة النشر للجامعيين التي نشرت "طفـل مـن القريـة"، "الأطياف الأربعة"، "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، يمثلون نفس التيار مثل عبد الحميد جودة السحار، نجيب محفوظ، علـى أحمـد بـاكثير، محمود تيمور، ابراهيم المازني، كامل الكيلاني، ابـراهيم المصـري، وداد سكاكيني، أمين يوسف غراب.. الخ.

الأرانب ويظنها الناس عفاريت لإثبات أن هـذه العفاريـت خرافة أساسها الجهل وقصص مكذوبة لـبعض الاغـراض الدنيوية حقيقة أو متوهمة ثم دور الخوف والرعب في الإيهام وتحويل الحقيقة إلى وهم. كما يظهر الدين في أسلوب الكتاب في تحفيظ قواعد اللغة والقرآن دون فهم أو تذوق والصـراع بين الكتاب والمدرسة واعتماد الكتاب على حفظ القرآن دون فهم أو تذوق والصراع بين الكتاب والمدرسة واعتماد الكتاب على حفظ القرآن وأهمال المدرسة له ومحاولة المؤلف الجمع بين الحسنيين حفظ القرآن في الكتاب وفهمه فـي المدرسـة واكتشاف الكتابة والمدينة، وحب الثقافة والكتـب، وتـذوق الطبيعة، وتشخصي النهر بعد الفيضـان "مسـكين خـلاص همد"، وتفويض الأمور إلى الله "الأمر لله" كما يؤمـل أهـل القرية دون أن تظهر الحاكمية بعد.

وارتبط الدين أيضا لديه بالوطنية فقد حفظ رسالة لعمـرو بن العاص وصف فيها مصر والفيضـان. وتـأثر بالنـاظر الشاب وهو يفيض وطنية ويتحدث عن عباس الشيخ وعبـد العزيز جاويش ومحد فريد وأنور باشـا التركـي وطلعـت رؤوف وشقيقته حمدية التي أذاقت الحلفاء الويل فـي نهايـة

الحرب العظمى الأولى. وكان الطالب يقرأ دواوين شعراء الوطنية مثل ثابت الجرجاوي وكتب التاريخ كمادة وطنية. ولما اندلعت ثورة ١٩٢٩ وقف الناظر أمام التلاميذ والقى عليهم خطبة نارية وطنية، وأغلق المدرسة إلى أجل غير مسمى لأنه ذاهب هو وزملاؤه للعمل في الثورة. فالثورة واجب على كل إنسان، إنطلق حماس الطالب، يكتب الخطب، ويقرض الشعر، ويلقى ذلك في المجامع والمساجد لينفخ روح الثورة في الجميع فصاروا يستمعون لكل هاتف بالثورة. وكان الاسم المقدس الجديد لديهم هو سعد زغلول(١١٢).

أما الجانب الاجتماعي فإنه يظهر في تصور فقر الريف وترف الأغنياء حتى لقد علم وهو في هذه السن ما يجب أن يبقى وما يجب أن يزول. فلقد أحس أنه سارق سارق لهؤلاء الغرب (الأجراء الزراعيين) وأمثالهم من الملايين التي تنبت الذهب في الوادي ونجوعه. ولو كان في الوادي قانون عادل لقداه إلى السجن قبل أولئك الكثيرين الذين يحسبهم القانون لصوصا ومجرمين. لقد ظل هذا الشعور يعاوده أبدا كلما

---

(١١٢) سيد قطب: طفل من القرية ص ١٣٨.

جلس يتناول طعاما دسما أو فاكهة لذيذة أو حلوى أنيقـه أو يتمتع بأيسر مباهج الحياة بين ملايين المحرومين. لقد علـم أشياء وأشياء ولم يتبين عمق آثارها في نفسه وقسوة وقعهـا على حسه ألا وهو يسترجعها الآن في الحـين بعـد الحـين فيشعر في قرارة نفسه بالخجـل ويحـس لنفسـه ولشـعبه بالازدراء. عرف قحط النهر، وارتباط الفـلاح بـالأرض، وإقامة المأتم يوم بيعها. عرف أغلاب الزمان فـي الريـف: غلاب الفقر، غلاب الحرمان، غلاـب الجـور مـن الحكـام: الضريبة، مطالب العمدة: تلبية الأوامـر الحكومـة: تـذاكر الجمعية الخيرية والهلال الأحمر والإسعاف: سخرة الجسور، وتنقية الدودة في مزارع الأثرياء وتفاتشيهم خارج القريـة، ومكافحة الجراد، وغلاب الكدر المتواصـل..[١١٣] عـرف أن الذين يعملون أُجراء زراعيين غرب – لا يربطهم بالقرية لا الدين لا القومية ولا الجنس: وهو ما سيظهر فيما بعد علـى أنه الأمة الإسلامية. عرف قلب التقاليد وبخاصة فيما يتعلـق بالمرأة التي لا ترتفع في نظر الرجل عن السلعة. فإذا كـان

[١١٣] المصدر السابق، المقدمة ص ١٩١.

بيت أهلها مازال مفتوحا فهي محترمة إلى حد ما لأن هناك ما لا ينتظرها. أما إذا خرب بيت أهلها فهنا تعاني من الذل والتحقير ما يحيل حياتها ظلاما في ظلام. وعندما تبلغ سن الثلاثين يجب أن تحتشم دون زينة فتقتل طبيعتها. لذلك سيظهر الإسلام فيما بعد كعدالة اجتماعية وأخذ حقوق الفقراء من الأغنياء وكتحرير المرأة المسلمة.

ويمثل "التصوير الفني في القرآن" ثم "مشاهدة القيامة في القرآن" نقله من الأدب إلى الدين واكتشاف العنصر الفني في الدين قبل أن يكتشف فيما بعد الأبعاد الاجتماعية والفلسفية والسياسية. ويقوم على تجربة شخصية منذ سماع القرآن في القرية في كنف أمه التي يهديها "التصوير الفني" كما أهدى "مشاهد القيامة" إلى روح أبيه، وكما أهدى ديوانه "الشاطئ المجهول" إلى أخيه. وينقد تفسير الأساتذة الذي لا ذوق فيه، ويعتمد على التجارب الإنسانية الشعورية والتأثر الوجداني، ويعطي التفسير الشعوري معتمدا على التذوق الفطري وتشخيص الانفعالات الإنسانية ويصغ نظرية في التصوير الفني الذي يعتمد على التخيل الحسي والتجسيم مركزا على أغراض القصة وهو أحداث الأثر النفسي المطلوب وليس

وصف حقائق مادية بالتفسير الحرفي للنصـوص فالآيـات تحمل مثلاً يضرب وليس حادثًا يقع. وقد شغل القدماء أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنـى ولـم يلمسـوا قضـية التصوير الفني "بالرغم من اقتراب البعض منه مثل الجـاحظ وابن قتيبية وقدامة وأبو هلال العسكري وأخيرا عبد القـاهر الجرجاني الذي وضع نظريته في التخييـل". وقـد اقتصـر "التصوير الفني" على الجانب الأدبي دون التعرض للمسـائل الاجتماعية مثل العدالة الاجتماعية أو الفلسفية مثل التصـور الإسلامي أو السياسة مثل الحاكمية.

أما "مشاهد القيامة" فهي تطبيق لنظرية "التصوير الفنـي" على موضوع ميتافيزيقي خالص وهي الأخرويات، البعـث، واليوم الآخر، والجزاء والعقاب مبينا أثرها في الشـعور أو كما يقول المؤلف "العالم الآخر في الضمير البشري" وواضعا إياها في إطار تاريخ الأديان المقارن الذي يجمـع علـى أن الأخلاق هو أساس الجزاء والعقاب. ومع ذلك لم يظهر البعد الاجتماعي والسياسي لهذه المشاهد. كما لم يظهر بناء فنـي واحد لهذه المشاهد كلها بدل عرضها حسب الترتيب الزمني للسور. ومع ذلك فيبدو أن قضية التصوير الفني كانت تـدل

على شجاعة الفكر والتمسك بحرية النظر دون ادنى مجافـاة للدين. كما تدل على أن المؤلف كان مقدما على عصره الذي مازالت تسود الحرفية والتفسير المادي للنصوص.

وأخيرا يمثل "النقد الأدبي، أصـوله ومناهجـه" اجتمـاع الأدب والدين ومحاولة إيجاد نظرية في النقد الأدبـي تضـم منهجه في الأدب واكتشافه للجانب الأدبي فـي الـدين فـي موضوع "التصوير الفني في القرآن". ينقد التراث محـاولات تطويره وفهمه وتأصيلاً للتصوير الفني على عكس ما سيفعل فيما بعد في المرحلة الفلسفية من رفـض الفلسـفة والكـلام والتصوف. وينقد الأدب العربي القديم لأنه لا يسلك طريـق التركيز ولا يسلك طريق المشاهد والجزئيات فـي عـرض التجارب الشعورية ألا نادرا. همه صياغة التجربة الشعورية في حكمة أو قاعدة لا في مشاهدة وحالة[١١٤]. وكان يـنقص كثيرا من النقاد والعرب القدماء لا في مشاهد على الحركـة. وينقد قدامه لاقامته النقد على أسس فلسفية منطقية على عكس عبد القاهر الذي حاول الاعتماد على التحليل النفسـي. فقـد

---

[١١٤] سيد قطب: النقد الادبي، اصوله ومناهجه، ص ٤٩.

استطاع الإمام عبد القاهر الجرجاني أن يصل إلى نظرية التخييل. فهو لذلك يستحق اهداء الكتاب "إلى روح الإمام عبد القاهر أول ناقد عربي أقام النقد الأدبي على أسس علمية نظرية ولم يطمس بذلك روحه الأدبية الفنية، وكان له من ذوقه الناقد وذهنه الواعي ما يوفق به بين هذا وذاك في وقت مبكر شديد التبكير"[115]. وبالرغم من هذا الموقف النقدي من التراث فقد استطاع المؤلف أن يقدمه سهلا بسيطًا واضحا رافضا تقليد الغرب في النقد الأدبي، ومدافعا عن التأصيل في التراث القديم. ويستشهد بالأدب الشرقي ومؤلفات طاغور. ويعرض للحركة الأدبية لجيل بأكمله: العقاد: وطه حسين: والمازني وللشعر الحديث عند نازك الملائكة ويعتمد على الدراسات العلمية لمعاصريه في الإبداع الفني[116]. وظل التمايز الحضاري مقياسا للشعر ووضعه المتميز داخل كل

---

[115] المصدر السابق ص ٣، ويقتبس المؤلف نصا طويلا من "دلائل لاعجاز" ص ١٢٥.

[116] مثلا دراسات مصطفي سويف التي كانت صورة مقالات في مجلة علم النفس.

حضارة. ويدافع عن رأي العقاد في الأدب الشعبي الـذي لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة. وتظهـر الواقعيـة فـي الأدب وأهميتها وهي التي ستتحول فيما بعد إلى واقعيـة المـنهج الإسلامي على عكس مثل أفلاطون المجردة. كما يشير إلـى صراع الطبقات كحقيقة اجتماعية يحللها الاجتماعي وإن لـم تكن موضوعا مباشرة للأدب وإن حاول المؤلف فيمـا بعـد تجاوز الصراع الطبقي من أجل تغليب طبقة على طبقة إلـى تحرر الإنسانية جمعاء وهو التحرر الأشمل والأعم والأبقـى والأقرب إلى الكرامة الإنسانية، وهو مـا يسـميه المؤلـف المنهج التكاملي في الأدب الذي يأخـذ فـي الاعتبـار كـل العناصر المكونـة للعمـل: الأدبيـة والفنيـة والوجدانيـة والاجتماعية والإنسانية. صحيح أن الصراع محور الحركـة التطورية في الفن طبقًا للتفسير المادي للتاريخ ولكن الإسلام لا يعطيه كل هذه الأهمية لأن أهدافه أوسع وأرقـى، إنـه لا يرضى بالظلم الاجتماعي ولا يقره ولا يدعوه النـاس إلـى الرضا به بل يدعوهم إلى مكافحته لتطوير البشرية.

ويركز المؤلف على أهمية القيم الشعورية والقيم التعبيرية في العمل الأدبي ويستشهد بالقرآن ويكتشف التصوير الفنـي

من جديد ويستشهد بمقتطفات طويلة منـه لضـرب المثـل بموسيقية الألفاظ ولبيان وظيفة الصور والظـلال والايقـاع ومقدار اشتراكها في الدلالة الأدبية وفي تصوير الجو العام. فالسمة الأولى للتعبير القرآني اتباع طريقة تصوير المعـاني الذهنية والحالات النفسية وإبرازها في صور حسية.

ولكن الأهم من ذلك هو بداية الربط بين الأدب والتصور فالأدب في كل حضارة مرتبط بتصورات هـذه الحضـارة وقيمها. ويمكن للناقد أن يتذوق العمـل الأدبـي ويـرفض التصور الذي يقوم عليه. والإسلام أدب وتصور يقوم عليـه هذا الأدب. فمن الصعب فصل الأدب عن التصـور الكلـي للحياة وهو الإسلام. فالإسلام عقيدة وحركة لتطوير الحيـاة وتجديدها. فمثلاً لا يحفل الأدب الإسلامي إلا بقوة العنصـر وليس بضعفه ولا سلبيته. الإسلام لا يحارب الفنون ولكنـه يعارض بعض التصورات والقيم التي تعبر عنها هذه الفنون، ويقيم مكانها تصورات أخرى. فالإسلام تصور تنبثـق منـه قيم. وبالتالي فالأدب الإسلامي عقيدة ضخمة هائلة جادة فعالة خالقة منشئة تملأ فراغ النفس والحياة وتستنفذ الطاقة البشرية في الشعور والعمل وفي الوجدان والحركة فلا تبقـى فيهـا

فراغًا للقلق والحيرة والتأمل الضائع. أبرز ما فيه الواقعيـة العلمية حتى في مجال التأملات والإشراق. جـاء الإسـلام لتطوير الحياة وترقيتها وليس للعرض في زمـان أو مكـان معين لو لمجرد تسجيل ما فيهـا م، دوافـع ونزعـات[١١٧]. الإسلام حركة إبداعية شاملة في الفن والحياة. على عكـس مثالية الغرب ستكون واقعية الإسلام. قرأ الجيل الأول مـن الصحابة القرآن وكان هدفهم تطوير الواقع لا ترقيعه. الأدب الإسلامي أدب موجه يحمل فكرة فهوصاحب رسالة[١١٨]. ولا نهضة للأمة إلا بالبعث الإسلامي وليس كما يلجأ البعض إلى الشرق أو إلى الغرب أو إلى الفرعونية المصـرية القديمـة. وهكذا يكاد سيد قطب ينتقل من المرحلة الأدبية إلى اكتشاف

---

[١١٧] سيد قطب: منهج الادب في "التاريخ، فكرة ومنهـاج" ص ١١ – ٢١.

[١١٨] سيد قطب: الإسلام حركة ابداعية شاملة في الفن والحياة، المصدر السابق ص ٢٢ – ٢٤.

الإسلام ذاته كتصور وكتقدم في التاريخ كما حدث بعد ذلـك في المرحلة الفلسفية[١١٩].

من هذا العرض للمرحلة الأدبية يمكن استنتاج الآتي:

١. بدأ سيد قطب حياته شاعرا، أديبا، روائيا، ناقـدا، وكان مدخله إلى الدين هذا المدخل الأدبي الفني. وعرف "التصور الفني" وتذوق القرآن وما يحدثه في النفس من إبداعات وانطباعات جمالية. ولكن للأسف لم تتأثر الجماعات الإسلامية المعاصـرة بهذه المرحلة نظرا لفقدانها الاحساسات الأدبيـة والجمالية بل ووقعت في حرفية تفسير النصوص وملئها بشحنة من الغشب والتمرد والقسـوة. وإن كان لديهم بقايا من شعر أو قصة فإنه يعبر تعبيرا

---

[١١٩] أطلنا في هذا الجزء عن المرحلة الأدبية نظرا لأنه غير معروف أطول مرحلة عاشها ولا يجب اسقاطها عن الحساب في مقابل المرحلة السياسية التي ظهر فيها "معالم في الطريق" والتي دفع حياته ثمنا لهـا ونظرا لانها المرحلة التي لم تتأثر بها الجماعات الإسلامية المعاصـرة بل تجهلها تماما. وان عرفتها فهي تتنكر له باعتبارهـا حـدثت قبـل التحول الإسلامي.

مباشرة وفجا عن الصراع بين الإيمان والكفـر، والإسلام والجاهلية، ويكون أقرب إلـى الدعايـة والموعظة وأدب المناسبات. عرف سـيد قطـب الإسلام من خلال الأدب والفن وتبنت الجماعات الإسـلامية الإسـلام تحـت ظـروف نفسـية واجتماعية، تحول الإسلام فيها إلى "أيديولوجيـة المضطهدين" وبالتالي يمكن التخفيف من أثر هذه الجماعات على حياتنا المعاصرة وذلك بـالتركيز على الجوانب الأدبية والفنية فـي الـدين وأثـر الصورة الفنية فـي توجيـه سـلوك المـؤمنين. فالعاطفة الدينية هي عاطفـة جماليـة ينقصـها الصياغة الفنية ويحل محلها التعصب والهـوى. ويكون تشجيع حركة الأدباء الشـبان وتأسـيس الجماعات الأدبية في الجامعات: وإصدار مجلات للشعر والقصة المقال الأدبي كوسـيلة لتعريـف الانفعالات الدينية بأسلوبها الطبيعي وهو الأسلوب الأدبي، وإن صورة حسان بـن ثابـت "شـاعر الرسول" ليس ببعيد.

٢. كان سيد قطب في أدبه شاعر الحب والغزل. ولم يجد حرجا في وصف مفاتن البدن وما يشعر به المحبين لشوق اللقاء والعناق والقبلات. ولكن الجماعات الإسلامية نظرا لتطهرها الظاهري وحرمانها وكبتها نظرا لما يسود المجتمع من محرمات على رأسها الجنس تضع كل ثقلها في الغطاء والحجاب، وفصل الطلبة عن الطالبات. تسقط التصور الجنسي للعالم نتيجة للتخلف والحرمان والكبت ثم تغطيه وتحجبه عن طريق التزمت الخارجي والإشباع الجنسي عن طريق العداء للمرأة وبوتقتها ووضعها على أريكة أمام الجميع أقرب لما يفعله العراة ولكن على نحو مقلوب. وبالتالي يمكن للحياة الاجتماعية المشتركة والسلوك السوي، والتعبير العلني عن عواطف الحب والاعجاب المتبادل والاعتراف بمكونات الفطرة وبمظاهر الجمال في الخلق يمكن لذلك كله أن يقضى على المحرمات فتخرج من السر إلى العلن بدل أن يموت الانقلاب من

الضد إلى الضد في حياة أفراد الجماعة من الله إلى التجارة، ومن التزمت إلى الأباحية، ومن التقوى إلى النفاق.

٣. كان سيد قطب جزاء من الحركة الثقافية والنقدية في مصر منذ الثلاثينات حتى أواخر الأربعينيات حيث ازدهرت المجلات الثقافية والنقدية في مصر منذ المعارك الفكرية والأدبية، وكان سيد قطب من النابغين الشبان الذي فرض نفسه على الحركة الأدبية والثقافية في مصر. ولكننا لا نجد الجماعات الإسلامية أي أثر على حياتنا الثقافية والأدبية بل انعزلت في نشاط ذي نمط واحد معين وهو النمط المظهري للشعائر. لم يبزغ منهم أحد في حركة الأدباء الشبان كما فعلت الحركات اليسارية بوجه عام والماركسية بوجه خاص، ولم يدخل أحد منهم في معارك الفكر والأدب والثقافة كمفكر وأديب وليس كداعية وخطيب. وبالتالي فإنه من الممكن تحول هذا النشاط وإخراجه عن عزلته إلى المعارك الثقافية

والأدبية لجيلنا. فالدعوة الإسلامية ليس مسـتقلة عن حياة البلاد الثقافية ومعاركها الأدبية.

٤. ظهر في أدب سيد قطب الشعور الوطني ومشاركته في الوطنية المصرية بالشعر والخطبة والمقـال بدافع فردي خالص دون أن يتلقى تعليمات مـن جماعة أو من رئيس مباشر. وكان يلهب شعوره القادة الوطنيون والشهداء الأبرار لمعارك جيلنـا: استقلال مصر، وحـدة وداي النيـل، اسـتقلال فلسطين. ولكن الجماعات الإسلامية المعاصـرة غالبا ما ترى الشعور الوطني أقـل قيمـة مـن الشعور الديني. بل كثيرا ما تتنكر لـه وتجعلـه مناقضا للشعور الـديني ومضـادا لـه. فتلتـزم بمقتضيات الشعور الـديني وتضـحي بالشـعور الوطني وهو ما يجعلها باستمرار موضع الاتهام والخيانة والعمالة لنظم دينية أخرى خارج الوطن، ويجعلها غير قادرة فقط على الدخول في وحـدة وطنية بل أيضا على تصـورها فكيـف يجتمـع النقيضان: الجاهلية والإسلام؟

٥. استطاع سيد قطب وهو الريفـي القـروي إدراك مأساة ريف مصر منذ الصـغر. وأحـس بفقـر الفلاحين وبؤس الأجراء الـزراعيين. كمـا رأى ترف الأغنياء وسرقة اللصـوص. وظـل هـذا الانطباع طيلة حياته يعطيه الإحساس بالذنب تجاه هؤلاء المنبوذين. وبالرغم من أن لمعظم أعضاء الجماعـات الإسـلامية جـذورا ريفيـة إلا أن إحساسهم بقضايا الفقر والغنى يتوارى كلية أمـام إحساساتهم الدينية حتـى أصـبحت بغيـر ذات مضمون. ويقتصر حديثهم على بعض النصوص الدينية فيما يتعلق بالزكـاة والاسـتخلاف ودون مساس بجوهر الاقتصاد الرأسمالي مثل الملكيـة الخاصة، والتنافس، والربح، والاقتصـاد الحـر، والتجارة. لم يصور كتابهم بؤس ريـف مصـر وفقرها الموقع: ولم يشعر أحد منهم بنيل مصـر وفيضانه وكأنها احساسات وثنية. وبالتالي يمكـن إرجاعهم إلـى الريـف وإدراجهـم فـي العلـم

الاجتماعي في الريف حتى تأخذ عواطفهم الدينية مضامينها الاجتماعية.

٦. كان سيد قطب وهو في هذه المرحلة الأولى من حياته على وعي تام بالموقف الحضاري. ينقد التراث القديم فيما لا نفع فيه ولا أصالة، ويبرز ما يصلح لجيلنا واشباع حاجاتنا. وينقد الغرب ويرفض تقليده، وفي نفس الوقت الاستفادة بإبداعاته ودلالاتها بالنسبة لنا في نهضتنا وبالنسبة له في مظاهر انهياره وينفتح على الحضارات الشرقية القديمة التي انفتحت حضارتها القديمة عليها. ويبني حدود الإقليمية الحضارية مثل الدعوة الفرعونية، ويطلق حدودها حتى تدخل في إطارات الحضارات الشرقية القديمة التي تجعل العمل الصالح في الدنيا أساس الجزاء في الآخرة. ولكن الجماعات الإسلامية المعاصرة خرجت عن مسار التاريخ وإطار الحضارات والتصقت بالتراث القديم وحده، وعادت التراث العربي ما ينفع منه قبل ما يضر. كما عادت الشرق كله

وحضاراته مع أنها امتـداد لحضـارة الإسـلام القيدمة، وبالتالي تحول نشاطها خـارج التـاريخ ودون وعي بالمرحلة فانحسر أثرهـا. ويمكـن التغلب على ذلك عن طريق إدخال الجماعة فـي روح العصـر، وإعطـائهم البعـد التـاريخي، وانشغالهم بقضايا الساعة ومعـرفتهم بالمراحـل وإدراكهم للتطور.

٧. لم تظهر فكرة الحاكمية في هذه المرحلـة الأدبيـة وهي الفكر التي أصبحت مسـيطرة عليـه فـي المرحلة السياسية. مما يدل على أنها فكرة طارئة عليه أما مـن الخـارج خاصـة أبـي الأعلـى المودودي أو من الداخل تعبيرا عن ظروف القهر السياسي والاعتقال ظلما. بل كانت لديه بـدايات رفض الدين الشعبي الذي يقوم علـى الخرافـة والجهل. بل أن بذورها لم تظهر لديه في المرحلة الأدبية كما ظهرت بـذور الاتجاهـات الوطنيـة والاجتماعية والثقافية.

ثانيــا: المرحلــة الاجتماعيــة: (١٩٥١ – ١٩٥٣):

وبالرغم من ظهور بدايات التحليل الاجتماعي في المرحلة الأدبية إلا أنه بدأ بصورة واضحة في "العدالة الاجتماعية في الإسلام"[١٢٠] وفي "معركة الإسلام والرأسمالية" وفي "السـلام العالمي والإسلام" وأخيرا في "دراسات إسلامية" التـي تبـدأ فيها القطيعة بين الأخوان والثورة[١٢١]. وقد انتهى سيد قطـب

(١٢٠) صدر "العدالة الاجتماعية في الإسلام" في ١٩٥١ وكان في البداية أيضا مقالا في ١٩٤٩. وقد نشرته لجنة النشر للجامعيين التـي كانـت تضم ممثلين لنفس التيار الإسلامي مثل عبد الحميـد جـودة السـحار بمؤلفاته "أبو ذر الغفاري"، "بلال مؤذن الرسـول"، "سـعد بـن أبـي وقاص"، "ابناء أبي بكر الصديق". وأحمد على بـاكثير، "واسـلاماه"، مولاي محمد علي "محمد رسول الله"، وعبد الفتاح مقصود "الامام علي" ... الخ.

(١٢١) للاسف لم نستطع معرفتـه تـاريخ صـدور "معركـة الإسـلام والرأسمالية" على وجه التحديد ولكنه يبدو أنه سـابق علـى "الإسـلام العالمي والإسلام" طبقا للطبعة الثانية "للعدالة الاجتماعية في الإسـلام" التي تعلن أن معركة الإسلام والرأسمالية قد صدر وتعلن عـن قـرب

=

إلى الجانب الاجتماعي في الإسلام تلقائيا ابتداء مـن الأدب وليس ابتداء من الدين أو من الأخوان المسلمين. وكـان قـد انضم للجماعة أيضا في هذه الفترة. وكانت مصر في ذلـك الوقت تغص بالحركات الاجتماعية سـواء فـي الأحـزاب الماركسية أو في الطليعة الوفدية أو في الأحزاب الاشتراكية وفي طليعتها حزب مصر الفتاة الذي كان سيد قطب قد انضم إليه قبل انضمامه إلى الأخوان. كانت المعركة الاجتماعية في الأربعينيات على أشدها. وهي التي دفعتـه إلـى اكتشـاف الجانب الاجتماعي في الدين بعد اكتشاف الجانب الأدبي فيـه في فترة أيضا كانت المعركة الأدبية على أشدها في أوائـل الثلاثينات.

صدور "السلام العالمي والإسلام". ويؤيد ذلك أيضا بروز الحاكمية أكثر في السلام العالمي والإسلام التي تكشف عن بداية الصراع بين الثـورة والاخوان. أما الهامش الذي يشير إلى "السلام العالمي والإسـلام" فـي "معركة الإسلام والرأسمالية" (ص٨٨) فالارجح أنه من الناشـر. أمـا "دراسات إسلامية" فانها مقالات كتب معظمهـا فـي ١٩٥٢ وبدايـة الاعلان عن الاخوان وفكرهم في مواجهة الثورة وبداية الشكوك بـين الاثنين.

ويعتمد الكتاب على منهج النص وعلى ذكر الشواهد التاريخية لإثبات الدين الحي، والعمل، والإنتاج، وأهمية الدنيا في الإسلام دون أن يعطي تصورا نظريا محكما أو أيديولوجية اجتماعية واضحة المعالم. ويستشهد بالمعاصرين ودراساتهم في الملكية والعدالة(١٢٢) ولكنه في نفس الوقت يحاول تأصيل العدالة الاجتماعية في التراث القديم فيجدها مثلاً في المصالح المرسلة. وينقد الطوفي لتقديمه المصالح المرسلة على النص على عكس الشافعية الذين لا يأخذون بالمصالح المرسلة والحنفية الذين يأخذون بالاستحسان مع القياس ويصف المالكية بالاعتدال لأنهم يجمعون بين المصلحة والنص. كما يستشهد بالمستشرقين المنصفين للإسلام المتجردين عن الهوى والضغينة وبعض المفكرين الغربيين الذي تحولوا إلى الإسلام أو الذين بقوا على دينهم ولكنهم أعجبوا به وأنصفوه.

(١٢٢) يذكر أعمال أبو زهرة مثل "الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية".

ومع ذلك فإنه ينقد الغرب. ينقد مناهج التـاريخ الغربيـة التي تنفي أثر العوامل الروحية في الزمن والتي تعتبر أوربا هي المحرك لخط الزمن لأن الإسلام يفسر التاريخ بالعقيـدة والنشاط والحركة ويعتبر الإنسانية جمعاء ميـدان التـاريخ والأمة الإسلامية فـي مركـزه. لـذلك أرتبطـت العدالـة الاجتماعية لديه بفلسفة التاريخ وتقدم الأمة الإسلامية وانهيار الغرب قديما ممثلاً في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وحديثًا ممثلاً في المعسكرين الشرقي والغربي أي النظـامين الشيوعي والرأسمالي. والغرب له حالة خاصة قد حدثت فيه فجوة بين الدين والعلم، بين الكنيسة والفكر نظـرا لطبيعـة الدين المسيحي ومساره في التاريخ الأوروبي. فالدين كـان مخدرا للشعوب في أوروبا "وجدت الطبقات الكادحة التي تريد أن تصارع أن الدين لا يغذي رغبتهـا فـي الصـراع، وأن الكنيسة تتخذ منه مخدرا للكادحين فأعلنت ثورتهـا الكاملـة على الدين وقالت عنه أنه مخدر الملايين. ومن هنـا كـان العداء الجـاهر الصـريح بـين الشـيوعية والـدين عنـد

الشيوعيين[١٢٣]. ولكن أحيانًا يظهر التصور الشعبي للشيوعية عند المؤلف قائلاً "حاولت الشيوعية أن تقضي على الأسـرة لأنها تلغي أحاسيس الأسرة وحب التملك وتضـع شـيوعية الثورة وملكية الدولة للأفراد ولكنها فشلت[١٢٤]. كما يستشـهد بالكتابات الناقدة للغرب أو التي تدل في رأي المؤلف – على انهيار قيم الغرب[١٢٥]. ويـرفض أي تقـارب بـين النظـام الإسلامي وأي نظام في الغرب، فلا يوجـد شـيء يسـمى الإمبراطورية الإسلامية كما يقول طه حسين في كتابه "الفتنة الكبرى – عثمان" لأن النظام الإسلامي له خصائصه المميزة ولكن المهم هو اكتشاف الرصيد الروحي للإسلام.

فالإسلام ليس دينًا معزولاً عن الحيـاة أو يـنظم علاقـة الإنسان بربه ولكنه دين الحياة ينظم العلاقة بـين الإنسـان

---

[١٢٣] العدالة الاجتماعية ص ١١ – ١٢.

[١٢٤] المصدر السابق ص ٦٢.

[١٢٥] مثلا أنا فرويد ودورثى برنجهام "أطفال بلا أسر" ، الكس كاريـل "الإنسان ذلك المجهول" وسيرد فيما بعد سـيد قطـب علـى الاخيـر بالتفصيل في "الإسلام ومشكلات الحضارة" ١٩٦٢.

والإنسان، ليس الإسلام كـ دين مخـ درا للشـ عوب يسـ تغله الرأسماليون والحكام المستندون لتنـ ويم الطبقـ ات الكادحـ ة وتخدير المحرومة. وليست العبادات فيه شـ عائر وطقـ وس وأشكال ومراسيم بل أفعال يوميـ ة موجهـ ة لحيـ اة الفـ رد والجماعة.

ويربط سيد قطب قضية العدالة الاجتماعية في الإسـ لام بقضية التصور الإسلامي فيرفض أولاً التراث الفلسفي القديم لان الفلسفة الإسلامية الحقة لا تلتمس عند ابن سـ ينا وابـ ن رشد وأمثالهما ممن يطلق عليهم فلاسفة الإسـ لام. ففلسـ فة هؤلاء إنما هي ظلال للفلسفة الإغريقية لا علاقة لها حقيقـ ة بفلسفة الإسلام. وللإسلام فلسفته الاصيلة الكامنة في أصوله النظرية والقرآن والحديث وفي سيرة رسوله وسننه العملية. وهذه الأصول حسب أي باحث متعمق يـ درك بهـ ا فكـ رة الإسلام الكلية التي يصدر عنها في كل تعاليمه. يقوم النظـ ام الإسلامي على فكرتين مستمدين في فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان. وحدة الإنسانية فـ ي الجـ نس والطبيعـ ة والنشأة وان الإسلام هو النظام العالمي الخالد فـ ي مسـ تقبل

البشرية[126]. هذه الوحدة المطلقة المتعادلـة المتناسـقة هـو أساس التكافل العام بين الأفراد والجماعـات والتـي تجعـل الإسلام يسير في تحقيق العدالة الاجتماعية مراعيا العناصـر الأساسية في الفطرة الإنسانية غير متجاهل كـذلك للطاقـة البشرية[127]. لذلك يعني التوحيد الإسـلامي ثلاثـة مبـادئ: التحرر الوجداني، المساواة الإنسانية، والتكافل الاجتمـاعي. "والتكافل الاجتماعي أشمل وأعم من الضـمان الاجتمـاعي المالي كإعانة من الدولة والذي هـو جـزء مـن التكافـل الاجتماعي. ويعني أن كل فرد في الكفاية المادية عن طريق العمل، وإذا حدث عجز قامت الدولة بكفايتـه بـدلاً عنـه. ويشمل أيضا حق التعليم والتربية وحـق العمـل وتمكـين القادرين عليه وحق الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر.

---

[126] وهنا يعد المؤلف بتقديم بحث كامل عن "فكرة الإسلام عن الكون والحياة والانسان" وقد صدر بالفعل بعد عشر سنوات تقريبـا بعنـوان "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" العدالة الاجتماعية" ص ٢٤٧.

[127] المصدر السابق ص ٢٩.

فالفرد جزء من المجتمع وليس عالة عليه"[١٢٨]، إن شهادة أن لا إله إلا الله وهي من أخص المشـاعر الاعتقاديـة لتعنـي التحرر الوجداني من كل عبودية لعبادة. هذا التحرر الذي هو الخطوة الأساسية لتحقيق مجتمع صالح كـريم. الكـل فيـه متساوون[١٢٩]. فالشهادة هنا لا تعني الحاكمية بقدر ما تعنـي تحرر الضمير البشري" لقد بدأ الإسـلام بتحـرر الضـمير البشري من عبادة أحد غير الله، ومن الخضوع لأحد غيـر الله. فما لأحد عليه غير الله من سلطان. وما من أحد يرزقـه من شيء في الأرض ولا في السماء إلا الله، وليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع، والله وحده هو الذي يسـتطيع، والكـل سواه عبيد لا يملكون لانفسهم ولا لغيرهم شيئًا[١٣٠]. ولكن لم تظهر الحاكمية في "العدالة الاجتماعية في الإسلام" بل ظهر

---

[١٢٨] سيد قطب: الرسالة الإسلامية والضمان الاجتماعي، في التـاريخ فكرة ومنهاج ص ٣ – ٣٦ وهي مقال من اوائـل الخمسـينات فتـرة "العدالة الاجتماعية في الإسلام".

[١٢٩] المصدر السابق ص ١٣.

[١٣٠] المصدر السابق ص ٣٦.

التوحيد كثورة اجتماعية على الواقع بدافع من الواقع أكثر من كونه بدافع من الفكر، وبباعث مادي أكثر من كونـه بـدافع تصوري، وبشعور اجتماعي أكثر من كونه بشـعور دينـي. ولكن تظهر صورة الطريق في آخر الكتـاب "فـي مفتـرق الطرق"[131]. كما يهدي الكتاب إلى الفتية الذين المحهـم فـي خيالي قادمين، يجاهدون في الله بأموالهم وأنفسهم مؤمنين في قراراتهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. إلى أولئك الفتيـة الذين لا أشك لحظة أن روح الإسلام القوية سـتبعثهم مـن ماضي الأجيال إلى مقبل الأجيال فـي يـوم قريـب، جـد قريب[132]. وهم الذين أصبحوا فيما بعد الجيل القرآني الجديد.

وتبلغ قيمة الالتزام الاجتماعي عند سيد قطب في "معركة الإسلام والرأسمالية". فالصلة بينهما صلة حركـة وصـراع وتناقض. لا حياة لأحدهما ألا بفناء الآخر. وقد وقع الاختيار على الرأسمالية كأحد طرفي الصراع وليس على الشـيوعية لان الخطر الداهم الذي يغزو مصر والعالم الإسلامي لا يزال

---

[131] المصدر السابق ص ٢٦٣ – ٢٦٧.

[132] المصدر السابق ص ٣.

هو نهب الرأسمالية وعملائها لثروات المسلمين بل أنه يسخر من اتهام كل من يناهض الرأسمالية بالشيوعية. صدر في أوائل الخمسينات إبان الثورة المصرية قبلها وبعدها مما يدل على نضج الثورة الاجتماعية في هذه الفترة. ولا يعتمد على النصوص الدينية كثيرا ولكنه يبدأ بالأوضاع الاجتماعية وبلغة الأرقام والإحصاء لأن المواعظ والخطب والآيات لن تغير شيئًا. ويطلق صيحة للنذير ويشير إلى المخاطر التي تواجه الأمة جراء الأوضاع الاجتماعية حيث تتمايز طبقتان: الأغنياء والفقراء. وصدر الكتاب بآية" وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"[١٣٣]. صحيح أن الحماس والخطابة يغلب عليه ولكن ذلك يرجع إلى أنه موجه توجيها مباشرا، لجمهور الأمة حتى تعي واقعها، وتدرك من المسئول عن ذُلها وفقرها وبؤسها، إن صوتًا سيرتفع بعد ذلك كله ولن يمكن إسكاته أبدا، صوت

---

[١٣٣] معركة الإسلام الرأسمالية ص ٤. كذلك صدر الامام الخوميني كتابه: الحكومة الإسلامية بآية "أن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة اهلها أذلة وكذلك يفعلون"، النحل : ٢٤.

المعدات الخاوية التي تملأ جنبات هذا الوادي صوت الملايين التي تبذل الوقت والدماء، صوت الواقع، لابد لهذا الوضع أن يثور. "إن الذين يعملون في هذا البلد هم الذين يجوعون أعنى الذين يعملون أعمالاً شريفة لا تـدخل فـي قائمـة السـرقة والاختلاس والغش والتدليس والارتشاء واسـتغلال النفـوذ وتجارة الرقيق الأبـيض والخيانـة الوطنيـة[١٣٤]، إن هـذه الأوضاع الاجتماعية القائمة هي التي تدفع بالناس دفعا إلـى أحضان الشيوعية وبخاصة ذلك الجيل الناشئ مـن الشـبان الأبرياء. ولا يمكن أن تصح دعوة خلقية أو دينيـة لملايـين الجياع. فالمعدات الجائعة لا تفهم المنطق بل أن الأوضـاع الاجتماعية هي التي تفسر الخلق والضمير.

فما الحل؟ فريـق يهتـف بالاشـتراكية، وفريـق يحلـم بالشيوعية، وفريق يدعو إلى الإسلام، وهو وضع طبيعي من بيئة طبيعية في موقف محاصر بـين المـذاهب السياسـية المعاصرة غربية وشرقية، قديمة وحديثة. ولكن بالرغم ممـا يتمتع به الغرب من حرية التفكير والتفكير والتعبير وبالرغم

---

[١٣٤] المصدر السابق ص ٣٣.

مما يسود مجتمعاته من احتكار واستغلال وإثـارة وانحـلال فإن المجتمعات لا تتغير عن طريق التقليـد للغـرب وهـو المعادي لكل ما هو إسلامي أو شرقي[١٣٥]. ولكن في الإسلام خلاص من التقليد أو الاسـتجداء أو الاسـتيراد مـن وراء الحدود. الإسلام صاحب لنا وصديق أِلفْناه منذ أربعمائة والف عام. الإسلام حجة قوية ضد الرأسمالية المستغلة وضد مـن يريدون استبعاده من معركة العدالة الاجتماعية (الشيوعيون) ومن المحترفين من رجال الدين وفقهاء السـلطان. الغـرب والشرق كلاهما ضد المسلمين فكرًا وواقعا، وعقيدة وأرضـا وكما هو واضح في فلسطين، والإسلام يكـون كتلـة ثالثـة مستقلة بالإسلام، فإذا كانت مشاكلنا أربعـة: سـوء توزيـع الملكيات والثروات ومشكلة العمل والأجور، وعـدم تكـافؤ الفرص، وفساد جهاز العمل وضعف الإنتاج فـإن الإسـلام يحلها جميعا بإعادة توزيع الملكيات والثروات وحق الدولـة في التأميم ومصادرة رأس المال المستغل وفرض الضرائب على الأغنياء واعتبار الإسلام أن العمل وحده مصدر القيمة

---

(١٣٥) المصدر السابق ص ١٧ – ١٨.

وأن الناس متساوون وأن الإنسان خليفة الله في الأرض سخر الله له كل شيء في الكون. فالإسلام نظام أعدل من الشيوعية واطهر وأشمل: أعدل لأنه لا يمس الملكية الفردية ألا عنـد الاقتضاء، وأطهر لأنه يضمن بذل أقصى الطاقة من الأفراد في الإنتاج، وأشمل لأنه يعد الفرد للمجتمع ويعـد المجتمـع للأفراد[١٣٦]. الإسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ويمنح المسلمين الذاتية والشخصية.

إن الأوضاع الاجتماعية القائمة مناقضـة فـي جملتهـا وتفصيلها لروح الدين كله. ولكن المشكلة هم رجـال الـدين المحترفون الذين يؤولون الدين ليسـاندوا هـذه الأوضـاع الاجتماعية إرضاء للحكام وافتراء على الدين. "إن الإسـلام ليصرخ في وجه الظلم الاجتماعي والاسـترقاق الإقطـاعي ويمد المكافحين لهذه الأوضاع بقوة ضخمة للكفاح والصراع. وما من وضع اجتماعي هو أبعد مـن روح الإسـلام مـن أوضاعنا القائمة.

---

[١٣٦] المصدر السابق ص ٤٤.

وما من إثم أكبر من إثم الذين يدينون بدين الإسـلام ثـم يقبلون مثل هذه الأوضـاع أو يبررونهـا باسـم الإسـلام، والإسلام منها براء، إن هذه الأوضاع غير قابلة للاسـتمرار والبقاء ذلك أنها مخالفة لروح الحضارة الإنسانية بكل معنـى من معانيها، مخالفة لروح الدين بكل تأويل مـن تأويلاتـه: مخالفة لروح العصر الحاضر بكل مقتضى مـن مقتضـياته ومن ثم فهي لا تحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء لهـا في الأجل، ويمنحها فرصة البقاء[١٣٧]. لابد للإسـلام إذن أن يحكم "إذا أردنا للإسلام أن يعمل فلابد له أن يحكم. فالإسلام لا ينزوي في المعابد أو يستكن في القلوب إنما جاء لـيحكم الحياة ويصوغ المجتمع لا بالوعظ والإرشاد بـل بالتشـريع والتنظيم.. لا إسلام بلا حكم، ولا مسلمين بـلا إسـلام[١٣٨]. الحاكمية هنا تعني إذن الإسلام للحكم وليس الحاكمية لله على عكس إعطاء يوم الأحد للكنيسة وللدنيا باقي أيام الأسـبوع. فعقيدة الإسلام لا يمكن أن تتحقق بذاتها في واقع الحياة مـالم

---

[١٣٧] المصدر السابق ص ٢٢.

[١٣٨] المصدر السابق ص ٦٢.

تتمثل في نظام اجتماعي معين. العقيدة هي التي تخلص الأمة دون الوطنية أو العدالة الاجتماعية اللتان تتحققان تلقائيا من خلال الإسلام. ويحدث ذلك دون ما حاجة إلى هيئة كبار العلماء بل من خلال تحول العقيدة إلى طاقة وحركة وتغير وتطور.

ومع ذلك تلقى الشبهات حول الإسلام من الأبرياء الجهال الذين يبهرهم مقاليد الحكم أو مناصب الافتاء. فيقال أن الحكم الإسلامي يعني بدائية الحكم وشظف البداوة. والحقيقة أن هناك فرقًا بين النشأة التاريخية للإسلام والفقه الإسلامي المتجدد المتطور. يقال أنه حكم المشايخ والدراويش! والحقيقة أنه حكم يقوم على الشورى "فالحاكم في الإسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد هو إرادة المحكومين. فالبيعة الاختيارية هي الطريق الوحيد لتلقي الحكم، والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ"[١٣٩]. فالحاكمية للبشر ومصدرها من البشر. وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلى قامت على أساس الاختيار المطلق. ولكن عدل بنو أمية القاعدة ثم ردها الخليفة الخامس

---

[١٣٩] المصدر السابق ص ٧٣.

عمر بن عبد العزيز حتى تختاره الأمة مختارة فـلا ولايـة بغير شورى ورضى وقبول[١٤٠]. ويقال أنه حكم الطغيان في حين أن الرسول قد قال من رأى سلطانًا جائرا مستحلاً لحرم الله ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان على الله أن يدخله مدخله". والإسلام يدرأ الحدود بالشبهات، ولا يطالـب الناس بواجباتهم قبل أن يعطيهم حقوقهم. ويقال أنـه نظـام الحريم في حين أن المرأة في الإسلام تعمل فـي الدراسـة والتجارة والحرب. ويقال أنه نظام متعصب ضد الأقليات في حين المستشرقين أنفسهم قـد اعترفـوا بإنسـانية الإسـلام

---

[١٤٠] صعد الخليفة المنبر فقال "أيها الناس: اني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان من ي فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين واني قـد خلعت المؤمنين ورضيناك فلك الأمر بـاليمن والبركـات"، المصـدر السابق ص ٧٤.

وشموله[١٤١]. وقد كانت مذابح الأقليات علـى يـد الأتـراك لأسباب سياسية وليست دينية.

كما تظهر العداوات من الحاقدين على الإسلام: الصليبيون الجد الذين عبر اللنبي عما في صدروهم وهو يـدخل بيـت المقدس في الحرب العالمية الأولى قائلاً: "الآن انتهت الحرب الصليبية" وأقطاب التبشير في مصر[١٤٢]. هؤلاء وهؤلاء هـم الذين أقاموا إسرائيل على الدين شوكة في ظهـر الإسـلام. وإسرائيل هي الدولة العنصرية التي تقوم على الدين أول ما تتنكر الشيوعية له وفي نفس الوقت وقفت تسـلح إسـرائيل معلنة مبادئها. ولا فرق في ذلك بين شرق وغرب. فقد خان الغرب بزعامة بريطانيا وأمريكا والمستعمرون والاسـتعمار الذي يقوم على تحالف دكتاتورية الحكم ورأس المال أيضـا قضية فلسطين في مجلس الأمن وفي حرب فلسطين، الـذين

---

[١٤١] يستشهد سيد قطب بكتاب سير تومـاس أرنولـد: الـدعوة إلـى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، واسـماعيل الفراوى.

[١٤٢] يذكر منهم جورجى زيدان وسلامة موسى.

يدعون في لفظ حكم الشريعة. وتبني القانون الوضعي من خلال الاستعمار الثقافي[١٤٣]. والحقيقة أن الإسلام يحرم على اتباعه الخضوع لحكم الأجنبي واتباع أي تشريع لا يتفق مع شريعة الإسلام. والمستغلون الطغاة يريدون جعل الإسلام مجرد طقوس وشعائر "إنه لا ضير من الإسلام حين يكون تمتمة بالشفاه، وطقطقة بحبات المسابح أو أدعية وتراتيل أو محمولاً يطاف به سبعا ويسلم مقود الجمل الذي يحمله رسميا أو مولدا تطلق فيه الصواريخ أو مشيخة طرق أو نقابة أشراف تخلع فيهما الخلع وتمنح فيهما الألقاب إلى آخر أجهزة التخدير التي يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير. فاما حين يصبح حكما جادا ينفذ شرائع الإسلام في الحكم والمال ويمنح الحقوق الإنسانية والاجتماعية والقانونية لكل فرد وكل جماعة ولا يفرق بين الشعائر التعبدية والشرائع القانونية فدون هذا ويصبح الإسلام خطرا يتقى، وكارثة تقع، ومعركة يخوضها الطغاة والمستغلون بكل ما يملكون. هذا الإسلام لا يوافق السلطات الاستبدادية في الحكم

---

[١٤٣] يذكر من هؤلاء طه حسين ودعوته إلى العلمانية.

ولا يضمن معه المستبدون في البقاء.. يسلطون عليه رجـال الدين المحترفين.. الإسلام حرب على الأوضـاع الظالمـة والسلطات الغاشمة"(١٤٤). والمحترفـون مـن رجـال الـدين يستغلون عقول الجماهير باسم الدراويش ويقومون بوظيفـة التخدير والتغرير بالجمـاهير الكادحـة العاملـة المسـتغلة المحرومة، وهي وظيفة الدين فـي المجتمعـات الإقطاعيـة والرأسمالية. والمستهترون والمنحلون في مصر يرون فـي الإسلام نظاما للقيم والتزاما بالجدية، وأخيـرا الشـيوعيون يشوهون صورة الحكم الإسلامي ويعملون على انقسام العالم إلى كتلتين وإن عدم الانضمام إلى الشرق يقوى مـن نفـوذ الغرب. والحقيقة أن الإسلام نظام مستقل بذاته لا ينحاز إلى كتلة ولا ينضم إلى معسكر.

ينبغي أن تتولى الجماهير الكادحة المحرومـة المغبونـة قضيتها بأيديها وأن تفكر في وسائل الخلاص. ويوجه سـيد قطب النداء التالي: "أيتها الجماهير: هذا هو الطريق: هذا هو الطريق: هذا هو الطريق" وهو الذي سيصبح فيما بعـد فـي

---

(١٤٤) معركة الإسلام والرأسمالية ص ١٠٣.

"معالم في الطريق"[١٤٥]. أما "الإسلام العالمي والإسلام" فقـد ظهر في بدايات الثورة المصرية. فقد كان موضوع السـلام والحرب من موضوعات اليسار المصـري، فـالحرب أداة الاستعمار، والاستعمار أعلى مراحل الرأسـمالية، والغـرب بنظامه الرأسمالي مجتمع الحرب والعدوان. وربما أنتقل سيد قطب انتقالاً طبيعيا من الإسلام كوسيلة للسـلام الاجتمـاعي إلى الإسلام كوسيلة السلام العالمي. يعتمد على النقل والعقل ويبدأ ببيان ارتباط العقيدة بالحياة ثم يرتقي من سلام الضمير إلى سلام البيت إلى سلام المجتمع إلى سـلام العـالم فـي النهاية. فلا سلام في عالم لا يتمتع فيه ضمير الفرد بالسلام. وهو موضوع جديد لذلك لم يؤصله في أعمال السلف وتراثنا القديم.

ويغلب على الكتاب موضوعان: نقـد الغـرب باعتبـاره مجتمعا لا يقوم على السلام وضرورة الجهاد لإقرار السـلام في الإسلام ومحو آثار العـدوان علـى حريـة الاعتقـاد.

---

(١٤٥) المصدر السابق ص ١٢٢.

ويستعمل الواقع الاحصائي لبيان انحلال الغرب والتصـوير الواقعي للإثارة الجنسية دون ما حرج[١٤٦].

ويبطل خرافة العامل الاقتصادي في المـذهب المـادي، ويشكك في قيمة الإصلاح الاجتماعي الذي يتم عن طريـق تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تنشأ الاخـتلال في جسم المجتمع في حين أن الإسلام يبدأ التغيير من ضمير الفرد. المذهب المادي الطبيعي في الغرب والصراع الطبقي

---

[١٤٦] والببغاوات هنا والشاردون هناك يقولون: أن هذا الضبط لابد مؤد إلى "العقد النفسية" ذلك أنهم لا يتخيلـون صـورة للمجتمـع ألا تلـك الصورة القذرة، صورة الشبان الهائجين محتكين بالفتيـات الفـائرات، صورة الافخاذ والنهوض عارية بارزة، صورة النظرات جـاهزة فـي العيون والشهوات ناضجة في الشفاة، تدفعها كلها وتؤججهـا منـاظر الافلام الداعرة، وصور الصـحف المجرمـة، واصـوات المخنثـين والمخنثات في الاذاعة، والتوجيهات الخبيثة في كل أجهـزة التوجيـه والاعلام العامة، ومن وراء ذلك كله الترف والفراغ في جانب، والعوز والانحلال في جانب، ومن حول ذلك كله تجار الاعـراض ومخانيـث القوادين "السلام العالمي والإسلام" ص ٧٩.

كذلك. أما المجتمع الإسلام فإنه يبدأ من الجزء ومن الضمير والعقيدة التي تعطي التصور النظري والبناء الاجتماعي.

الإسلام دين الوحدة، والسلام فيه ينشأ من طبيعته، ولأول مرة تظهر عند سيد قطب بصورة واضحة بسيطة الألوهيـة على نحو عملي لتحقيق السلام العالمي وليس كتصور نظري وبدافع داخلي محض ودون أي أثر خـارجي (المـودودي) ودون الخضـوع لأي مـؤثرات نفسـية (سـيكولوجية المضطهدين) كما سيحدث ذلك كله فيما بعد فـي المرحلـة السياسية في "معالم في الطريق". فكلمة الله تعبر عن أرادتـه الظاهرة لنا نحن البشر: أفـراد الله بالألوهيـة، والربوبيـة اعترافًا بإرادته، والعبادة تسليم بحقه، والطاعة تنفيذ لأوامره، والدينونة التزام بخلافته في الدنيا، فالسـلام الإسـلامي إذن ليس تراجعا عن الحرب أو نفيا للصراع أو نظرة فردية تبدأ من الفرد إلى المجتمع، ومن الداخل إلى الخارج على ما هو معروف في الأخلاق الدينية الشائعة. لذلك قد تكون الحـرب ضرورية لإقرار السلام، "فهذه هي الحـرب التـي يقرهـا الإسلام لتقرير ألوهية الله في الأرض ونفـى غيرهـا مـن الالوهيات المدعاة، ودفع الذين يدعون الألوهية سواء بالقول

أو بالفعل، وإثبات سلطان الله في الأرض حتى يكون الـدين كله لله وحتى لا يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابـا مـن دون الله.. فمن وقف في طريق هذا الخير أن يصل إلـى النـاس كافة وحال بينهم وبينه بالقوة فهو إذن معتد علـى كلمـة الله وإزالته عن طريق الدعوة هـي إذن تحقيـق لكلمـة الله لا لفرض الإسلام فرضا على الناس ولكـن لمـنحهم حـريتهم المعروفة وخيرة الهداية. فالإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه ولكنه يكره الذين يقفون بالقوة في طريقه، ويفتنون الناس عنه أو يمنعونهم ابتداء من تبين الرشد من الغـي عـن طريـق السيطرة عليهم وحرمانهم حق الاختيار.

وهذه الحرب هي التي يقرها الإسلام، ويحـرض عليهـا تحريضا، ويدعو رسوله أن يحرض عليها المؤمنين، ويحب الذين يحرضونها". ويقول أيضا "لقد جاء الإسـلام لتحقيـق العدالة في الأرض قاطبة، ويقيم القسط بين البشـر عامـة، العدالة بكل أنواعها: العدالة الاجتماعية والعدالـة القانونيـة والعدالة الدولية. فمن بغى وظلم وجانب العدل فقد خالف عن كلمة الله وعلى المسلمين أن يقاتلوا لإعـلاء كلمـة الله وأن يردوا الشاردين عنها إليها حتى ولا امتشقوا الحسام في وجوه

المسلمين الباغين. فالعدل المطلق ورد البغى والعدوان هـو كلمة الله التي يجب أن تعلو في كل حال وفي كل مكـان... فإعداد القوة واجب، واجب ليكون في هذه الأرض سلطة عليا ترد الشاردين عن الحق إليه وتقـف الطغـاة عـن البغـى والعدوان، تحفظ على الأمنين أمنهم وسلامتهم، وتعز كلمـة الله عن الاستخفاف والهوان وتقر سـلطان الله فـي الأرض وتفرده سبحانه بالسلطان.. فأما حين تتحقق الحرية المنيعـة فلا يصد الناس بالقوة عن كلمة الله ولا يفتون عن دينهم الذي ارتضاه لهم الله نظاما شاملاً للحياة وحـين تتحقـق العدالـة الخيرة فلا يبغى بعض الناس على بعض، ولا يستغل بعضهم رقاب بعض، وحين يتحقق الأمن للضعفاء الذين لا يملكـون عن أنفسهم دفاعا ويكف الباغي عن بغيه ويجنح إلى السـلم والمهانة حين يتم هذا فالإسلام المالك للقـوة السـلم قاعـدة والحرب ضرورة، ضرورة لتقرير سلطان الله فـي الأرض المستعدة للطوارئ يضع السيف جانبا ويـدعو إلـى السـلم فورا...

ليتحرر الناس من العبودية لغير الله وضرورة لدفع البغى من البغاة وتحقيق كلمة الله وعدل الله ضرورة لتحقيق خيـر

البشرية لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد، ضـرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التي جعلهـا الله غايـة للحيـاة الدنيا، ضرورة لتأمين الناس من الضـغط، وتـأمينهم مـن الخوف، وتأمينهم من الظالم، وتأمينهم من الضر، ضـرورة لتحقيق العدل المطلق في الأرض فتصبح إذن كلمة الله هـي العليا[١٤٧]. مهمة الإسلام إذن هـو التحـرر مـن سـلطان الطواغيت، ومواجهة عقيدة الإسلام أحرارا في الاختيار بغير ضغط من سلطة قاهرة تصدهم عن هدى الله وتقف لهم بالقوة دون الاستجابة للهداة. يقع العدوان من الجاهلين الـذين لـم يسالموا محمد من قبل فيضطر الإسلام إلـى رد العـدوان. "حروب الإسلام.، إنما كانت إعلاء لكلمـة الله فـي الأرض يجعل السلطة العليا فيها للذين يفردون الله سبحانه بالألوهيـة وإيصال الخير الذي جاء به الإسلام للناس كافة عن طريـق الرضا والإقناع وبتحقيق العدالة والأمن والسلام فـي ظـل سلطان الله المتفرد سبحانه بالسلطان وفي ظل هذا السـلطان الذي يقرر للناس منهج حياة الناس فيه أحرار، يختار كل فرد

---

(١٤٧) المصدر السابق ص ٢٦ – ٢٩.

عقيدته بلا ضغط ولا إكراه.. السلام الذي يحقق كلمة الله في الأرض من الحرية والعدل والأمن لجميع النـاس لا مجـرد الكف عن الحرب بأي ثمن مهما يقع في الأرض مـن ظلـم ومن فساد ومهما يكن في الأرض من طاغوت واعتداء على سلطان الله وألوهية الله[١٤٨]. لقد أباح الإسلام للفرد أن يقاتـل ويقتل من في يده طعامه وشرابه إذا منعه عنه وهو في حاجة ماسة إليه لأنه كحق الدفاع عن الحياة. فالحرب لا تـتم مـن أجل صورة بل من أجل مضمون.

ولما كان البشر جميعا عباد الله، وكانت الشريعة قانون الله فكلهم أمامها سواء ويكون الحكم للقانون، وليس للحاكم مـن سلطان ألا في حدود القانون الإلهي الذي يخضـع لـه كمـا يخضع السلطان سواء والذي لا يستمد من هوى الحـاكم ولا هوى طبقة ولا أمة، ولا يسن ليحقق مصلحة لحاكم أو لطبقة أو أمة إنما شرعة الله إله الجميع ومالك الجميـع لمصـلحة الجميع. والخضوع له خضـوع لله لا لعبـد مـن عبـاده، والضمانات فيه للجميع لأنه مشرع للجميع. وتلك ميزة قيـام

---

[١٤٨] المصدر السابق ص ٣٥ – ٣٦.

الدولة على شريعة الدين وقانونه. فالحرية الكاملة مـن كـل عبودية أرضية لن تكون من البشر فلن تتحقق الكرامة مـن كل عبودية أرضية لن تكون من البشر فلن تتحقق الكرامـة المطلقة ولن تتحقق المساواة المطلقة ولن تتحقـق المصـالح المطلقة، إن الحاكمين سيحسون دائما بأنهم أرباب لأنهم هـم الذين يضعون التشريع وان القانون سيظل دائما في مصلحة طبقة دون طبقة ولن يحقق مصالح الجميع. هناك حالة واحد يخضع فيها الفرد للقانون وهو شاعر بعزته كاملة وحريتـه كاملة ومصلحته كاملة حالة استمداد التشريع كله من شريعة الله الذي لا حاكم له ألا هو ولا مسيطر سواه، ولا مصلحة له في نصرة طبقة على طبقة، ولا إخضاع طبقة لطبقة. وعندئذ يطمئن الفرد إلى العدل المطلق ويستريح. وعندئذ فقط يطامن الحاكم من كبريائه التي يستمدها من سلطة التشريع ويحـس أنه يملك شيئًا إلا أنه ينفذ القانون الإلهي الذي فرض عليـه وعلى كـل فـرد سـواء.. وهـذا هـو التحـرر الكامـل الصحيح[١٤٩]...

---

[١٤٩] المصدر السابق ص ٦٣.

المسلمون إذن عليهم تبعة النضال أي الجهاد فـي سـبيل الله. المسلمون إذن مكلفون تبعات إنسانية تجاه هذه البشـرية بحكم وصايتهم هذه عليها ووصاية كتابهم على كتبهـا. هـم مكلفون أن يحققوا في الأرض ذلك السـلام فـي الضـمير والبيت والمجتمع وأسسه ومبادئه مـن أفـراد الله سـبحانه بالألوهية وبالربوبية وبالحاكمية، ومـن العـدل والمسـاواة والحرية، ومن ضمانات الحياة القانونية والمعيشية ومن منع البغى وإزالة الظلم وتحقيق التوازن الاجتمـاعي والتكافـل والتعاون وإزالة أسباب الفرقة والخصام والنزاع بين الأفراد وبين الجماعات وسد الذرائع التي تدعو إلى قيـام الطبقـات وتميزها وصراعها(١٥٠).

للحاكمية إذن مضمون اجتماعي من أجل تغيير نظم الظلم والعدوان وتحقيق نظام العدالة والمساواة. لذلك فرض الجهاد في سبيل الله على المسلمين تحقيقًا لأربعـة أهـداف: الأول حماية المؤمنين حتى لا يفتنوا عن دينهم وكف القـوة عـنهم بالقوة. والثاني كفالة حرية الدعوة وزالة كل قوة طاغية فـي

---

(١٥٠) المصدر السابق ص ١٦٨.

الأرض تمنع أن تصل دعوة الإسلام إلى الناس كافة. والثالث إقرار سلطان الله في الأرض ودفـع المعتـدين علـى هـذا السلطان، أولئك الذين يدعون أن لهم حق التشريع للناس من دون الله، فهم يدعون بهذا حق الألوهية ويقيمون من أنفسـهم أربابا مع الله أو من دون الله. والرابع إقامة العدالة الكبـرى في الأرض. وهذا يقتضـي مكافحـة ربوبيـة الطواغيـت وحاكميتهم، وأن يكافحوا الظلم والبغـى لا لتملـك الأرض واستذلال الرقاب بل لتحقيق كلمة الله في

- الأرض وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله. وهذا هو الجهاد في سبيل الله لتحقيق ربوبيـة الله لعبـاده ولتكون كلمة الله هي العليا.

لقد تضمنت مبادئ الإسلام الأساسية ثورة حقيقية كاملـة تعد أكبر ثورة تحررية عرفتها البشرية، ثورة على ربوبيـة العباد، وثورة على الظلم بكل صنوفه أو أنواعه وفـي كـل ميادينه ومجالاته، وثورة على النظم والحكومات والأوضـاع التي تسند هذا الظلم وتستبقيه لحساب فرد على جماعة فـي صورة حاكم أو مستغل أو لحساب طبقة علـى طبقـة فـي صورة إقطاعيين ورأسماليين وصعاليك أو لحساب دولة على

دولة في صورة محتلين ومستعمرين. وما واجهته المقاومـة الآن لابد من الجهاد ولنصرة الثـورة وتحقيـق ربوبيـة الله وحاكميته في الأرض واستنفاذ البشرية أفرادا وجماعات من جور الأرباب الأرضية الممثلة في الأشخاص والحكومـات والنظم والأوضاع، فالحاكمية موجهة إذن ضد نظم اجتماعية معينة هي نظم الجور وليس إلى البشر ونظمهم من حيث هم بشر.

ليس هم الإسلام شراء سلام كاذب مع الدول بأن يدع هذه الدولة تقيم لرعاياها أربابا من دون الله يدعون حق الربوبيـة فيها، وتحرمهم العدل الاجتماعي. فهـؤلاء الرعايـا الـذين تحكمهم تلك الدولة الظاملة أيا كان دينها وأيا كان شكلها هـم ناس من البشر. والأمة الإسلامية مكلفة أن ترفع عنهم الظلم وتمتعهم بالعدل ومن ثم فينصرف الجهاد إلى تحقيـق فكـرة الثورة العالمية لا إلى الحكم والسيطرة والغنم. الإسلام فـي جهاد دائم لا ينتقطع أبدا لتحقيق كلمـة الله فـي الأرض أي لتحقيق النظام الأصلح الذي يقوم على مبادئه العليا في عـالم الفرد والجماعة البشرية. وهـو مكلـف ألا يهـادن قـوى الطاغوت على الأرض في صورة فرد أو جماعة أو طبقة أو

دولة مستغلة. قوة الإسلام قوة محررة تنطلـق مـن الأرض لتدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال دون نظـر إلـى جنس أو لغة أو أرض أو لون، ومنع الظلم عن المسلمين أو الذميين. والإسلام يواجه قوى الطاغوت بثلاث: الإسـلام أو الجزية أو القتال. فالإسلام دين الحرية والجزية والكف عـن المقاومة، والقتال الرد على المقاومة، إن الإسلام قوة تحررية تنطلق في الأرض لتقرر ربوبية الله وحده للعبـاد وتحـرر البشر من اغلالهم وتمنحهم الحرية والنـور والكرامـة دون نظر إلى عنصرية أو طبقية. فإذا اصطدمت هذه القوة بقـوة الشر والطغيان والاستعباد كافحت هذه القوة الشريرة وحدها مبرأة من كل غاية استعمارية أو اقتصادية. حرب الإسـلام حرب التحرير البشرية، الحرب على عبودية البشر لناس من البشر وعلى الطغيان والظلم والشـطط وعلـى الخرافـات والأوهام والأساطيل، حرب التحرير الخالصة مـن الهـوى والدوافع الاقتصادية والعنصرية والطبقية لا تـديرها رووس

الأموال، ولا تبتلع الحضارات والمدنيات أو تحطم النفـوس والأخلاق(١٥١).

ولكن بدايات القطيعة مع الثورة ظهرت فـي "دراسـات إسلامية"(١٥٢).

حيث يظهر محمد بن عبد الله محطما للطواغيـت، فقـد تشخص الإسلام في محمد وظهـرت قوتـه فـي تحطـيم الطواغيت مما يدل على بدايات فكر المضطهدين، كما هـو الحال عند الشيعة تحت الحكم الاموي القائم على تشـخيص الأفكار والصراع بين الحق والباطل فتحول الفكر الإسلامي من معارك الإسلام والرأسمالية إلى معارك من أجل تأكيـد الإسلام وسط الدعوة الوطنية الثورية الاشـتراكية الجديـدة والتاكيد على نقد الغرب والشرق واستقلال الأمة الإسـلامية من الكتلتين ثم ظهور الحاكمية كاقوى سلاح لتأكيد التـراث ضد العواطف الوطنية والغربية الجديدة.

---

(١٥١) المصدر السابق ص ١٧١ وما بعدها، ص ١٨٨، ص ١٩٦.

(١٥٢) يضم مجموعة مقالات معظمها كتب في ١٩٥٢ ولـيس دراسـة اكاديمية كما يوحي العنوان بل نضال ومعارك مع بدايات الحكم الجديد.

وقد استمرت الدعوة الاجتماعية وإن كانت حدتها قد خفت أحيانًا وتحولت من أسسها الاجتماعية والاقتصادية الخالصة إلى أسسها الخلقية. فالتربية الخلقية وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي، وهي تربية ابتداء من ضمير الفرد وليست مجرد إحضار للمنفعة إلى محيط الأسرة ثم إلى محيط الجماعة. ومع ذلك ينشر الأخوان البرنامج الاجتماعي مع برامج الأحزاب عشية الثورة المصرية وفيه تطهير شامل كامل للحياة الملكية ومعاونيها والاستقراطية الكاذبة ويعلنون أن الملكية الفردية في صورتها الراهنة حرام تجعل ثلث الأراضي الصالحة للزراعة في يد الملك وأسرته. وقد حولت دوائر التفتيش الناس في مصر إلى أرقاء، ويطالبون بتحديد الملكية الزراعية، ويحددون علاقة المالك بالمستأجر ويختارون نظام المزارعة فالإيجار النقدي أو العيني طالما ظلم المستأجرين، ويطالبون بتحديد الدخل، وتقريب الفوارق بين الحد الأعلى والحد الأدنى في الأجور والمرتبات، وضمان حد أدنى للجميع: مطعم كاف، وملبس واق، ومسكن مريح، وعلاج وتعليم بالمجان، وضمانات اجتماعية ضد المرض والعجز والشيخوخة والبطالة، فإن لم تكف الزكاة

أخذت الدولة فضول أموال الأغنياء فردتها علـى الفقـراء، ويطالبون بإدخال العمال الزراعيين في النقابـات وتطبيـق قوانين العمال عليهم وإباحة تكوين اتحادات العمال[١٥٣].

وفي الوقت الذي كان الاستقلال الوطني يتم عن طريـق الغرب والتفاوض معه وكان التغريب منتشرا في أذهان القادة الوطنيين القدماء أو الجدد فان نقد الفكر الإسـلامي للغـرب تواصل من أجل تأكيد هوية الأمة الإسلامية واستقلالها عـن الكتلتين. فالعالم الحر اسم يطلقه الاستعماريون على أنفسـهم تأكيدا لعنصريتهم ومنعا للحرية عـن غيـرهم. يسـتغلون المؤسسـات الدوليـة والهيئـات التعليميـة لأغراضـهم الخاصة[١٥٤].

---

[١٥٣] دراسات الإسلامية ص ٩٤ – ٩٦.

[١٥٤] يضرب سيد قطب المثل باليونسكو، والنقطة الرابعة، والجمعيـة المصرية الانجليزية، وجمعية نادي المعلمين، وجمعية نادي الجزيـرة، وجمعية الفلاح، وجماعة اخوان الحرية التي أنشأها أمين عثمان تأكيدا للصداقة المصرية الانجليزية مما يشير إلى نفس الظروف التي خـرج منها الضباط الاحرار الذين راح سيد قطب ضحيتهم. ويبنه سيد قطـب =

لقد طالما حاول الاستعمار ذاته القضاء على الإسلام في شتى أنحاء العالم الإسلامي. وفي نفس الوقت تعدي الدول الأوروبية أنها تحترم حرية الأديان. وتدعي فرنسا الحرية بالرغم من حملاتها الصليبية في الجزائر "ولقد عجز الدكتور طه حسين هو في وزارة المعارف – وهو أصدق أصدقاء فرنسا – أن يفتتح معهد المعر في الجزائر أو حتى في طنجة التي تحكم دوليا بسبب تعصب صديقته الكبرى فرنسا"[١٥٥].

وفي نفس الوقت يقال: المسلمون متعصبون لأنهم يدعون إلى تكوين كتلة لإنقاذ العالم الإسلامي مما يقع عليهم من أبشع أنواع القهر والاضطهاد الديني في القرن العشرين في آسيا وإفريقيا وايقاع العالم الإسلامي في الأحلاف الاستعمارية. ولا ضير من استعمال "إسلام أمريكاني" يتحدث عن مزايا الشعائر وتسامح الدين والزكاة للفقراء وحوار بين

رجال العهد الجديد عدم الوقوع في ذلك الفخ. المصدر السابق ص ١٦١ – ١٦٣.

[١٥٥] المصدر السابق ص ١٧٩.

الإسلام والكثلكة من أجل إبراز التعـارض بـين الإسـلام والشيوعية.

وتقوم الديموقراطيات الشعبية في الشرق وهي لا تحمـل إلا الاسم لأنها تقوم على الدكتاتوريـة والـنظم البوليسـية والجاسوسية وتمنع حرية الفكر. هذا بالإضافة إلى محاولـة القضاء على الإسلام والمسلمين في آسـيا فـي التركسـتان والقرم وأوربا الشرقية فيمتزج في الغـرب والشـرق معـا التعصب الديني والتعصب العنصري من أجل تحويل شعوب العالم إلى هنود حمر أو عبيد سود. فالبشرية اليوم في مفترق الطرق، وستحتاج فيما بعد إلى "معالم في الطريق".

وتبلغ قيمة هذه الفترة أيضا في تصور الإسلام على أنـه ثورة تحريرة كبرى في وقت اندلعت فيه الثـورة المصـرية ومحاولة الفكر الإسلامي تمثلها وتجاوزها. فقد حطم الإسلام الطواغيت كلها. في الضمير وفي الواقع. كان الإسلام ثورة تحررية كاملة للإنسانية شملت كل نواحي الحياة الإنسـانية. كان ثورة على طاغوت الشرك في عالم العقيدة، وثرة علـى طاغوت التعصب العنصري ضد الجنس واللون وأعلن وحدة الأصل الإنساني ووحدة الجنس البشري، وثورة ضد طاغوت

التعصب الديني معلنًا حرية الاعتقاد، وثورة على طـاغوت التفرقة الاجتماعية والنظام الطبقي في مجتمع كـان يفخـر بالأنساب والأشراف، وثورة على طاغوت الظلـم والبغـى والطغيان جردت الحكام والسلاطين من كل امتياز وسـلطان لأنها ردت الأمر كله لله في التشريع وردت الأمر كله إلـى الأمة في اختيار من يقوم على تنفيذ التشريع، إن انتزاع حق التشريع من البشر ورده الله وحده سبحانه لم يبق لواحد مـن البشر أو لجماعة أو لطبقة أي مجال للتحكم في الآخرين ولا أي منفذ يعلو به فرد على فرد أو فرد على جماعة أو طبقـة على طبقة، إن الحاكمية لله سبحانه وليس لغيره أن يشرع إلا استمدادا من شريعته، والله رب الجميع. وإذن فلن تكون فـي تشريعه محاباة لفرد أو جماعة أو طبقة. ولن يحس أحد أنـه حين ينفذ القانون خاضع لمشيئة أحد، إنما هو خاضع لله رب الجميع، ومن ثم تتساوى الرؤوس، وترتفع الهامات جميعـا لأنها لا تعنو جميعا إلا لله وحده "وأما من يقوم علـى تنفيـذ التشريع فإنه لا يشرع بل ينفذ. وهو يستمد حقه فـي القيـام على التنفيذ من اختيار الأمة له. والطاعـة المفروضـة لـه ليست طاعة لشخصه إنما هي طاعة لشريعة الله التي يقـوم

على تنفيذها ولا حق له في الطاعة حين يتعداها. فان وقـع خلاف على أمر من الأمور التنفيذية فالحكم فيه هو الشريعة ذاتها"[١٥٦]. والإسلام أيضا ثورة على طاغوت الرجل من أجل حقوق المرأة. فالحاكمية لله إذن تعني ثورة على لطواغيـت، وتحرر للبشرية. ولا يحكم الله بذاته بل من خلال الشـريعة، والقائم عليها منفذ لها وليس مشرعا والمطيـع لهـا مطيـع للشريعة وليس مطيعا للقائم على تنفيذها فلا طاعة لمخلـوق في معصية الخالق. "أننا، ندعو إلى نظام الحاكميـة فيـه لله وحده لا لفرد من البشر ولا لطبقة ولا لجماعة وبذلك تتحقق فيه المساواة الحقيقية، ولا يكون لحاكم فيه حقوق زائدة على حقوق الفرد العادي من الشعب ولا تكون هناك شخصـية أو شخصيات مقدسة فوق مستوى القـانون. ولا تكـون هنـاك محاكم خاصة للشعب ومحاكم خاصـة للـوزراء أو غيـر الوزراء، إنما يقف فيه الحاكم الأعلى مع أي فر من الشـعب أمام القضاء بلا تمييز ولا استعلاء، إننا ندعو إلى نظام يجعل لجميع المواطنين حقًا عاما في الثورة العامة لان الملكية فيـه

[١٥٦] دراسات إسلامية ص ١٦ – ١٧.

أصلها للجماعة مستخلفة فيها عـن الله، والملكيـة للفرديـة عارضة وفي حدود الانتفاع. والفضل للجماعة حين تحتـاج إلى فضل الأموال"[157].

وتبدو الحاكمية في مظهرها، السـلبي رفـض العبوديـة للبشر، فتظهر على أنها تحرير للروح البشرية من العبوديـة لغير الله من الأرباب المتفرقـة مـن الأوهـام والشـبهات. "والعبودية لغير الله من الأرباب المتفرقة سواء هي العبودية للاوهام والخرافات والأساطيل، والعبودية للشهوات والنزوات الهابطة، كلها تنفق الطاقة البشرية في غير ما يليق بالإنسان، وكلها تصرفه عن التطلع للبناء والتعمير والإنشـاء وكلهـا تصده عن النهوض بتكاليف الحياة الكريمة التي أرادهـا الله لبني الإنسان.. وليس هنالك اختلاف ظاهري بين اوضـاعنا الحاضرة والأوضاع التي كانت مع عهد الرسول مـن هـذه الوجهة، وأن خيل إلى البعض أن الدعوة إلى تحرير البشـر من عبودية الأرباب المتفرقـة لا موضـع لهـا اليـوم ولا ضرورة. كلا! فان عبادة الأرباب المتفرقة اليوم لا تـنقص

---

[157] المصدر السابق ص ٨١ – ٨٢.

من عبادة الأرباب المتفرقة في الجاهلية، كل ما تغير هو نوع الأرباب لا عبادة الأرباب. أما عبـادة الشـهوات، وعبـادة الخرافات فهما على حالهما بغير اسـتثناء"[158]، إن البشـر يدفعون ضريبة الذل أن هم عنوا الـرؤوس لغيـر الواحـد القهار، ويتحولون إلى عبيد بمحض اختيارهم ولكن العبودية لله هي التي تحررهم. العبودية لله هي التي تعطـي البشـر حرية الكلمة والقدرة على الجهر بالحق، إنه في ذلك التصميم الحاسم على تحويل الكلمة المكتوبة إلى حركة حسية والمعنى المفهوم إلى دافع ملموس[159]. عبارات وتلك ستسخدم فيمـا بعد للتعبير عن التصور الإسلامي والتفرقـة بـين العقائـد والفلسفات.

لذلك استطاع الإسلام أن يكافح الظلم وان يقـف بجانـب المظلومين يصرخ في وجه الطغاة والمتجبرين. "أن الإسلام في صميمه حركة تحريرية تبدأ في ضمير الفرد وتنتهي في محيط الجماعة. وما يعمر الإسلام قلبا ثم يدعـه مستسـلما

---

(158) المصدر السابق ص ٧٤ – ٧٥.

(159) المصدر السابق ص ١٨٣.

خاضعا لسلطان على وجه الأرض إلا سلطان الواحد القهار. وما يعمر الإسلام قلبا ثم يدعه صابرا ساكنًا الظلم في صورة من صوره جميعا سواء وقع هذا الظلم على شخصه أو وقـع على الجماعة الإنسـانية فـي أيـة أرض وفـي ظـل أي سلطان"[١٦٠] ومن هنا اتى التعارض بين الحق والباطل، بـين الإسلام واللاإسلام دون أن يظهر بعد مفهوم الجاهلية. "إنـه إسلام أو لا إسلام. إسلام فهو كفـاح لا يهـدأ أو جهـاد لا ينقطع، واستشهاد في سبيل الحق والعـدل والمسـاواة أو لا إسلام. فهو إذن همهمة بالأدعية وطقطقة بالمسابح وتمتمـة بالتعاويذ، واتكال على ان تمطر السماء على الأرض صلاحا وخيرا وحرية وعدلاً. وما كانت السماء لتمطر شيئًا من هذا كله، وما كان الله ينصر قوما لا ينصرون أنفسهم، ولا يثقون بأهلهم، ولا ينفذون شريعته في الجهاد والكفاح"[١٦١]. وهذا هو معنى القتال لتكون كلمة الله هي العليا. "فكلمة الله هنا تعنـي كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد. وكل قوة مادية تقوم في

---

[١٦٠] المصدر السابق ص ٣١.

[١٦١] المصدر السابق ص ٣٢.

وجه هاتين الحريتين أو إحداهما هي قوة معتدية مضادة لكلمة الله الذي كرم الإنسان وجعله على نفسه بصيرة، وجعل عقله هو الحاكم، وإرادته هي مناط التكليف، واعتبر الوقوف بالقوة في وجه الدعوة أو استخدام القوة للإكراه على العقيدة معطلاً لكلمة الله. فمن قاتل لكلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله(١٦٢). يحرم الإسلام الانضمام إلى قوى الطواغيت ويحتم دفع الظلم عن البشرية. حرب الإسلام هي حرب التحرير البشرية، حرب على عبودية البشر للبشر.

وقد تحققت هذه الثورة بالفعل بعد أن توفرت عناصر ثلاث: عدم المساومة على الحق، وتحويل العقيدة إلى حياة وحركة ابتداء من ضمير الفرد، وتحويل الإسلام كله إلى نظام شامل للحياة. فثورة الإسلام تنبع من طبيعته وليس من القائمين على تنفيذه "ولذلك اختفت من الإسلام اسطورة فصل الدين عن الدولة لأنه لا دولة بلا دين، ولا دين بلا شريعة ونظام"(١٦٣). الإسلام عقيدة الضمير، ينبثق منها سلوك في

---

(١٦٢) المصدر السابق ص ٤١.

(١٦٣) المصدر السابق ص ٢٨، ص ٧٣.

المجتمع ويقوم عليها نظام للحياة. نظام كامل يتناول نشـاط الفرد في حياته العائلية وحياته الاجتماعية وحياته الدوليـة. ويحكم على علاقاته المتنوعة في تلك الميادين كلها، ويضـع الشرائع التي تنظم هذه العلاقات". ليس في الإسلام دعوة أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله لأن الإسلام يعتبر كل شـيء لله ولا يعرف قيصر ألا منفذ الشريعة الله، منظما للحياة بقانون الله.

كذلك يرفض الإسلام أدب الانحلال "الدنيا سيجارة وكاس" لأنه أدب يخدر الشعوب ويستذل النفوس البشـرية ويقضـى منها روح الكفاح. وهو ما فعله الأمويون ليأمنوا أهل الحجاز والتاريخ يعيد نفسه. "عندئذ انطلق كتاب وشعراء وفنـانون، يسبحون بحمد الطاغية الصغير، ويسجدون له مـن دون الله ويخلعون عليه من صفات الله سبحانه ما لا يجرؤ مسـلم أو مسيحي على النطق به حياء من الله[١٦٤]. كما يرفض مواكب الفارغات الحفنة الفارغة من النسـوة والمتشـدقات الـذين يحكون عن المرأة والبرلمان والمرأة والـوزارة. والإسـلام

---

(١٦٤) المصدر السابق ص ١٤٩.

أعطى المرأة جميع حقوقها في الدراسة والعمـل، والتجـارة والقتال.

وفي نهاية المرحلة الاجتماعية نستخلص النتائج الآتية:

١. تطور سيد قطب تطورا طبيعيا عـن الأدب إلـى الوطنية إلى الاشتراكية إلى اكتشـاف الإسـلام كوعاء حاول لكل هذه التيارات. ولو كان استمر تطوره على نحو طبيعي لانتهى إلى الاشـتراكية العلمية كمرادف للإسلام، ولأصبح مـن ركـائز اليسار الإسلامي في مصر ومن دعائمه الأولـى في العالم الإسـلامي. ولكـن انـدلعت الثـورة المصرية في ١٩٥٢ وحققت ما كان ينـادي بـه سيد قطب من عدالة اجتماعية ومقاومة الاستعمار والصهيونية ودعوة إلى تكوين كتلة ثالثـة بـين المعسكرين. ولكن نظرا للتخلف الحضاري وعدم استطاعة الضباط الأحـرار جعـل مضـمونهم الثوري من داخل الإسلام وعجز الأخـوان عـن جعل قالبهم الإسـلامي قـادرا علـى احتـواء المضمون الثوري، ونظرا للصراع على السلطة

فقد كان كل فريق ضحية التصور الهرمي للعالم ظانًا أن السلطة هي أداة التغير الاجتماعي حدث الصدام المؤسف بـين الثـورة والأخـوان فـي ١٩٥٤. واستمر هذا الصراع على طول تـاريخ الثورة وراح سيد قطب ضحية هذا الصراع فـلا هو طور أفكاره الاشتراكية الأولى مـن خـلال الممارسة السياسية الفعلية بعد أن ميعتها الثـورة ولا هو استطاع تأصيلها في الإسلام نظرا لحـل جماعة الأخوان المسلمين. أصبح محصورا بـين دفتي الرحى من أنه كان مؤهلاً للقيـام بالوحـدة الوطنية وبإنشاء اليسار الإسلامي الذي يمكـن أن تلتقي عليه الثورة والأخوان[١٦٥] لـم يبـق مـن

---

[١٦٥] كان الكثير يراجعونني حين يرونني اكتب في "الـدعوة"، مجلـة الاخوان المسلمين، وفي "الاشتراكية" جريدة الاشتراكيين، وفي "اللـواء الجديد" جردية الوطنيين. وكنت أقول للجميع: أنني أخـوض المعركـة على صفحات الصحف جميعا تحت راية واحدة، رايـة الإسـلام، أن الإسلام يكافح في ميـدان العدالـة الاجتماعيـة الـذي يكـافح فيـه الاشتراكيون، وفي ميدان العدالة الوطنية والسياسية الذي كـافح فيـه

=

الأخوان إلا التيار المحافظ الذي منـه خرجـت الجماعات الإسلامية مع أخذ بالثأر لشهدائها مـن الثورة خاصة وأن سيد قطب كان محط الشـكوك من الأخوان وكان منهم من يتهمه بالخروج على أفكار حسن البنا، وتأثره بالاتجاهـات الوطنيـة الاشتراكية والشيوعية.

٢. لم تظهر الحاكمية لله ألا بمعنى الحاكمية للتشريع. فالحاكم للشريعة وليس لله والحاكم يستمد سلطانه من البيعة وليس من الله. وهذه الحاكمية التشريعية ليست ضد نظم البشر كلها في ذاتها ولكنها ضـد نظام بشري واحد بعينه وهو الذي يقـوم علـى الظلم الاجتماعي والعدوان على حرية الاعتقـاد. ولا يوجد أثر أو ذكر أو استشهاد بأبي الأعلـى المودودي كما سيحدث فيما بعد وهو في غيابات السجن. وبالتالي لم تخرج الجماعات الإسـلامية

الوطنيين، وفي ميدان العدالة الانسانية الـذي يكـافح فيـه الاخـوان المسلمون. دراسات الإسلامية ص ٩٧.

من هذه الفكرة الأولى بل من الحاكمية لله نظـرا لتشابهها معه في الموقف النفسي "نفسية السجين".

٣. بالرغم من معركة الإسلام ضد الرأسمالية وظهور الإسلام كدين العدالة الاجتماعية الذي يدافع عـن حقـوق الفقـراء ضـد الأغنيـاء ألا أن بقايـا التصورات الرأسمالية مازالت باقية عنـد سـيد قطب مثل حق الملكية الفردية وحق الإرث تعبيرا عن حب الذات في حين أن الله هو المالك وحـده وأن الإنسان مستخلف فيما بين يديه. ومن هـذه البقايا تخرج الجماعات الإسلامية المعاصرة دون تطوير للفكر الاجتماعي الإسلامي.

٤. بالرغم من معاداة سيد قطب للحضـارة الغربيـة المادية وفقده للنظم الرأسمالية والشيوعية على حد سواء وإدانته للمذهب المادي ومظاهر الانحـلال والجنس في الغرب إلا أن الجماعات الإسـلامية المعاصرة قد خفت حدتها فـي نقـدها للغـرب وزادت حدتها في نقدها للشرق، فازدادت نسـبة تسرب العناصر الرأسمالية في فكرها، وابتعـدت

عن رؤية بعض مظاهر العدالة الاجتماعية في النظم الاشتراكية حتى رأى الغرب فيها حليفًا طبيعيا له ولعدائها المستميت ضد الشيوعية بالرغم من تحذير سيد قطب من الإسلام الأمريكاني، وركزت اهتمامها على تحريم الجسد وكأن العالم يسير بالغرائز، وكأن البشر حيوانات، مدفوعة بالجنس. وكلما زاد التحريم زاد الإشباع المقلوب.

٥. ظهر الواقع الإحصائي عند سيد قطب ولجأ إلى الأنظمة الاجتماعية محللاً اياها كعالم اقتصاد واجتماع وسياسة وقانون وتاريخ. بل أنه نادرا في "معركة الإسلام والرأسمالية" ما يعتمد على النصوص الدينية ولكن الجماعات الإسلامية المعاصرة تراجعت عن هذا المنهج واعتمدت اعتمادا كليا على قال الله وقال الرسول، وأصبحوا خطباء ووعاظ أكثر منهم علماء ومفكرين. وغاب التحليل الكمي للواقع واقتصروا

على ترديد الشعارات العامة بلا مضمون اجتماعي للأمة الإسلامية.

٦. تظهر أحيانًا عند سيد قطب بدايات الثنائية المتصارعة المتعارضة التي لا واسطة بينها. فالإسلام أما أن يؤخذ كله أو يترك كله خذوا الإسلام جملة أو دعوه"[١٦٦]. وقد أصبح هذا الجدل بين الكل أو لا شيء طابعا مميزا لفكر الجماعات الإسلامية وسلوكها وبالتالي غاب الحوار، وتوارى العقل، وبرز الهوى والانفعال. غابت فكرة المراحل والاستكمال والتطوير والاحتواء.

٧. بالرغم من نقد سيد قطب لتحويل الإسلام إلى دين شعائري تمتمة بالشفاة، وتسبيح بالأصابع، وإطالة اللحى والحرص على السلام كشريعة ونظام فان الجانب الاجتماعي عند الجماعات الإسلامية قد توارى وبرز الجانب الشعائري المظهري. توارت هذه المرحلة الاجتماعية ولم تحدث أثرا

---

[١٦٦] المصدر السابق ص ٨٦ – ٩٢.

في الجماعات الإسلامية المعاصرة باستثناء بعض كتابات نظرية تقليدية عن الاقتصاد الإسـلامي، وإعادة تحريم فوائد شهادات الاستثمار ضد فتاوي الإمام محمد عبده وبعض الفقهاء والمحدثين. لـم يحدث تطبيق مباشر للاقتصاد الإسلامي في حالة مصر أو الحجاز أو باكستان.، فما أسهل تقـريظ النظريات وما أصعب تحليـل الواقـع وقيـاس المسافة الشاسعة بين النظريـة والواقـع. وممـا يساعد على هذا التحول من الجانب الاجتمـاعي إلى الجانب الشعائري ما تقوم بـه الدولـة مـن احتكار للقضايا الاجتماعية وتغطيتها بشـعارات إسلامية مثل تطبيق الشريعة الإسلامية، والترويج للإسلام الشعائري في أجهزة الإعـلام اضـفاء للشريعة على واقع الظلم الاجتماعي، والتـرويج للقيم السلبية من التراث الصوفي مثـل الإيمـان والصبر والمحبة والرضاء والتوكل ومن التراث العقائدي مثل القضاء والقدر، وتكفيـر الخصـوم السياسيين واتهام دعاة التغيير الاجتماعي والعدالة

الاجتماعية بالكفر والإلحاد، والاحتفال بالموالـد وإنارة المإذن، وبناء المساجد، والنداء للصلاة في أجهزة الإعلام، وبناء مجمع للأديان!

ثالثًا: المرحلة الفلسفية: (١٩٥٤ – ١٩٦٢):

تبدأ المرحلة الفلسفية نفسيا أكثر منها تاريخيا وذلك بعد أن احتكرت الثورة العمل السياسي وقامت بتنفيذ بعض مطالـب العدالة الاجتماعية مثل قوانين الإصلاح الزراعـي وبعـض المطالب السياسية مثـل معـاداة الاسـتعمار والرأسـمالية والإقطاع. ولكن بعد صراع الثورة مـع الأخـوان، بـدأت المعركة الاجتماعية في فكر سيد قطب في الانحسار وبرزت تعويضا عنها شيئًا فشيئًا بعض المسائل النظرية التي بلغـت ذروتها في "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته"، وقد بدأ هذا الانحسار واضحا في "المستقبل لهذا الدين" ثم في "نحـو مجتمع إسلامي" حيث يتجاوز الإسلام النظامين الرأسـمالي والشيوعي، ويصبح قادرا على أن يعـرض نفسـه كنظـام مستقل. ثم بدأ العرض النظري التصوري لهذا النظـام أولاً في "هذا الدين" ثـم فـي "خصـائص التصـور الإسـلامي

ومقوماته" الذي طالما وعد به والذي لم يصدر إلا الجزء عن المقومات"[١٦٧].

ويغلب على هذه المرحلة أربعة موضوعات رئيسية: نقـد الحضارة الغربيـة، وأن المسـتقبل للإسـلام، وخصـائص التصور الإسلامي، وأخيرا حاكمية الشريعة.

فالحضارة الغربية ليست نمطًا مثاليا لكل حضارة بل هي حضارة خضعت لظروفها الخاصة ولطبيعة معطاياتها الدينية خاصة المسيحية وردود الفعل عليها. فكل دين، وليس فقـط الإسلام، تصور للإنسان والحياة والكون ينشأ منه نظام. فبعد أن اكتشفت الحضارة الأوروبية بعد دينها عن الحياة، وفصل ملكوت السموات عن ملكوت الأرض، وما به مـن عقائـد

---

(١٦٧) لم نستطع للاسف رصد تاريخ الطبعات الأولى لهـذه المؤلفـات الأربعة. ولكن طبقا لمحمد علي قطب ظهر "هذا الدين" "المستقبل لهـذا الدين"، "نحو مجتمع إسلامي" وهو في فترة اعتقاله الأول ابتـداء مـن ١٩٥٤ أي في منتصف الخمسينات محمد علي قطـب "سـيد قطـب، الشهيد الاعزل" ص ١٩ – ٢٠. أما "خصائص التصـور الإسـلامي ومقوماته" فيبدو أنه من اواخر الخمسـينات لان "الإسـلام ومشـكلات الحضارة" الذي صدر ١٩٦٢ يحيل اليه.

ظنية، وساطة كهنوتية قام بعملية رد فعل على ذلك ولجأ إلى العالم، والعالم، والمدة، والطبيعة. فنشأت المادية الأوروبيـة المشهورة كتيار أساسي تقوم عليه جميع مذاهبها الاقتصادية والسياسية، والرأسمالية منها والشيوعية. آمنـت الحضـارة الغربية بالعلم، هذا الإله الغربي الجديد، الـذي يقـوم علـى تصور خاص للمادة. ثم بدأت البشرية اليوم فقد الثقة في هذا الإله الجديد بعد أن انفلتت من قيود العقيدة التي هي عبادات جديدة مثل إلهة أمريكا الجديدة: الإنتاج، المال، اللذة، وإلهـة الماركسية الجديدة، المادة، الاقتصاد، وماركس. ولم تسـتطع هذه الإلهة الاجديدة ملأ الفراغ الروحي وإعطاء الثقة بالنفس وراحة الضمير فانتهت الحضارة الغربية إلى الخـواء التـام على الرغم مما يبدو في الظاهر مـن زحمـة وامـتلاء "أن البشرية في حاجة الينا"[١٦٨].

---

[١٦٨] نحو مجتمع إسلامي ص ١١ – ١٣، سيد قطب، امريكـا التـي رأيت وعد باصداره في الطبعة الثانية في العدالـة الاجتماعيـة فـي الإسلام ويقتبس منه فقرات بالفعل في "الإسلام ومشكلات الحضـارة" ص ٨٢ – ٨٧ عن مشاهداته في مواضيع الكنيسة والمجتمع والعلاقات =

وقد حدث الفصل النكد في أوربا بعد أن اكتشفت زيف معطياتها الدينية. فبعد أن وقع الفصال بين المسيحيين واليهود رفض المسيحيون شريعة التوراة كما رفض اليهود من قبل شريعة عيسى التي اتى بها تخفيفًا لشريعة موسى. وبعد دخول الإمبراطور قسطنطين المسيحية حدث تحول عظيم فيها. فتحولت من دين إلى دنيا وتم اضطهاد الفرق المسيحية المعارضة مثل "المونوفيسية" التي كان عليها أهل مصر الذين استقبلوا العرب القائمين كمخلصين لهم من الاضطهاد الديني والقهر السياسي. كل ذلك أدى إلى وقوع الزيف في التصور النصراني بالإضافة إلى تسلط الكنيسة على رقاب المؤمنين وتهديدهم بالطرد والحرمان وإنذارهم بالنار هم أخذوا من طيبات الحياة. كانت الرهبانية مضادة للفطرة والطبيعة، واحتكرت الكنيسة تفسير الكتاب المقدس وتفسير العلم وقع الصراع بين الأباطرة والبابوات حتى قامت الثورة المعاصرة على الدين منذ الإصلاح الديني حتى العصر

بين الجنسين ولكن يبدو أنه لم يصدر ولم نستطع العثور عليه أو الاهتداء اليه.

الحاضر،ضد هذا الفصام النكد بين الـدين والحيـاة، وبـين التصور والنظام. وثار المجددون المتنورون علـى مآسـي رجال الدين ورذائلهم ورفضوا الدين في رفضـهم لرجـال الدين وابعدون عن الحياة فحوت الفصل النكد[١٦٩]. وهي كلها ظروف خاصة بنوعية دين بعينه ومساره في التاريخ ولـيس كل دين وكل مسار، وهو ما لا يعرفه المقلـدون المـرددون لكل ما ينتجه الغرب. وأن "جناية الحضارة الراهنة وسـبب فسادها الأساسي، وإهدارها للقـيم الإنسـانية والخصـائص الإنسانية والمقومات الفردية.. يكمن في رفضـها ابتـداء أن يكون للدين – بوصفه منهجا للحياة مـن عنـد الله – هـذه الاختصاصات وهذا السلطان أي رفضها لألوهية الله سبحانه، هذا الرفض المتمثل في اتخاذ مناهج للحياة غير منهجه ولـو لم تعلن رفضها لألوهية الله جهرا – كـالبلاد الشـيوعية – فاتخاذ مناهج من صنع البشـر هـو رفـض لألوهيـة الله قطعا[١٧٠]. لقد جعل الله الإنسان سيد الآلة والمادة والاقتصـاد

---

[١٦٩] المستقبل لهذا الدين، فصل النكد ص ٢٧ – ٥٤.

[١٧٠] الإسلام ومشكلات الحضارة ص ١١٨ – ١٢٠.

وليس خاضعا لها. "فالجاهليات القديمة كانت جاهليات جهـل وسذاجة وفتوة، أما الجاهلية الحاضرة فجاهلية علم وعقيـدة واستهتار[١٧١]. لكانت الجاهليات الأولى قريبة مـن البـداوة ولكن بها أخلاق البداوة أما جاهلية اليوم فعنيفة مكشوفة حرية مبتذلة خالية من القيم.

نشأت جميع الاتجاهات الأوروبية مناهضة للـدين مـن عقلية مثالية ووضعية حسية وجدلية مادية. فبعد سيادة النص أو الدين ساد العقل وتزايد الشعور بالثقة به والجـرأة علـى الواقع والإيمان بالمنافع البشرية. ثم ساد الحس للتخفيف مـن صورية العقل ونشأت المذاهب الوضعية. وأخيـرا سـادت المادية الجدلية التي عليها قامت الماركسية. هذه الاتجاهـات كلها انحرافات بشرية كرد فعل على تشويه المجامع الكنسية للتصور الديني. وانتهت الحضارة الأوروبية إلى نصب إلهة آخرين بدل إله الكنيسة، إلهة العقل، والحس، والمادة، وهـي كلها انحرافات عن التصور الرباني[١٧٢].

---

[١٧١] هذا الدين ص ٩٣ – ٩٥.

[١٧٢] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٦٨ – ٨٤.

أما على مستوى المذاهب الاقتصادية فقد نشأت الرأسمالية على المذهب المادي وانتهت إلى الاحتكار والاستغلال وكان الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية كما يقول لينين ثم جاءت الشيوعية كرد فعل طبيعي عليها منعا للاحتكار والاسـتغلال وهي بالتالي تمثل تقدما بالنسبة للرأسمالية ولكنهـا مازالـت نظاما يقوم على مذهب مادي نتيجة للفصام النكد ولا يرتكـز على عقيدة الإيمان بالله بل على أدوات الإنتاج التي عنـدما يسيطر عليها البروليتاريـا تقـود العـالم ومهمـا حاولـت الماركسية تغيير وتطوير نفسها فإنها تتحطم ولا يبقى منهـا إلا الدولة والنظام البوليسي[١٧٣]. جـاءت الشـيوعية تفسـر التاريخ تفسير ماديا لتعطي مبادئ الثورة الفرنسـية نطاقًـا أوسع من الوجودية والبرجماتية ولكنها أيضا عجزت عن أن تمد الإنسانية بعقيدة وان مدت الغرب بعقيدة تمـلأ فراغـه الروحي والفكري لدى المثقفـين وتسـحر طبقـة العمـال المستغلين "أن الشوعية هي النهاية الطبيعية لحضارة خاليـة

---

[١٧٣] المستقبل لهذا الدين ص ٥٨ – ٦٤.

من الروح حاوية من المثل، مجردة من الأحلام"[١٧٤]. عمرها قصير ولا تجذب ألا الشعوب الأوروبية.

لقد أعلن كثير من مفكري الغـرب نهايـة دور الرجـل الأبيض وتنبأ رسول بانتشار الشيوعية فـي آسـيا والعـالم العربي باستثناء الهند[١٧٥] وقد يؤكد ذلك تبنى الصين للمذهب الشيوعي والعالم العربي والإسلامي في الطريق إليها. ولكن سيد قطب يرى أن النبؤة صحيحة فـي أولهـا ولـيس فـي آخرها. فلقد انتهى عصر الرجل الأبيض بالفعل. ولـم يعـد يصلح لقيادة العالم. فلقد أصيب بالعقم بعـد الماجنـا كارتـا الإنجليزية ومبادئ الثورة الفرنسية ومبادئ الحرية الفرديـة التي سارت فيما يسمونه بالتجربة الأمريكية. ولكـن يغيـب منها كلها الاعتقاد بإله نتيجة للفصام النكد. وبالتالي لم تعـد صالحة للبقاء لأنها لا تقوم على الإنسان كقيمة بل على المادة أو الإنسان الضائع الهائم على وجه كمـا هـو الحـال فـي

---

[١٧٤] نحو مجتمع إسلامي ص ٢٢.

[١٧٥] المستقبل لهذا الدين، فصل انتهى دور الرجـل الأبـيض ص 55 ،٦٩ نحو مجتمع إسلامي ص ٢٧ – ٤٥.

الوجودية. وقد شهد شاهد من أهلها ضد الحضـارة الماديـة القائمة لقتلها أهم خصائص الإنسان وأطلق فيها صيحة مدوية بالأخطار التي تهدد الجنس البشري من جراء الاعتداء على القوانين الطبيعية التي لا تدع المعتدين عليهـا بـلا عقوبـة وأعلن جهل العلم بحقيقة الإنسان بل بأبسط حقـائق تكوينـه الجسدي[١٧٦] فإن الحرية والإخاء والمساواة. كانـت غايـات محدودة بفترة معينة من الزمن وبآفاق معينة. فكانـت عنـي الحرية الشخصية في كل ميدان، وكانـت المسـاواة تعنـي المساوة في الحقوق المدنية وليس في الحقـوق الاجتماعيـة والاقتصادية. وظل مبدأ الإخاء مسألة نظرية صـرفة. ولـم تعط أمريكا شيئًا على مستوى المبادئ والمثل.

ويدخل نقد الحضارة الغربية ضمن إطار فلسفة التـاريخ فكما أزاح الإسلام في نشـاته الامبراطـوريتين القـديمتين الفارسية والرومانية وشق طريقه وسطهما ثم احتواهما كذلك يكون مستقبل الإسلام في مواجهة النظامين العالمين الحاكمين الآن الرأسمالية والشيوعية. سيزحف الإسلام عليهما حاويـا

---

(١٧٦) المصدر السابق ص ٧٢.

إياها ووارثًا نظام العالم الجديد. هناك طريق واحد للشـعوب الإسلامية الآن يؤدي بهـا إلـى العـزة القوميـة والعدالـة الاجتماعية والتخلص مـن عقابيـل الاسـتعمار والطغيـان والفساد، وهو طريق الإسلام والتكتل على أساسه. لقد مـزق الاستعمار العالم الإسلامي وأكله فرادى وأورث بين شـعوبه الاحقاد وربطها بالعملاء شرقًا وغربا، وروح الصليبية واحدة لوقف حركة التعصب ضد المخالفين له في العقيدة. وتظهـر صورة الطريق بقوة "إنه طريق وحيـد، طريـق الكرامـة، وطريق المصلحة، وطريق الدنيا، وطريـق الآخـرة، إنـه الطريق إلى الله في السماء والي الخير فـي الأرض، والـي النصر والعزة والاستعلاء أنه هو الطريق"[(١٧٧)].

لقد كان يمكن لأوربا أن تستفيد قديما من فكرة الإسـلام وأن تستمع بتجارة لولا أنها وقفت له بالمرصاد إبـان المـد الأول عندما وصل الإسلام إلى حدود البـرانس ثـم سـاقها التعصب إلى طرده من الأندلس. ومع ذلك فالبشرية جـائرة على الإسلام من جديد بالرغم من دعاة التغريب فـي حيـاة

[(١٧٧)] في التاريخ فكرة ومنهاج، طريق وحيد ص ٦٨.

المسلمين "أن الإسلام بالذات كان ثورة تحررية حررت الفكر كما حررت الروح. حررت الفكر مـن الـوهم والخرافـة ووجهته إلى تنزيه الحياة في الأرض دون تخوف من الطبيعة التي عقدت بينه وبينها أواصر الصداقة والقربى وصورتها له عرضا مساعدا لا عدوا مناوئًا. وحررت الروح من إلهبـوط والتردي واطلقته يرتاد الآفاق العليا وجذب الحياة كلها إليها. لذلك نمت الحياة في ظله نموا سريعا"[178]. وقد فتح الإسـلام الامصار باسم هذه الثورة التحررية القائمـة علـى العـدل والحرية. وعندما مـا ينتهـي الصـراع بـين الشـيوعية والرأسمالية عندئذ يبدأ الصراع بين الفكرة الإنسـانية التـي يمثلها الإسلام والفكـرة الماديـة التـي تمثلهـا الشـيوعية والرأسمالية على الرغم مما يوحي الاستعمار بما بينهما مـن تعارض.

إن المنهج التجريبي الذي يعتز به الغرب ويفخر به لهـو من نتاج الإسلام وأثره من خلال الأندلس عندما ترجم اللاتين علوم المسلمين الطبيعية القائمة على منهج التجريب المستمد

---

[178] نحو مجتمع إسلامي ص ٣٥.

ذاته من الإسلام كمنهج تجريبي، ولقد كان الإسلام هو الذي أنشأ – بطبيعة واقعة منهجية – المنهج التجريبي الذي انتقـل إلى أوربا من جامعات الأندلس والذي أقام عليه روجربيكون وفرنسيس بيكون الذي سموه افتراء – أبا المنهج التجريبي – منهجهما كما قرر ذلك بريفولـت ودوهـرنج مـن الكتـاب الغربيين أنفسهم(١٧٩). ولقد استمدت أروبا حياتها وهي جهالتها في الإسلام، وأقامت عليه حضارتها، وكان ذلك أثرا مباشرة للحروب الصليبية ولقيام دولة الأندلس في أسبانيا واسـتطاع أن يؤثر أكثر مما أثرت فيه المسيحية نظرا لطبيعته الإيجابية وطبيعة المسيحية السلبية فقد قدم الإسلام الفكرة كمـا قـدم ترجمتها في الحياة الاجتماعية، قـدم التصـور كمـا قـدم النظام(١٨٠). لقد نشأت مناهج البحث العلمي في ظل الإسـلام في جامعات الأندلس وقد اعترف روجر بيكـون باقتباسـه المنهج التجريبي من العالم الإسلامي. والقسم الخـامس مـن آخر كتبه الكبرى في البصريات منقولاً عن كتاب المنـاظر

(١٧٩) المستقبل لهذا الدين ص ١٠٤.

(١٨٠) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٣٤.

لابن إلهيثم بالإضافة إلى تأثره بابن حزم. لقد درس العربيـة والعلوم الإسلامية ونقل روحها إلى أوربا المسيحية ثم وقفت الكنيسة أمام هذا العلم الجديد فمدت الفصام النكد المشئوم وقد آمن الصليبيون من قبل بالعـالم الإسـلامي "ورأوا شـريعة يتحاكم إليها الناس حاكمهم ومحكومهم وغنـيهم وفقيـرهم، مالكهم ومعدومهم، صاحب الأرض والعامل فيها على السواء شريعة ليست هي إرادة السيد صاحب الأرض، وليست هـي إرادة الأمير كذلك ولا السلطان، إنما هي شـريعة تجيـئهم جميعا من عند الله، ويتولى الحكم بها قضاة، طالما وقفوا بها في وجه الأمراء والسلاطين عندما كان أحدهم يهـم بظلـم الرعية أفرادا أو جماعات. وقد ظهر في هذه الفتـرة أئمـة أقوياء وقفوا مرات في وجه سلاطين المماليك وكان لوقفاتهم صداها الذي تتناقله الجماهير في الوطن الإسلامي وتعرفهـا جموع الصليبيين الذين احتكوا بهذا المجتمع خلال قرنين من الزمان"[(١٨١)]. بل أن الليبرالية ذاتها التي يعتز بها الغرب أثـر من آثار اتصالهم بالعالم الإسـلامي، إن حركـة الإصـلاح

[(١٨١)] المصدر السابق ص ٩٥.

الديني التي قام بها مارتن لوثر وكالفن في أوربـا، وحركـة الإحياء التي تفتأت منها أوربا حتى تحكيم النظام الإقطـاعي في أوربا والانطلاق من حكم الأشراف، وحركـة المسـاواة وإعلان حقوق الإنسان التي تجلت في الماجنـا كارتـا فـي انجلترا والثورة الفرنسية في فرنسا وحركة المذهب التجريبي التي قام عليها مجد أوربا العلمي، وانبعثت منهـا الفتوحـات العلمية الهائلة في العصر الحديث وأمثالها مـن الحركـات الكبرى التي يحسبها الناس أصولاً في التطور التاريخي كلها قد استحدث من ذلك المد الإسلامي الكبير وتأثرت به تـأثرا أساسيا عميقًا(١٨٢)، إن الحركات التـي دعـت إلـى إنكـار الاعتراف أمام القسيس والتي تدعو إلـى تحطـيم الصـور والتماثيل الدينية والتي ترفض التثليث كل ذلك نشأ في أوربا تحت أثر الإسلام.

---

(١٨٢) هذا الدين ص ٦٧ – ٧٥ يستشهد سيد قطب بمحمـد اقبـال فـي تجديد الفكر الديني عن الإسلام ومحمد فريد وجدي في "الإسلام ديـن علم".

ولكن المهم إعادة كتابة التـاريخ الإسـلامي دون خلـط القدماء أو تشويه المحـدثين مـن المستشـرقين واتبـاعهم المؤرخين المسلمين. فالتاريخ ليس هو الحوادث بل تفسـير هذه الحوادث. والتفسير لا يتم ألا من خلال مشاركة المؤرخ الوجدانية للحادثة، وهي غائبة تماما عن الدراسات التاريخية المعاصرة عند الغربيين. بالإضافة إلى أن الباحـث الغربـي يعتبر أوربا مركز العالم ومحوره وككل ما سواها أطـراف معلقة، وذلك إسقاط من حاضره على ماضيه، فأوربا لم تكن في الماضي محور العالم ومركز ثقله. كما غابت النزاهة عن الباحث الأوروبي نظرا لموقفه العدائي من الإسـلام نظـرا لذكريات له في الأندلس وفـي الحـروب الصـليبية وفـي الاستعمار الحديث[١٨٣].

يجب إذن إعادة كتابة التاريخ متجـاوزين صـوته فـي المصادر العربية القديمة كحوداث ونكات ووقـائع دعايـات وخرفات وأساطير وروايات متضاربة وأقـوال متعارضـة ومتجاوزين صورته في أعمال المستشرقين التي حاولت نقد

---

[١٨٣] في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٣٧ – ٦١.

المصادر ولكن غابت عن نتائجها النزاهة والموضوعية. هذه الدراسات التاريخية الجديدة، تعتمد على المراجـع العربيـة كمصادر أولى وتفسير مادتها بإخضاعها إلى منطق الحوادث ذاته. ولا يمكن إدراكها إلا بالتجارب والتعاطف معها حتـى يمكن إدراك روح العقيدة الإسلامية وطبيعـة فكرتـه عـن الإنسان والكون والحياة "ولابد من ربط هـذا كلـه بطبيعـة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح انقلابية ثورية". والتاريخ الإسلامي جزء من التاريخ الإنساني وتجربة شقت طريقهـا ضمن التجارب الإنسانية الأخرى فالإلمام بتاريخ الحضارات القديمة وحال الجزيرة العربية قبل الإسلام وحال المجتمعات المعاصرة ضروري لفهم التاريخ الإسلامي نشأة وتطور في الماضي والحاضر والمستقبل. يتحول التاريخ حينئـذ إلـى "عملية استيعاب وتجارب في ضمائر الأشـياء والأشـخاص والأزمان والأحداث. ويتصل بناموس الكون ومدارج البشرية ويصبح كائنًا حيا ومادة حياة. وبعد هذه المقدمات والأفكـار الموجهة الأساسية يمكن تقسيم التاريخ الإسلامي إلى أربعـة

مراحل: الإسلام في عهد الرسول، المد الإسلامي، انحسـار المد الإسلامي، العالم الإسلامي اليوم"[184] على هـذا النحـو يمكن التحرر من الرؤية الغربية لكتابة التاريخ مـع إعطـاء رؤية أخرى أوسع وأشمل من باحثين أقدر علـى التجـاوب والتعاطف مع مادة التاريخ معطـين نموذجـا جديـدا فـي الدراسة، ويرسم الطريق لإعادة بعث الأمة من إعادة كتابـة تاريخها[185].

ولإقامة المجتمع الإسلامي هناك أولاً فرق بين الشـريعة الإسلامية والفقه الإسلامي الأولى ثابتة لا تتغير لأنها المبادئ

---

[184] هذه المراحل المربعة شبيهة أيضا بمراحل المـودودي الأربعـة "الإسلام اليوم".

[185] تألفت جماعة مسلمة لإعادة كتابة التاريخ الإسـلامي وفـق هـذا المنهج. وقد قسمت الجماعة حقول البحث في المراحل التالية: مقدمات التاريخ الإسلامي، الإسلام على عهـد الرسـول، المـد الإسـلامي، الانحسار الإسلامي العالم الإسلامي اليوم، والجماعة مؤلفة من الاساتذة الشيخ صادق عرجون، والدكتور / محمد يوسف مرسي، والـدكتور / عبد المجيد يونس، والدكتور / محمد النجار، وسيد قطـب، المصـدر السابق ص ٦١.

الأساسية للدين أما الثاني فمتجدد متغير متطور لتغير وتجديد وتطور الحياة فلا ثبات. الأولى من صنع الله والثانيـة مـن صنع البشر. ثانيا، أن الصورة التاريخية للمجتمع الإسـلامي ليست نهائية بل تتجدد باستمرار مادامت منبثقة من التصور الإسلامي العام. وقد انبثق من الفقـه الإسـلامي جانبـان: العبادات والمعاملات، الأولى أكثر استقرار وثباتـا والثانيـة متغيرة متطورة متجددة لارتباطها بالحاجات البشـرية وقـد وصلت الينا العبادات متضخمة والمعاملات ضامرة لظروف المجتمع الإسلامي القديم، ولا يخرج الأمر في هذه الحالة عن أربعة احتمالات: الأول أن تكون الشريعة قد نصت على حكم معين نصا صريحا وهذا واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل لأنه متعلق بركن أساسي من أركان المجتمع مثـل تحـريم الربا أو بسمة أساسية من سـماته مثـل الحـدود أو بمبـدأ تشريعي لا يتغير مثل كتابة الدين المؤجل. والثاني أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص قابل للتأويـل ويكـون حينئـذ عرضه للاجتهاد والترجيح والتوفيق مع غيره من النصوص. والثالث، أن تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام تدخل المسألة الخاصة فيه ضمنًا دون النص عليها صراحة حينئـذ يكـون

الأمر موضع اجتهاد في تطبيق المبدأ العام علـى الحـالات الخاصة. والرابع أن تكون الشريعة قد سكتت عن هذا الأمر ويكون حينئذ متروكًا للاجتهاد المطلق على ألا يصدم الحكـم مبدأ أساسيا من مبادئ الإسلام ولا أصلاً من أصول التشريع. وعلى هذا الأساس احتفظت الشـريعة الإسـلامية بالثبـات والمرونة.

ونحن الآن أمام طريقين: إما أن نتـابع خطـوات الفقـه الإسلامي القديم حيث وقفت ونكملها كي تملأ الفجوة الواسعة بين الماضي والحاضر وإما أن نرجع إلى مبـادئ الشـريعة ذاتها فنجد فيها تلبية لحاجات مجتمعاتنا الحالية "وهـذا فـي نظري هو الطريق المعقول أن لم يكن الطريق الوحيد". فـلا خلاف بين المبدأ والواقع.[(١٨٦)].

والمجتمع الإسلامي مخالف للمجتمعات التي عرفتها النظم الغربية الخمسة: الشـيوعية الأولـى، الـرق، والإقطـاع، والرأسمالية، والاشتراكية وهي في طريقها إلى الشـيوعية. فالمجتمع الإسلامي يقوم على شريعة إلهية كاملة منذ نشأتها

[(١٨٦)] نحو مجتمع إسلامي، كيف نستوحي الإسلام ص ٤٦ – ٦١.

على عكس النظم الغربية التي نشأت وفقًا لظروف تاريخيـة معينة. لم يصنع المجتمع الإسلامي.

الشريعة بل أن الشريعة هـي التـي صـنعت المجتمـع الإسلامي بعكس التشريعات الأرضية التي ولدتها مجتمعاتنـا وترتكز الشريعة الاسمية على أربعة خصائص هـي التـي جعلتها قادرة على إنشاء المجتمع الإسلامي. الأولـى أنهـا بالرغم من أنها من صنع إله يعرف طبيعة خلقه قد جـاءت وفقا للمقومات البشرية المشتركة العامـة وأصـول الفطـرة الثابتة الثانية أنها جاءت في صورة مبادئ كلية عامة تقبـل التفريغ والتطبيق في الجزئيات المتجددة والأحوال المتغيرة. الثالثة أن هذه المبادئ العامة شـاملة لكـل أصـول الحيـاة الإنسانية، الفرد والجماعة والدولة والعلاقات الدوليـة وفـي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والرابعة أن المبادئ الاجتماعية التي قامت على أساسها جاءت تقدمية، فدفعت بالبشرية إلى الأمام ومازلت قادرة على القيـام بهـذا الدور لأنها باستمرار تسبق الأوضاع الاجتماعية القائمة[١٨٧].

---

[١٨٧] نحو مجتمع إسلامي طبيعة المجتمع الإسلامي ص ٦٢ – ٩١.

أما النظم الأوروبية الخمس فقد قامت على دراسة التاريخ الأوروبي وحده لا التاريخ البشري العام. فالشيوعية الأولـى مجرد افتراض لا دليل عليه. أما عهد الرق فهنـاك بعـض الدلائل على وجوده في الإمبراطورية الرومانية عندما انقسم الناس إلى طبقتين طبقة الأحرار وطبقة العبيد، وهذه الأخيرة كانت تؤلف ثلاثة أرباع سكان الإمبراطوريـة ممـا سـبب ثورات العبيد. أما نظام الإقطاع الذي انقسم فيه المجتمع إلى طبقتين أيضا طبقة الملاك الذين يملكون كل شـيء الأرض ومن عليها وطبقة المزارعين الذين يتبعون الأرض بعملهـم وإنتاجهم وأشخاصهم فهو النظام الذي جاء الإسلام ليمحـوه تدريجيا شيئًا فشيئًا ابتداء من الضمير حتى الواقع نفسه. ثـم قامت النظم الرأسمالية ترث الإقطاع بعد أن هيأت الحـروب الصليبية الاتصال بالعالم الإسلامي والتعرف على ما فيه من وسائل للإنتاج وإقامة مدن تجارية في السـاوحل الجنوبيـة لأوربا وعلى سواحلها الشمالية. وقد زاد النشـاط التجـاري وساعد على نشأة طبقة برجوزاية استثمرت أموإلهـا بالربـا والاحتكار على عكس ما يقره النظام الإسلامي وإن كان يقر حق الملكية والاستثمار والإرث مع تقييدها بحـق الجماعـة

الثابت. فلما أراد رأس المال مزيدا من الربح وخرج خـارج حدوده وأصبح الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، ولما رأت المجتمعات الأوروبية مآسي الرأسمالية اتجهت انجلتـرا أولاً نحو الاشتراكية وروسيا نحو الماركسـية كتطـور طبيعـي للرأسمالية في حين أن النظام الإسلامي وعدالته الاجتماعيـة نظاما ثابتًا وليس تطورا طبيعيا لنظـام سـابق. وإذا كانـت الاشتراكية الأوروبية مذهبا اقتصاديا بحتًا فالنظام الإسـلامي قائم على تصور للحياة ينبثق منه نظام ويتصـف بالشـمول ويتجاوز حدود القوميات والأجناس والوطنيات المحلية. لذلك فالمجتمع الإسلامي مجتمع عالمي خال من النعرات الجنسية أو العنصرية. صراع القوميات الحاد والحروب قائمة علـى أساسه. لا يعرف المجتمع الإسـلامي الحـدود الإقليميـة أو التعصب الديني ويقدم الأخوة الدينية القائمـة علـى حريـة الاعتقاد والعبادة. والجهاد الإسلامي يهدف إلى تأكيـد هـذه الحرية ودفع الظلم والعدوان على حرية الضـمير أو علـى الطبقات الاجتماعية المظلومة أو على الدول المستعبدة تحت "راية حماية الضعفاء من الظلم، الظلم كافة قياما بشريعة الله في العدالة الإنسانية بغير ما غاية سوى تحقيق كلمة الله فـي

سبيل الله.. فهي الحرب لدفع الظلم والطغيان لا إكراه علـى العقيدة ولا كراهية للآخرين بسبب العقيدة إنما هي الوسـيلة العملية لدفع الظلم وإقامة العدل وترتيـب الأمـن وحمايـة الضعفاء. وللذميين حق الدفاع عنهم مثلهم مثل المسلمين على سواء"، إن المجتمع الإسلامي مجتمع حر مفتوح تملك جميع العقائد والمذاهب والآراء أن تعيش في ظله، وليس الإكـراه عنصرا من عناصر تكوينه ولا بقائه(١٨٨).

وبلغت قمة صياغة المنهج الإسـلامي فـي "خصـائص التصور الإسلامي" ومقوماته الذي خرج منه الجـزء الأول فقط عن "خصائص" ولم يعط الإمام الشـهيد الوقـت الـذي يخرج الجزء الثاني منه عن "المقومات" والذي طالما وعد في كتبه السابقة بأنه سيخرج كتابا عدد فيـه تصـور الإسـلام للإنسان والكون والحياة"(١٨٩). وقد حاول سيد قطب ذلك أولاً في "هذا الدين" ووصفه للإسلام على أنه منهج للبشـر فـي

---

(١٨٨) نحو مجتمع إسلامي، مجتمع عالمي ٩٢ – ١٣٥.

(١٨٩) نحو مجتمع إسـلامي ص ٣٢ خصـائص التصـور الإسـلامي ومقوماته ص ٥.

حدود الطاقة البشرية "وهو منهج ميسر لأنه منهج عملي واقعي متفق مع الفطرة البشرية وهو منهج مؤثر يحدث تحولاً في حياة البشر. يعتمد على رصيد الفطرة وعلى رصيد التجربة. يقوم على خطوط مستقرة منها أنه يرى الإنسانية واحدة دون تفرقة عنصرية أو قبلية أو جنسية ويراها إنسانية كريمة لا يستذلها أحد. ويرى الأمة واحدة لا فرق بين مذاهبها وسائر الديانات في ذمتها". ولا تظهر الحاكمية كأحد خصائصه ألا في أنه منهج متفرد "والتفرد يعني الحاكمية، والحاكمية تعني العبودية، والعبودية تشريعية أي الالتزام بالإسلام كمنهج حياة[١٩٠]. ثم يعدد هذه الخصائص بعد ذلك بسبع: الربانية، والثبات، والشمول، والتوازن، والإيجابية، والواقعية، والتوحيد. وتظهر الحاكمية في الخاصتين الأولى والسابعة، والبرانية والتوحيد دون أي أثر لأبي الأعلى المودودي كرافد خارجي. وقد كان يهدف كله إلى بيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية. فالربانية لا تشير إلى الحاكمية بل إلى مجرد أن الشريعة من التنزيل في مقابل

---

[١٩٠] هذا الدين ص ١٥ – ٣٦.

النظم الوضعية، والألوهية مجرد دفاع عن الله كتصور فـي مواجهة الغرب ضمنيا. والحقيقة أن كل هذه الخصائص فـي معظمها قد تمت صياغتها ضد الحضارة الغربيـة فالربانيـة ضد المذاهب الإنسانية الفلسـفية الغربيـة، والثبـات ضـد نظريات التطور والتوزان ضد تطرف المـذاهب الفلسـفية وارتكازها على طرف واحد، والإيجابية ضد سـلبية إلهـة الفلاسفة ومثالياتهم والواقعية ضد خيال الفلاسفة والأدباء.

ونقد سيد قطب التصورات الإسلامية في تراثنا القديم في الكلام والفلسفة والفقه والتفسير. فالساطة معرفة بإرادة تابعة لأرسطو توفق بينه وبين الإسلام. أما الكلام فليس أفضل من الفلسفة بل تابع لها وتابع مباحثه اللاهوتيـة والميتافيزيقيـة الوافدة من اليونان ومن المسيحية. أما الفقه فان قسمته إلـى عبادات ومعاملات قسمة متأخرة لأسباب فنية أولاً ثم تحولت إلى أحد مظاهر التأخر. فالإسلام ليس فيه عبادات منفصـلة عن المعاملات. أما التفسير فإنه ابتعد عن بسـاطة القـرآن ووضوحه. وبالتالي فإنه يمكن العودة الآن إلى القرآن مباشرة

ورؤية واقع المسلمين من خلإله دون ما حاجة إلى عشـرات المجلدات المتوسطة من علم التفسير[١٩١]

وفي هذه المرحلة يظهر المودودي وتظهر الاشارات فيه في نقد الغرب أولاً وفي الحاكمية ثانيا. وقد عرفه سيد قطب كناقد للغرب قبل أن يعرفه كمنظر للحاكمية. كما عرفه عـن طريق أبي الحسن الندوى في كتابه المشهور "مـاذا خسـر العالم بانحطاط المسلمين؟" الذي كان إنجيل المصلحين فـي الخمسينات قبل أن يعرفه مباشرة في "المصطلحات الأربعـة في القرآن" أو في "الحجاب".

---

[١٩١] خصائص التصور الإسلامي ص ١٥ – ١٧ ص ١١٦ – ١١٧ – ص ٢٣١ كأنما هذا الرجل الفاضل العميق النافذ يصف ما تقـوم بـه صحافة وكتاب وقصة وأجهزة توجيهية كثيرة فـي بلادنـا فـي آداب واصرار – الإسلام ومشكلات الحضارة ص ١٧٤ اقرأ هـذا، واقـرأ صفحات المراة في صحافتنا كلها فأجد كأنما الرجل يصف ما عندنا لا ما هو واقع في ذلك العالم الرأسمالي "الإسلام ومشكلات الحضارة" ص ١٤٧.

وينقل تحليلاته لأوضاع الرجل بالمرأة في المجتمع الإسلامي أو في المجتمع الجاهلي(١٩٢). ويقتبس منه فقرات طويلة للاستشهاد به في علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام ليس فقط من حيث الاتصال الجسدي بل أيضا القرابة الروحية. والمصطلحات الأربعة في القرآن هي: العبادة، الإله، الرب، الدين. ويشير مرة أخرى في "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" إلى رسالة المودودي "شهادة الحق" دون حاكمية(١٩٣).

ويبدو الانتقال من "المجتمع" إلى "التصور" في "المستقبل لهذا الدين" فلا يوجد مجتمع لا يقوم على تصور، ولا يوجد تصور لا ينشيء مجتمعا. الإسلام منهج حياة، عقيدة ينبع منها تصور، وتصور يخرج منه نظام. وهذا الدين ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة البشرية في كل

---

(١٩٢) يشير سيد قطب إلى المودودي نقلا من كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لابي الحسن الندوى" الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٥٦ – ٥٧، ص ٦٩ – ٧٤، ص ١٤٢ – ١٥٣.

(١٩٣) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٨٦.

مجالاتها الواقعية وليس مجرد شعائر تعبدية يؤيدها المؤمنون بهذا الدين فرادى أو مجتمعين فتكون لهم صفة هذا الـدين، وليس مجرد طريق إلى الآخرة لتحقيق الفردوس الأخـروي بينما هناك طريق آخر وطرق أخـرى لتحقيـق الفـردوس الأرضي غير منهج الدين وتنظيمات الدين(١٩٤).

هذه الخاصية الأولى للإسلام الشمول والهيمنة التي أقلقت الاستعمار والصهيونية حتى أفلح أتاتورك في إلغاء الخلافـة وفصل الدين عن الدولة وإعلان تركيا دولة علمانية خالصة، ومحاولات دول أخرى بعد وقوعها فـي قبضـة الاسـتعمار "زحزحة الشريعة الإسلامية من أن تكون المصـدر الوحيـد للتشريع والاستمداد من التشريع الأوروبي وحصر الشـريعة في ذلك الركن الضيق المسـدود، ركـن سـموه "الأحـوال الشخصية". (١٩٥).

أن ما يميز المجتمع الإسلامي هو قيامـه علـى "قاعـدة المنهج الرباني، الصادر من علم (بدل الجهل) وكمال (بـدل

---

(١٩٤) المصدر لهذا الدين ص ٤.

(١٩٥) المصدر السابق ص ٦.

النقص) وقدرة (بدل الضعف) وحكمة (بدل الهـوى) القـائم على أساس إخراج البشر من عبادة العبادة إلـى عبـادة الله وحده دون سواه[١٩٦]. فالحاكمية هنا للنظام والشيعة وليس لله في ذاته. "أن مفرق الطريق بين منهج هـذا الـدين وسـائر المناهج غيره أن الناس في نظام الحياة الإسلامي يعبدون إلها واحدا، يفردونه – سبحانه – بالألوهية والربوية والقاومـة – بكل مقومات القوامة فيتلقون منه وحده التصـورات والقـيم والموازين والأنظمـة والشـرائع والقـوانين، والتوجيهـات والأخلاق والأداب بينما هم في سائر الـنظم يعبـدون إلهـة وأربابا متفرقة يجعلون لها القوامة عليهم من دون الله حـين يتلقون التصورات والقيم والمـوازين والأنظمـة والشـرائع والقوانين والتوجيهات والأداب والأخلاق من بشـر مـثلهم فيجعلونهم بهذا الملتقى أربابا، ويمنحونهم حقـوق الألوهيـة والربوبية والقوامة عليهم، وهم مثلهم بشر، عبيد كمـا أنهـم عبيد"[١٩٧]. واتباع التشريع هو معنى عبادة الله وليس مجـرد

---

[١٩٦] المصدر السابق ص ٨.

[١٩٧] المصدر السابق ص ٨ – ٩.

الشعائر والطقوس سوى ذلك من نظم وشرائع لا تنتج عـن الألوهية هي النظم الجاهلية. "ونحن نسمي هذه النظام التـي يتعبد الناس فيها الناس كما يسميها الله سبحانه وتعالى نظمـا جاهلية مهما تعددت أشكالها وبيئاتها وأزمانها فهي قائمة على ذات الأساس الذي جاء هذا الدين يوم جاء ليحطمه وليحـرر البشر منه وليقيم في الأرض ألوهية واحد للناس وليطلقهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بـالمعنى الواسـع الشـامل لمفهوم العبادة ومفهوم الإله ومفهوم الرب ومفهوم الدين"[١٩٨].
لقد جاء هذا الدين ليلغي عبودية البشر للبشر في كل صورة من الصور، وليوحد العبودية لله في الأرض كما أنها عبودية الله في هذا الكون العريض "والناس إما أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليته فهم مسلمون وإما أن يعيشوا بأي منهج آخر مـن وضع البشر، فهم في جاهلية لا يعرفهـا هـذا الـدين، ذات الجاهلية التي جاء هذا الدين ليحطمها وليغيرها من الأسـاس ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عباد الله"[١٩٩]. ولقـد أتـى

---

[١٩٨] المصدر السابق ص ٩.

[١٩٩] المصدر السابق ص ١٠ – ١١.

الإسلام ليخرج الناس من الجاهلية إلي الربانية وبكل واقعهم على شريعة الله كما بكل شمائلهم على تقوى الله[٢٠٠].

إن كل مجتمع إسلامي يقوم على مبدأ حاكميـة الإسـلام "وكل فقه تراد تنميته وتطويره في وضع لا يعترف ابتـداء بحاكمية الإسلام هو عملية استنبات للبذور في الهـواء"[٢٠١]. فالواقع دون حاكمية لا يكفي. "إن أولى بوادر الهزيمة هـي اعتبار الواقع أيا كان حجمه هو الأصلي الذي على شـريعة الله أن تلاحقه بينما الإسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هي الأصل الذي ينبغي أن يفئ الناس إليـه وأن يتعـدل الواقـع ليوافقه[٢٠٢]. ولقد واجه الإسلام المجتمع الجاهلي العالمي يوم جاء فعدله وفق منهجه الخاص ثم دفع به إلى الأمام.

لذلك فالإسلام منهج منفرد يقوم على شهادة أن لا إلـه إلا الله "ومعنى الشهادة أفراد الله بالألوهية وعدم اشراك أحد من خلقه معه في خاصـية واحـدة مـن خصائصـها، وأولـى

---

[٢٠٠] المصدر السابق ص ٢١.

[٢٠١] الإسلام ومشكلات الحضارة ص ١٨٥.

[٢٠٢] المصدر السابق ص ١٩١.

خصائص الألوهية: حق الحاكمية المطلقة الذي ينشأ نه حـق التشريع للعباد وحق المناهج لحياتهم وحق وضع القيم التـي تقوم عليها هذه الحياة"[٢٠٣]. فالشهادة لا تقوم ولا تتحقـق إلا بالاعتراف بأن الله وحده حق وضع المنهج الذي تجري عليه الحياة البشرية وإلا بمحاولة تحقيق ذلك المـنهج فـي حيـاة البشر دون سواه. وكل من ادعى لنفسه حق وضـع مـنهج لحياة جماعة من الناس فقد ادعى حق الألوهية عليهم دعائـه اكبر خصائص الألوهية. وكل من أقره على هذا الادعاء فقد اتخذه إلها من دون الله بـالاعتراف لـه بـأكبر خصـائص الألوهية. "شهادة أن محمدا رسـول الله معناهـا القريـب: التصديق بأن هذا المنهج الذي بلغه لنا من الله هو حقا منهج الله للحياة البشرية، وهو وحده المنهج الذي نحـن ملزمـون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج لتحقيقه لانفسنا صفة الإسلام التي ندعيها، وهي لا تتحقـق ألا بشـهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله. وهـذه الشـهادة لا تقـوم إلا بـإفراد الله بالألوهية إفراده بحق وضع منهج الحياة. ومحاولـة تحقيـق

---

(٢٠٣) هذه الدين ص ١٥.

ذلك المنهج الذي جاءنا به محمد من عند الله فالسـلام هـو المنهج الذي جاءنا به محمد من عند الله فالإسلام هو المنهج الوحيد الذي يحرر الإنسان ويطلقه مـن العبوديـة وبتأكيـد لإنسانيته وعبوديته لله بالتحرر من العبودية للناس بالعبوديـة لله رب الناس"[٢٠٤]. وما من منهج آخر في الأرض يحق هذه الخاصية ألا الإسلام. ذلك أنه بربانيته التي تفرد الله بألوهية ومن ثم تفرد بحق الحاكمية التي تشرع للناس منهج حيـاتهم يجعل للناس إلها واحدا وسيدا واحدا، ويمنع أن يكون بعضهم إلها لبعض لهم حق الحاكمية بعضهم على بعض، ولهم حـق السيادة بضهم على بعض في مقابل العبودية التي يتسم بهـا من يقرون لهؤلاء الإلهية بخصائص الألوهية وقد كانت هذه الدعوة للرسل جميعا، فأراد الله بالألوهية وإنكار كل خاصية من خصائصها على غير الله من عبوديـة الـذي يتـألهون فيدعون حق وضع المناهج لحياة عباد الله. ويقرهم على هذا الادعاء من لا يؤمنون بوحدانية الله[٢٠٥]. لم يعبد أهل الكتاب

---

(٢٠٤) المصدر السابق ص ١٦ – ١٧.

(٢٠٥) المصدر السابق ص ١٧ – ١٨.

الأحبار والرهبان إنما كانوا يقرون لهم فقط بحق تشريع لهم من دون الله وبحق المناهج لحياتهم بالتشريع. وهذا هو معنى عبادتهم. فالألوهية تقتضـي العبوديـة والعبوديـة تنقضـي بالالتزام بالتشريع والإسلام وحده هو الذي يفرد الله بالعبـادة حين يفرده بالحاكمية وحق وضع المنهج لحياة الناس، ومـن ثم فهو وحده الذي يطلق الناس من العبودية لغير الله. وهـو المنهج الوحيد المبرأ عن الهوى الإنساني لأنه يشرع لجـنس أو لشعب أو لطبقة كما هو الحـال فـي التشـريعات التـي يشرعها الفرد الحاكم أو الأسرة الحاكمة أو الطبقة الحاكمة أو الأمة الحاكمة أو الجنس الحاكم.

وهذه رسالة كل دين منذ نوح حتى محمد مـع اخـتلاف التفصيلات في كل مرحلة:إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله دون سواه، وإبطال الألوهيات والربوبيات الزائفة، ورد الألوهية والربوبية إلى الله دون سواه"[٢٠٦]. وقـد أعلـن القرآن ذلك فيما يسميه سيد قطب "المفاصلة" أي الفصل بـين أهل الدين وأهل الجاهلية "وألا يجئ هـذا التفسـير الشـامل

[٢٠٦] المستقبل لهذا الدين ص ٢٢.

الكامل من عند الله، وألا يقيم الحياة كله على هـذا التفسـير الشامل الكامل، فهي إذن اهواء البشر وهي إذن الجاهلية التي جاء كل دين من عند الله لإخراج الناس منها ورفعهـم إلـى الربانية والا تكون العبودية لله وحده ممثلة في التلقي عنه في هذا كله فهي العبودية للعبيد. وقد جاء دين الله كله لتحريـر العبادة من عبادة العبيد"[٢٠٧]. الإسلام منهج "حياة" ولا يسـلم المسلم ولا يؤمن المؤمن حتى يجعل منهج الله للحياة منهجـه وشريعة الله للحياة شريعته ولا يتخذ من عند نفسـه لحياتـه منهجا ولا شريعة وإلا ادعى لنفسه بهذا حق الألوهية فكفـر معه كل من يقره على ادعاء حق الألوهية لنفسه بادعاء حق التشريع من دون الله واتخاذ منهج الله للحياة[٢٠٨].

وهذا هو معنى التوحيد كأحد خواص التصور الإسـلامي "هناك ألوهية وعبودية، ألوهية يعتز بها الله وعبودية يشترك فيها كل من عداه وكل ما عداه. وكما يتفـرد الله بالألوهيـة كذلك يتفرد تبعا لهذا بكل خصائص الألوهية. وكما يشـترك

---

(٢٠٧) المصدر السابق ص ٢٥ – ٢٦.

(٢٠٨) الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٢٩.

كل حي وكل شيء بعد ذلك في العبودية كذلك يتجرد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية"[٢٠٩]. وينتج عن ذلـك أن يعتقد المسلم أن لا حاكم إلا الله، ألا مشرع إلا الله، وألا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم ارتباطاتهم بالكون وبالإحيـاء وبـين الإنسان من جنسه إلا الله فيتلقـى مـن الله وحـده التوجيـه والتشريع ومنهج الحياة ونظام المعيشة وقاعدة الارتباطـات وميزان القيم والاعتبارات ويترتب على وحدانيـة الألوهيـة والربوبية ووحدانية الفاعلية والسلطان في هذا الوجود كل ما يكلفه المسلم سواء ما يكلفه من شعور في الضـمير أو مـا يكلفه من شعائر في العبادة أو ما يكلفـه مـن التـزام فـي الشريعة[٢١٠]. بهذه العبودية يتحرر الإنسان لأنه يخرج مـن عبادة العباد إلى عبادة الله برد أمر التشريع والحاكمية لله "أن الناس في جميع الأنظمة التي يتولى التشريع والحاكمية فيهـا البشر في صورة من الصور يقعون في عبودية العباد وفـي الإسلام وحده يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم إلى

---

(٢٠٩) خصائص التصور الإسلامي ومقاومته ص ٢١٥.

(٢١٠) المصدر الساق ص ٢٢٤.

عبادة الله وحده......، إنها إخراج من شاء الله مـن عبـادة العباد إلى عبادة الله وحده ورد أمرهم إلى الله وحده... وأراد الله سبحانه بالألوهيـة وخصـائص الألوهيـة ولا سـلطان والحاكمية والتشريع هي أولى الخصائص التي لا ينـازع الله فيها مؤمن ولا يجرؤ على مناعته إياها إلا كافر...."[٢١١].

والمجتمع الإسلامي مجتمع رباني، نظامه رباني قائم على العقيدة الإسلامية وفي نفس الوقت لا يحرم الإنتاج بالتجارب البشرية، يقوم على العدل المطلق، والشورى فيه أساس الحكم ويستفيد من التجارب البشرية الإجراءات التنفيذيـة لهـذين الهدفين: العدل والشورى، أن عقيدة التوحيد تسيطر وتـؤثر على مقومات النظام الاجتماعي والإسلامي للفرد والجماعـة والحاكم والمحكـوم، العامـل وصـاحب العمـل، المنـتج والمستهلك، المعطى والأخذ أي توحيد الاتجاه، إن الحاكميـة في هذا النظام الرباني لله وحده فالحاكمية فيه لا لأميـر ولا رعية. فالله وحده هو المشرع ابتداء. وعمل البشر هو تطبيق الشرع الإلهي وتنفيذه، وهم حتى فيما يجمعون عليه مما لـم

---

[٢١١] المصدر السابق

يرد منه نص يظلون مطبقين لمبادئ الإسلام لا مبـدعين ولا مضيفين مبدأ جديدا لا أصل له في الشـريعة أو أن يكـون مخالفًا لأصل من أصولها. وهـم فـي الأحكـام التطبيقيـة والتنفيذية محكومون بالمبادئ الأساسية التـي جـاءت بهـا الشريعة غير مخيرين في العدول عنها أي اختيـار بعضـها دون بعض أو في تحويلها وهذا هو معنى آيـات الحاكميـة لفقهاء الأمة الاستدلال واستنباط الأحكام دون أن يخرج ذلك على حدود المبادئ الأساسية للشريعة وبذلك تظل الحاكمية لله وحده، ويظل المجتمع الإسلامي محكوما وفق شريعته، فـإذا انحرف عن هذه القاعدة فهو يعد مجتمعا إسلاميا يحمل هـذا العنوان الخاص. وهكذا نجد سمة الربانية تتحقق من توحيـد الحاكمية لله. وهذه بدورها راجعـة إلـى عقيـدة التوحيـد الإسلامية. بهذه الربانية انفرد النظام الإسلامي من بين سائر النظم التي عرفتها البشرية بما فيها النظام الثيوقراطي الـذي كان الحاكم يتلقى فيه سلطته أما من رجال الدين وأمـا مـن الحق الإلهي، بوصفه ظل الله في الأرض. فمعنى الربانية في الإسلام متعلق بالنظام ذاته لا بالحاكم وسلطة الحاكم. فالحاكم في النظام الإسلامي لا يتلقى سلطته من رجـال الـدين، ولا

يدعيه بحق إلهي له، إنما يستمد حقه في تولى الحكـم مـن البيعة الحرة كما يستمد طاعته من تنفيـذ شـريعة الله دون سواها... وفرق كبير بين هـذه القاعـدة وقاعـدة النظـام الثيوقراطي كما عرفته أوربـا، إن الربانيـة فـي النظـام الإسلامي ربانية شريعة ونظام لا ربانية أمراء وحكام. وقـد شرع الله تعالى للبشر بشرع بعلم كامل ويدين كمال، وهـو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير[٢١٢].

والعبودية لله ورفض العبودية لغير الله هو عنصر الثورة في الإسلام لقد استطاع الإسلام المحافظـة علـى الـوطن الإسلامي بالرغم من كل هذه الحروب المشبوبة عليه. فقـد حمى الإسلام الوطن الإسلامي في الشرق من هجمات التتار. كما حماه في الغرب من هجمات الصليبيين. وحـين ضـاع

---

[٢١٢] نحو مجتمع إسلامي فصل "مجتمـع ربـاني" ص ١٣٦ – ١٥٢ يستهل سيد قطب حديثه عن الحاكمية بقوله "معنى آخـر مـن معـاني الربانية يشتمل على النظام الإسلامي يشار اليه هنا اشارة مجملة لأنـه يتعلق بنظام الحكم في الإسلام (وسنعرض له قريبا أن شاء الله) ممـا يدل على تأخر ظهور فكرة الحاكمية لديه إلى المرحلة الرابعـة وهـي المرحلة السياسية التي تكونت في السجن الثاني.

الإسلام في الأندلس قديما وفق فلسطين حديثًا ضاعت اللغـة والقومية وقد حمى المماليك الإسلام دهم التتار، ووقفوا ضد بني جنسهم حماية للعقيدة الإسلامية كما دافع صلاح الـدين، وهو كردي، عن حصن الإسلام. وبقى الإسلام صامدا فـي الجزائر أكثر من مائة وخمسين عاما محافظًا علـى اللغـة والقومية العربية بفضل الحركة الإسلامية التي قـداها عبـد الحميد بن باديس. والإسلام هو الذي دفع المهدي إلى الثورة في السودان دفاعا عن احتلال الانجليز لمصر وكذلك جاهـد عثمان دنقه لنشر الإسلام في إفريقيا. والإسلام هو الذي كافح في برقة وطرابلس الغزو الايطالي كما خرجت المقاومة من أربطة السنوسية وبجهاد عمر المختار. وفي مـراكش قـام الظهير البربري بالجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الذي أراده استعماله لرد البربر إلى الوثنية "لقد كافح الإسلام وهو أعزل لأن عنصر القوة كامن في طبيعتـه، كـان فـي بسـاطته ووضوحه وشموله، ملاءمتـه للفطـرة البشـرية، وتلبيتـه لحاجاتها الحقيقية كان في الاستعلاء عن العبودية بالعبودية لله رب العباد، وفي رفض التلقي ألا منه، ورفض الخضوع إلا له من دون العالمين. كان ذلك في الاسـتعلاء باهلـه علـى

الملابسات العارضة كالوقوع تحت سلطان المتسلطين. فهـذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته. ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالمـا عمـر الإسـلام القلـب الضـمير، وان وقعـت الهزيمـة الظاهريـة فـي بعـض الأحايين"[٢١٣]. هذه العقيدة هي التي احتفظت للأمة الإسلامية بحيوتها الكامنة وجعلتها قادرة على مقاومة الاستعمار وبادية نهضتها من جديد[٢١٤].

وقد تكون الحاكمية لله ولكن من خلال الإنسان فالإنسـان خليفة الله في الأرض "الإنسان في التصور الإسلامي هو سيد هذه الأرض وبخلافته فيها عن الله، وكل ما فيها مسخر لـه بقدرة الله تعالى وقد أوتى امكان العلم بشؤونها، هبة مـن الله سبحانه والاستمتاع بطيباتها وجمالها نعمـة منـه خالصـة. وليست الأرض وحدها وكل ما فيها من أحياء وأشياء ولكـن كذلك السموات مهيأة لمساعدة الإنسان في خلافته في الأرض

---

[٢١٣] المستقبل لهذا الدين (ص ١١٣)

[٢١٤] في التاريخ، فكرة ومنهاج، صحوة ليس بعـدها ثبـات ص ٧ – ١٠.

الإسلام [215]" ومراعي في بنائها دور الإنسان في هذه الخلافة يسلط الإنسان على عالم المادة ويسخرها له وإعطائه القـدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة وإعفائه من وضع منهج لمعرفة ذاته وعون الله بوضع هذا المـنهج وإلزامه وباتباعه[216]، أن الإبداع المادي فـي هـذه الأرض على يد الإنسان وظيفة أساسية يظهر فيـه إمكانياتـه التـي أودعها الله فيه ليحقق غاية وجوده الكبرى الخلافة عـن الله في الأرض "اني جاعل في الأرض خليفة" ويحقق بها العبادة عن طريق هذه الخلافة والعمل فيها باسم الله ابتغاء رضوان الله[217].

من هذا العرض للمرحلة الفلسفية نلاحظ الآتي:

١. أن الانتقال من المرحلة الاجتماعية إلـى المرحلـة الفلسفية في الخمسينيات قد تم بين جدران السجن مما يدل على غياب الممارسة السياسـية والتـي

---

[215] الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٢٤.

[216] المصدر السابق ص ٣١.

[217] المصدر السابق ص ١٠٦.

كانت سببا في تحويل معركة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية إلى معركته الحضارية مع الغـرب أساسا ولو كان سيد قطب حرا طليقًا لغابت هـذه المرحلة الفلسفية ودخل الإسـلام فـي المعـارك الفعلية. وقـد تراجعـت الجماعـات الإسـلامية المعاصـرة خطـوة أخـرى وتحـول الجانـب التصوري إلى عقائد، وتحول العقل إلـى هـوى والإدراك إلى أنفعال. وكان سيد قطب قد تراجـع هو ذاته عن محمد عبده ورشيد رضـا وتلميـذه الشيخ المغربي لأنهم يقولون بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل وهو مبدأ أخطر[٢١٨]. ويقوى ذلك ما يسوده مجتمعاتنا من اتجاهات لا عقلانية باطنية.

٢. عدم ظهور حاكمية الله فـي صـيغتها المحكمـة الإلهية. فالحاكمية في هذه المرحلة ليست لله بـل للتشريع القانوني والقانون له أسسه الوضعية في

---

[٢١٨] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٢.

الدفاع عن مصالح الناس، والحكم تنفيذي وليس تشريعيا والحاكم أتى بالبيعة عن طريق الشورى. فالحاكمية هو أساس بناء المجتمع الإسلامي، أي أنها مبدأ اجتماعي وليست مبدأ عقائديا كما سيظهر ذلك فيما بعد في المرحلة السياسية المتأخرة. وتعني الربانية، وضعية الشريعة. فالجماعات الإسلامية المعاصرة لم تتأثر بسيد قطب ألا في مرحلته الرابعة في آخر سنتين في حياته عندما تحولت الحاكمية لله كسلاح سيايس ضد الحكم القائم تعبيرا عن صرخة المظلومين الأبرياء بين جدران السجون.

٣. تظهر الحاكمية في خصائص التصور الإسلامي مع خصائص خمسة أخرى مثل الثبات، والشمول، والتوزان، والإيجابية، والواقعية. وهي بهذا المصطلح بين مصطلحي الربانية والتوحيد مما يدل عن خروجها من ثنايا العقيدة الإسلامية وليست وافدة عليها. ولم يظهر أثر أبي الأعلى المودوي في هذه المرحلة في تصور الحاكمية

ولكن في مساواة المرأة بالرجل في الإسلام وفي نقد الغرب، ولكن تضخمت هذه الخاصـية عنـد الجماعات الإسلامية وأصبح لها الأولوية علـى باقي الخصائص مثل التوازن الذي انتهـى إليـه التطرف أو الواقعية التي أصبحت تصلبا وتشنجا، والإيجابية التي تحولـت إلـى تعصـب وحـب للظهور. وأصبحت أقرب إلى الشمول والثبات.

٤. لم تظهر في مقابل الحاكمية لله أو للشريعة الذاتيـة أو الإنسانية بل أن سيد قطب ينقد محمـد إقبـال بتأكيده على الذاتية واتهامها بالاشراقيات الصوفية العجمية التي تنتهي إلى الفناء، ورفضـه تحـدي الموت واستمرار الذاتية بعده للتجربة والنمـاء. كما يتهمه أيضا بالوقوع تحت الأثر الغربي فـي دعوته للقوة والحياة والتطور[٢١٩].

وقد استمرت الحركات الإسلامية في هذا التيار وإنكارها للذاتية وايغإلها في التمركز حول الله أو في صورة الشـريعة

---

[٢١٩] خصائص التصور الإسلامي ص ٢٣ – ٢٤.

وتضحيتها بالإنسان ذكرا أم أنثى. لقد رفض سيد قطـب أن تكن العلوم الإنسانية وريثة العلوم الدينية في حين أن العلـوم الدينية هي علوم إنسانية مقلوبة لم تتحول بعـد إلـى علـوم إنسانية طبيعية(٢٢٠).

٥. لم يظهر ارتباط قوي بـالتراث القـديم وتأصـيل التصورات الإسلامية ضد القـدماء فـي العلـوم العقلية بل إنه هاجم الفلسفة والكلام والفقه ككـل دون تمييز بين التيارات المختلفة في كـل علـم وإعطاء أولوية على اتجاه دون اتجاه، فابن رشد يخدم قضية سيد قطب أكثر من الفـارابي وابـن سينا، والمعتزلة تؤيـده أكثـر مـن الأشـاعرة، والمالكية تؤكد واقعيته أكثر من الحقيقة. فاتهـام الفلاسفة والمتكلمين بانهم اتباع اليونـان تسـرع وإغفال للعمليات الحضارية التي قاموا بها وتمثل الحضارات القديمة لاستعمالها والرد عليها في آن

(٢٢٠) هذه خلاصة معركته في "الإسلام ومشكلات الحضارة" في الـرد على كاريل في "الإنسان ذلك المجهول".

واحد. وهو نفس العيب الذي يستشري في الحركات الإسلامية المعاصرة التي لا تنتقي من القدماء إلا الاتجاهات المحافظة.

٦. يبدو أيضا أن هناك كثيرا من التجني على الحضارة الغربية بالرغم من إعطاء حريات الإصلاح الديني والتنوير والعلم حقها. إلا أن إدانة ذلك كله على أنه إنساني في تعارضه مع الربانية إنكارا للجهد البشري في اكتشاف زيف التراث الكنسي ووضع تراث إنساني آخر بديلاً عنه حتى ولو كان أحادي الطرف. لقد اعتمد سيد قطب في معرفته بالتراث الغربي على مصادر مترجمة ومن نوع خاص تلك التي تهاجم الحضارة الغربية. مثل كتب العلم والإيمان التي تمثل التيار الديني المحافظ في الغرب أو كتابات المستشرقين المنصفة للتاريخ الإسلامي في مواجهة الغرب وأحيانًا على بعض التقارير الصحفية وأدب الرحلات الذي يغلب عليه المزايدة في الأخلاق والإيمان. فإذا ما وضع

التراث الغربي داخل إطاره فإنه من الصعب نقد الغرب بالقرآن أو بأنه يجهل القرآن أو من وجهة نظر إسلامية أو مواجهتـه بنصـوص القـرآن وتقييمه بآيات الله كمسلمات أو كنتائج أو وضـع الأخلاق الإسلامية في مواجهة الانحلال الغربـي أو وضع الروحية الإسلامية في مقابـل الماديـة الأوروبية وقـد سـارت الحركـات الإسـلامية المعاصرة في مثل هذا الرفض الاعمى لحضارة الغرب متراجعة عما بدأه الأفغاني ومحمد عبـده يأخذ الأسباب القوة والعلم والمدنية. ومثـل هـذا الرفض للغير يشبع الحاجة إلى التأكيد على هوية الذات وتحدي المغلوب للغالب خاصة إذا كان هذا الغير عدو الأمس ومازال غالبا، ومازلنا نعـيش على إنتاجه وأبداعه.

٧. بالرغم من ظهور فلسفة في التاريخ لدى سيد قطب بعث الأمة الإسلامية وهي فـي مـدها الثـاني وانهيار الغرب واكتشاف واقع المسلمين الحـالي فإن الحركات الإسلامية المعاصرة تبدو وكأنهـا

كل خارج التاريخ وليس عندها الوعي الحضاري الكافي بمراحل التاريخ وتطوره، وبالتالي تخلفت عن إيجابيات سيد قطب واستمرت في سلبياته.

رابعـــا: المرحلـــة السياســـية: (١٩٦٣ – ١٩٦٥).

وهي المرحلة التي بدأت تتكون داخل جـدران السـجون والتي بلغت ذروتها بإخراج "معالم على الطريق" والذي دفع حياته ثمنا له، وهي المرحلة التي لهـا أبلـغ الأثـر علـى الحركات الإسلامية المعاصرة نظرا لما تحتويه مـن "فكـر المضطهدين" ونظرا لتشابه الظروف النفسـية والاجتماعيـة للمفكر الراحل ولهذه الحركات[٢٢١]. لم يكد يلتئم جرح السجن طوال الخمسينات حتى انفتح واتسع حتى تقيح فـي السـجن الثاني في الستينات. فالثورة المصرية هـي المسـئولة عـن "معالم في الطريق" لأنه لو لم يوجد سيد قطب بين جـدران

---

[٢٢١] سمينا هذه المرحلة "السياسية" تجاوزا لغياب اسم أفضل وتعني فقد الدلالة والاثر لفكر سيد قطب الاخير.

السجون لتطورت المرحلة الاجتماعية إلى نضال ثوري ولا صبح من كبار المناضلين أمثال جيفـار وماوتسـي تـونج وهوشى منه والأفغاني وكابوتشي والخـوميني، إن الثـورة المصرية هي المسـئولة عـن تحـول "معركـة الإسـلام والرأسمالية" إلى معركة الإسلام والجاهلية. لقـد راح سـيد قطب ضحية الصدام بين الأخوان والثورة في ١٩٥٤ فلا هو استطاع تطوير "العدالة الاجتماعية في الإسلام" أو "معركـة الإسلام والرأسمالية" أو "السلام العـالمي والإسـلام" إلـى الأيديولوجية الإسلامية الثورية التي تحفـظ للعـالم أصـالته وتحقق ثورته ولا هو استطاع القضاء على الملكية مناهضـة الاسـتعمار والرأسـمالية والصـهيونية وتحقيـق العدالـة الاجتماعية الممثلة في قوانين الإصلاح الزراعـي القـوانين الاشتراكية وفي تأسيس كتلة ثالثة، كتلـة عـدم الانحيـاز، الشعوب الآسيوية والإفريقية أو العالم الثالث.

وكتاب معالم في الطريق ليس مؤلفًا ذا بناء محكم، فصول وأبواب مفصلة بل مجرد تأملات تعبر عن عـذاب الـنفس وعزلتها في هذا العالم. يمثل تجربة روحية لسجين برئ يريد إعطاء خلاصة تجربته للأجيال القادمة، كل فصل فيها قـائم

بذاته أشبه بالورد الذي قرأه الصوفية ولكنهـا هـذه المـرة جماعات الشباب المؤمنة[٢٢٢]. والحاكمية هي الفكرة الرئيسية المسيطرة على الكتاب كله. وقد تم التركيز عليها بناء علـى التجربة النفسية للسجن ثم الرجوع إلى الوراء وإعادة قـراءة كتاباته السابقة وانتقاء نصوص الحاكمية منها مع أنها كانـت موجودة متناثرة من قبل داخل أفكاره الاجتماعية والفلسـفية دون أن تكون بؤرة في تفكيره أو محورا لتأملاته كما حديث بعد ذلك وهو في سجنه الثاني. لا تمثل هـذه المرحلـة إذن فكرًا واعيا شعوريا بل تمثل موقفًا لا شـعوريا بنـاء علـى الظروف النفسية والاجتماعية التي عاشتها جماعة الأخـوان المسلمين والتي عاشها الإمام الشهيد من خلالهم. فلم تظهـر فكرة الحاكمية لله ضد حاكمية البشر أو الإسلام ضد الجاهلية في المرحلة الأدبية التي بدأ فيهـا وعيـه الفنـي والأدبـي

---

[٢٢٢] الفصول الأربعة هي :طبيعة المنهج القرآني، التصور الإسـلامي والثقافة، الجهاد في سبيل الله، نشاة المجتمع المسلم وخصائصه. معـالم في الطريق ص ١٢، في ظلال القـرآن ص ٧، ص ١٠٠٤ – ١٠١٦ جـ ٩ ص ١٤٣١

والوطني. ولم تظهر أيضا في المرحلـة الاجتماعيـة التـي تطور فيها وعيه الأول إلى وعي اجتمـاعي إلا فـي أقـل الحدود. وتعني حاكمية التشريع مـن أجـل إقامـة مجتمـع إسلامي يقوم على العدالة والحرية والاستقلال الوطني. ولـم تظهر ثالثًا في المرحلة الفلسفية إلا كجزء من تصور إسلامي عام يقيم مجتمعا على الربانية والتوحيد أي علـى الشـريعة المنزلة وعلى تصور الوحدانية، وحدانية الضمير فلا نفـاق، ووحدانية المجتمع فلا طبقات، ووحدانية الأمم فلا حروب. لم تظهر الحاكمية لله ألا في المرحلة الرابعة المرحلة السياسـية التي كان فيها الإمام الشهيد سجينا للثورة المصرية، تـتحكم في فكره سيكلوجية السجين، ونفسية المضطهد، وواقع البرئ ووضع المظلوم. بدأ هذا الوضع النفسي الجديد يفرض نفسه على الماضي ويتحكم في مقاييس انتقاء الأفكـار والتركيـز على ما اتفق معها حتى أصبحت محورا رئيسيا بعد أن لـم تكن ذلك. ولو لو يحدث الصدام بين الأخوان والثورة ابتـداء من ١٩٥٤ واستمر النضال الاجتماعي والسياسي لسيد قطب فساهم في البناء الاشتراكي في أوائل الستينيات لامكن إسقاط الحاضر على الماضي. وبدل "معالم في الطريق" لكان لـدينا

الإسلام طريق الاشتراكية أيضا مجموعة نصوص مستقاة من "في ظلال القرآن".

ويدور "معالم في الطريق" على فكرة الحاكمية وما يتبعها من الجاهلية والصراع بين الإسـلام والجاهليـة، والجهـاد، والصفوة. وكأن الإمام الشهيد قد تحـول إلـى أبـي أعلـى مودودي آخر. صحيح أنه يشير إليه أحيانًا في عجز أمريكـا عن تحريم الخمر في "التنقيحات" للمودودي نقلاً عن الندوى في "ماذا خسر العالم بانحطاطات المسلمين؟"

أو مباشرة في الحاكمية عن "مبادئ الإسلام" للمودودي.

والحاكمية فكرة مستنبطة من العقدية الإسـلامية، عقيـدة الألوهية التي تنتج عنها العبوديـة، وعـن العبوديـة تنـتج الحاكمية. "إن الألوهية تعني الحاكمية العليـا.. وإن توحيـد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها معناه نزع السـلطان الـذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده كلـه إلى الله، السلطان على الضمائر، والسلطان علـى الشـعائر، والسلطان على واقعيات الحيـاة، والسـلطان فـي المـال، والسلطان في القضاء، والسلطان في الارواح والأبـدان.، إن "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي الـذي يغتصـب

أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التـي تقـوم على قاعدة من هذا الاغتصاب وخروج على السلطات التـي تحكم بشريعة من عندها لم يـإذن بهـا الله"[٢٢٣]. فالحاكميـة تحرر قبل أن تكون قيدا، وانطلاق قبل أن تكون كبتًا، وإقدام قبل أن تكون إحجاما. أتى الإسلام ولم تكن الغاية إقامة دولة بالرغم من اتساع الصحراء وتشتت القبائل ولكـن تحريـرا للنفوس عربا وفرسا وروما، وليس استبدال طاغوت عربـي بطاغوت فارسي أو رومي فالناس عبيد لله وحده. لا حاكمية إلا الله، ولا شريعة ألا من الله، ولا سلطان لأحد على أحـد لأن السلطان كله لله[٢٢٤].

يبغى الإسلام تحرير الإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن جنسيته وقوميته ولونه عن طريق إقرار عقيدة "لا إله إلا الله" بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم

---

[٢٢٣] معالم في الطريق ص ٢٦، في ظلال القرآن جـ ـ ٣ ص ٢٨٦، ٢٩٥، ٣٤٢، ٣٦١، ٣٨٧.

[٢٢٤] المصدر السابق ص ٢٩، في ظلال القرآن جـ ـ ٦ ص ٨٨٧ – ٨٩١.

كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعـاء هـذا الحـق لانفسهم، إقرارها في ضمائرهم، وإقرارها فـي أوضـاعهم وواقعهم[٢٢٥]. والحاكمية مازالت تشريعية أقرب منها إلهيـة فالله يحكم من خلال الشريعة وليس من خـلال أحكـام، إن القلوب يجب أن تخاص أولاً لله، وتعلن عن عبوديتهـا لـه وحده بقبول شرعه وحده، ورفض كل شرع آخر غيره مـن المبدأ قبل أن تخاطب تفصيل الشرع يرغب فيه، إن الرغبـة يجب أن تنبثق من خلال العبودية لله، والتحرر من سـلطان سواه لا من أن النظام المعروض عليها في ذاته خيـر ممـا لديها من الأنظمة في كذا وكذا على وجه التفصيل، إن نظام الله خير في ذاته لأنه من شرع الله، ولكن يكون شرع العبيد يوما كشرع الله، ولكن هذه ليست قاعدة الـدعوة، إن قاعـدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده أيا كان، ورفض كل شـرع غيره أيا كان هو ذاته الإسلام وليس للسلام مدلول سواه[٢٢٦].

---

[٢٢٥] معالم في الطريق ص ٤٠، في ظلال القـرآن ص ٧، ص ١٥٦، ١٠٥٨، ١٤٤٤ جـ ١٠ ص ١٥٦١ – ٢٥٦٣.

[٢٢٦] المصدر السابق ص ٤١ – ٤٢.

وأحيانًا تتفصل العقيدة في عدة مفـاهيم مثـل الألوهيـة، والربوبية، والقوامة، والسلطان، والحاكمية، فالحاكمية تتبـع عن الألوهية بعد الربوبية والقوامة والسلطان من أجل وصف فاعلية الألوهية وتوجيهها لحياة البشر. "والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري هـي قاعـدة شهادة أن لا إله إلا الله إلـى أفـراد الله سـبحانه بألوهيـة والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية، إفراده بها اعتقـادا في الضمير، وعبادة فـي الشـعائر وشـريعة فـي واقـع الحياة[٢٢٧].

وعلى نقيض الألوهية يأتي الشرك. والشرك يكون إما في صورة الاعتقاد والعبادة وإما في صورة الحاكمية والاتبـاع. الحاكمية إذن تعبير عن التوحيد العملي، فالتوحيد في حيـاة الإنسان على ما يقول ابن القيم توحيد نظر وتوحيـد عمـل، والثاني شرط الأول، وهو ما أبرزه أيضا محمد عبد الوهاب في "كتاب التوحيد". الإسلام هو إسلام العباد لـرب العبـاد

---

[٢٢٧] المصدر السابق ص ٥٤ – ٥٥، في ظلال القـرآن جـ ـ ٨ ص ١١٧٩ – ١١٨١.

وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده إخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم إلـى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحد في كل شأن من شـئون الحياة.. جاء (محمد) ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التـي تنظم وجودهم، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتـدبير غيـر المنهج السلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله بل الله هو الذي يعرف وجودهم في حيز الجانب الأرادي من حيـاتهم. فالناس محكومون بقوانين نظرية من صنع الله فـي شـأنهم ونموهم وصحتهم ومرضـهم، وحيـاتهم ومـوقعهم، وفـي حركاتهم الاختيارية ذاتها. وهم لا يملكون تغييـر سـنة الله وقوانينه الكونية التي تحدث هذا الكون وتصرفه. ومـن ثـم ينبغي أن يثوبوا إلى الإسلام في الجانب الأرادي من حياتهم، فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمة وفي كل شأن من شئون هذه الحياة تنسيقًا بين الجانـب الارداي فـي حيـاتهم والجانـب

الفطري وتنسيقًا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني[٢٢٨]. الحاكمية إذن تشمل الجانبين الإرادي واللاإرداي في الإنسان لذلك تبدو الحاكمية أحيانًا وكأنها ليست تشريعية فقط بل كونية أيضا ترجع إلى أصل أشمل في تقريره عـن الوجود كله لا عن الوجود الإنساني وحده والي منهج للوجود كله لا منهج للحياة الإنسانية وحدها. لـذلك يصـبح العمـل شريعة الله واجبا لتحقيق ذلك التناسق وفي مقابل شـريعة الله هناك أهواء للبشر "ولو اتبع الحق اهواءهم لفسـدت الأرض ومن فيهن" (المؤمنون: ٧١). فالحق الذي يقوم عليه الـدين هو الحق الذي تقوم عليه السـموات والأرض فـي الـدنيا والآخرة[٢٢٩]. وهنا تتحول الحاكمية إلى نظرة فلسفية ولـيس فقط إلى تشريع عملي، ترجع في أصـولها إلـى التسـلطية الأشعرية التي تقضي الإنسان والعالم واستقلالهما وتقتـرب من التصور الشيعي للشريعة الكونية.

---

[٢٢٨] المصدر السابق ص ٥٢ – ٥٣ ، في ظلال القرآن جـ ٩ ص ١٣٤٨ – ١٣٥٤.

[٢٢٩] المصدر السابق ص ١١١ – ١١٢.

ومع ذلك فالغالب على الحاكمية هي أنها أساس يقوم عليه المجتمع الإسلامي كما يدل على ذلك الشق التالي من الشهادتين في أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله "العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله والتلقي عن رسول الله في كيفية هذه العبودية هو شطرها الثاني المتمثل في شهادة أن محمد رسول الله"[(٢٣٠)]. وما يتلقاه المجتمع عن الرسول هو الشريعة. وبالتالي تتضمن الحاكمية الله ثم الرسول ثم الشريعة وليس كما يقول دعاة النظام الله ثم الرسول ثم أولى الأمر الذين يحكمون بغير ما أنزل الله. "أن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور وفي العبادات والشعائر ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس من هذه العبودية

(٢٣٠) المصدر السابق ص ٩٢.

الخالصة"[٢٣١]. فقبل أن يقرر الناس إخـلاص عبـوديتهم لله فإنهم لا يكونون مسلمين، وقبل أن ينظموا حياتهم على هـذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلما.

لذلك بالرغم من سيطرة فكرة الحاكمية المسـتنبطة مـن الألوهية والعبودية في المرحلـة السياسـية الأخيـرة إلا أن قضايا العدالة الاجتماعية لم تختف بتاتا. فالعدالة الاجتماعية أحد مظاهر الحاكمية. فقد ظهر الإسلام والمجتمـع العربـي بأسوأ ما يكون عليه المجتمع من سوء توزيع الثروة والعدالة فقد تملكت الفئة القليلة المال والتجارة، وتتعامل بالربا أضعافًا مضاعفة، والكثرة لا تملك إلا الجـوع والبـؤس وشـظف العيش. أصحاب الثروات هم أصـحاب الجـاه والشـرف، والأغلبية البائسة لا شرف ولا قيمة. لم يهدف الإسلام إلـى تغيير الوضع الاجتماعي بتغليب طبقة على طبقة وقلب الاية من سيادة الأقلية إلى سيادة الأغلبية ولكن بتحرير النفوس من خلال "لا إله إلا الله". فالعدالة الاجتماعية لابد وأن تنبثق من تصور اعتقادي شمال برد الأمر كله لله. كما كان الظلم فاشيا

---

[٢٣١] المصدر السابق ص ٩٦.

والدعارة منتشرة. ولم يكن الإسلام دعوة إصلاحية أخلاقيـة اجتماعية فالأخلاق فيه تنبثق من عقيدة "لا إلـه إلا الله". لـم يبدأ الإسلام إذن دعوة قومية أو دعوة اجتماعيـة أو دعـوة اخلاقية بل دعوة "لا إله إلا الله" في القلوب العقـل، قاعـدة الألوهية الواحدة لإزالة أدران النفوس التـي فشـلت الـنظم الأرضية في إزالتها بكل تشريعاتها وقوانينها"[٢٣٢].

وفي مقابل حاكمية الله توجد حاكمية البشر، وفي مقابـل المجتمع الإسلامي يوجد المجتمع الجاهلي. المجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع المتحضر والإسلام هو وحده الحضارة في مقابل المجتمعات الجاهلية المغلقة. المجتمـع الإسـلامي لا يحتاج إلى وصفه بأنه متحضر لأن الإسلام هـو التحضـر والمجتمع الإسلامي لا يكون ألا متحضرا[٢٣٣]. حـين تكـون

---

[٢٣٢] المصدر السابق ص ٢٩ – ٣٢.

[٢٣٣] يذكر سيد قطب بأنه بعد أن اعلان عن كتابه "نحو مجتمع إسلامي متحضر" ثم حذف متحضر نقده كاتب جزائري يكتب بالفرنسية "اظنـه مالك بن بنى) على أن ذلك دفاع نفسية داخلية عن الإسلام تحرم الكاتب من مواجهة المشكلة على حقيقتها، المصدر السابق ص ١١٧ – ١١٨. في ظلال القرآن ص ٦٠١ – ٦٠٢.

الحاكمية العليا في مجتمع الله وحده متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية تكون هذه هي الصورة الوحيدة التـي يتحـرر فيهـا البشر تحررا كاملاً وحقيقيا من العبودية للبشر، وتكون هـذه الحضارة الإنسانية[٢٣٤]. فالمجتمع الذي يخضع بعض إفـراده للبعض الآخر إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيـد، ومن ثم فهو متخاف أو بالمصطلح الإسلامي مجتمع جاهلي. فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع المتقدم والمجتمع الجـاهلي هو المجتمع المتخاف. المجتمع الإسلامي مجتمع مهيمن عليه إله واحد، والمجتمع الجاهلي تتحكم فيه روابط الجنس واللون والقوم والأرض. إذا كان الناس في الجاهلية يعبـد بعضـهم بعضا فان المجتمع الإسلامي وحده هو الـذي يتحـرر فيـه الناس جميعا من عبادة بعضهم ويعبد الجميع الله وحده. هـذا هو مفترق الطريق والتصور الذي أعطاه الإسـلام للبشـرية ورصيد الأمة وليس من منتجات الضارة الغربية ولا العبقرية الأوروبية شرقية أم غربية. المجتمع الجاهلي هو المجتمـع غير السلم. هذا يعني موضوعيا كـل مجتمـع لا يخلـص

---

[٢٣٤] المصدر السابق ص ١١٩ في ظلال القرآن جـ ٦ ص ٩٠٥.

عبوديته لله وحده في التصـور الاعتقـادي وفـي الشـعائر التعبدية وفي الشرائع القانونية وبالتالي يـدخل فيـه جميـع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً. فالإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات: مجتمع إسـلامي ومجتمـع جاهلي. المجتمع الإسلامي هو المجتمع الـذي يطبـق فيـه الإسلام عقيدة وعبادة وشـريعة ونظامـا وخلقًـا وسـلوكًا والمجتمع الجاهلي هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام ولا تحكمه عقيدته وتصوراته وقيمه وموزاينه ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه(٢٣٥).

لقد واجه الرسول قديما الجاهلية التي تقوم على حاكميـة البشر للبشر والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني، والتصادم بين منهج الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجانب الفطـري. ولكن جاهلية اليوم جاهلية أصلية جذرية أساسية لأنها تتعلق بمقومات الحياة وأنظمتها ولا تخفف منهـا هـذه الخـدمات المادية الضخمة وهذا الإبداع المادي الغزير "هذه الجاهليـة

---

(٢٣٥) المصادر السابق ص ١١٦ في ظلال القرآن جـ ٨ ص ١٢٢٠ – ١٢٢٤.

تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية، إنها تسند الحاكمية إلى البشر فتجعل بعضهم لبعض أربابا لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع بمعزل عن فهم الله للحياة وفيما لم يأذن بـه الله. فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عبـاده. وما مهانة الإنسان عامة في الأنظمة الجماعية، ومـا ظلـم الأفراد والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار في الـنظم الرأسمالية إلا أثرا من آثار الاعتداء على سلطان الله، وإنكار الكرامة التي قررها الله للإنسـان[٢٣٦]. حاكميـة البشـر إذن اعتداء على الله أي اعتداء على الإنسان بفرض نظام غيـر إلهي عليه.

---

[٢٣٦] المصدر السابق ص ١٠ في ظلال القرآن جـ ٧ ص ٩٩٠ جـ ـ ١٢ ص ١٨٥٢ ، ١٨٥٣.

والحاكمية لا تعني التشريع وحده بل تعني أيضا أصـول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصـول السـلوك وأصول المعرفة.

وتتمثل في الاعتقاد والتصور وفي الأوضـاع السياسـية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوم عليها وفي التشـريعات القانونية وقواعد الأخلاق والسلوك وبل وفي والنشاط الفنـي والنشاط الفكري، فالحاكمية تصور في الثقافـة تشـير إلـى مصدرها الديني. أما في العلوم البحتة فيأخذ المسلم مـن أي مصدر شاء. وعليه أن يطلع على آثار الجاهلية ليعرف كيف تنحرف وكيف يصحح هذا الانحراف ورد المجتمع الجاهلي إلى التصور الإسـلامي "أن اتجاهـات الفلسـفة بجملتهـا، واتجاهات تفسير التاريخ الإنساني بجملتها، واتجاهات علـم الـنفس بجملتهـا – عـدا الملاحظـات والمشـاهدات دون التفسيرات العامة لهـا – ومباحـث الأخـلاق بجملتهـا – واتجاهات دراسات الأديان المقارنـة بجملتهـا، واتجاهـات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات، أن هذه الاتجاهات كلها في الفكر

الجاهلي أي غير الإسلامي قديما وحديثـًا متـأثرة تـأثرا مباشرة بتصورات اعتقادية جاهلية"[٢٣٧].

إن حكاية أن الثقافة تراث إنساني لا وطن له ولا جـنس ولا دين صحيحة في العلم وليس في الثقافة، إن لدى المسـلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشئون وفي السموات وفي المستوى الذي تبدو فيه محـاولات البشـر فـي هـذه المجالات هزيلة ومضحكة[٢٣٨]. بل أن الاتجاه التجريبي ذاته الذي يعتز به الغرب والذي قامت عليه الحضارة الصـناعية الأوروبية الحاضرة لم ينشأ ابتداء في أوربا بـل نشـأ فـي الجامعات الإسلامية في الأندلس في المشرق مستمدا أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ثم استقلت النهضة العملية في أوربا بهذا المنهج واسـتمرت تنيه وترقيه بينما ركد وترك نهائيا في العالم الإسلامي بسبب

---

[٢٣٧] المصدر السابق ص ١٤٠ في ظلال القرآن جـ ١٢ ص ١٩٠٢ – ١٩٠٦ وص ١٩٣٩ – ١٩٤٨.

[٢٣٨] المصدر السابق ص ١٤١ انظر أيضا مقالنا – موقفنا من التراث الغربي، "قضايا معاصرة" جـ ٢ ص ٣ – ٣٣.

بعد هذا العالم تدريجيا عن الإسلام بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجـوم عليـه مـن الصليبية والصهيونية. ثم قطعت أوربا ما بين المنهج الـذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية وشردت به نهائيـا بعيدا عن الله في أثناء شرودها عن الكنيسـة التـي كانـت تستطيل على الناس بغيا وعدوانًا باسم الله وبالتالي تغير نتائج الفكر الأوروبي. أما الإسلام فإنـه لا يفصـل بـين العلـم وصاحب العلم. فالعلم الذي ينقطع عن العقيدة الإيمانية لـيس العلم الذي يبغيه القرآن. العلم الأوروبي يبعد عن الله. "اتجه المنهج الأوروبي إلى النهضة العلمية الحديثة مـع الاسـف بسبب تلك الملابسات النكدة التي قامت في التاريخ الأوروبي خاصة بين الكنيسة الغاشمة ثم ترك آثاره العميقة في منـاهج الفكر الأوروبي كلها وفي طبيعة التفكير الأوروبي. وتـرك تلك الرواسب المسماه بالعداء لأصل التصور الديني جملة – لا لأصل التصور الكنسي وحده ولا الكنيسة وحدها – في كل ما أنتجه الفكر الأوروبي"[٢٣٩].

---

[٢٣٩] معالم في الطريق ص ١٤٧.

والمجتمعات الجاهليـة أربعـة: المجتمعـات الشـيوعية والمجتمعات الوثنيـة المجتمعـات اليهوديـة والنصـرانية والمجتمعات التي تزعم لنفسها أنهـا مسـلمة. فالمجتمعـات الشيوعية في رأي سيد قطب مجتمعات ملحدة تنكر وجود الله أصلاً ، وترجع الفاعلية إلى المادة أو الطبيعـة وفـي حيـاة الإنسان إلى الاقتصاد أو أدوات الإنتاج. وتقيم نظاما العبودية فيه للحزب على فرض أنه ممثل للقيادة الجماعية وما يترتب على ذلك من اهدار لكرامة الإنسان باعتبـار أن المطالـب الأساسية لها هي مطالب الحيوان: الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس وحرمانه من حاجاته الروحية: العقيدة في الله، حرية اختيارها، حرية التعبير عنها وعن فرديتها التـي تتجلى في الملكية الفردية واختيار نوع العمـل والتخصـص وفي التعبير الفني عن الذات. فهو مجتمع ينكـر وجـود الله ويفسر التاريخ تفسيرا ماديا ويطبق ما يسـميه الاشـتراكية العلمية نظاما. وعندما تكون المادة في أية صورة هي القيمة العليا سواء في النظرية كما في التفسير الماركسي للتاريخ أو في صورة الإنتاج المادي كما في أمريكا وأوربا فـإن هـذه المجتمعات تكون متخلفة أي بالمصطلح الإسـلامي جاهلـة.

والمجتمع الإسلامي لا يحقر المادة إلا في النظرية لأنها مكون من مكونات الكون ولا في الإنتاج لأنه من مقومات الخلافة في الأرض ولكنه لا يعتبرها القيمة العليا التي من أجلها تهدر قيمة الإنسان. في المجتمع الجاهلي تتغير القيم وتتبدل، ولا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل كما يزعم التفسير المادي للتاريخ والاشتراكية العلمية. وعندما يكون الجنس هو أساس الأسرة يكون ذلك هو التخلف الحضاري فالمرأة ليست زينة أو غواية. لقد أغرت الأخلاق في المجتمعات الحديثة وشاعت العلاقات الجنسية. وواضح من هذا الوصف للمجتمعات الأوروبية الشيوعية منها والرأسمالية القوالب التقليدية مثل الإيمان والإلحاد، والتعارض بين المادة والروح. فالمجتمعات الشيوعية ترفض الدين الذي صورته الكنيسة وهو ليس بدين، والمجتمعات الأوروبية تلجأ إلى الطبيعة تكشف بداخلها عن مكوناتها دون كبت يؤدي إلى الانهيار أو النفاق. ومازال الدين ينمو نموا رأسماليا في التصور والتأكيد على حق الملكية الفردية وحق

الإرث وكأن "الرد على الدهرين" عند الأفغاني مازال ساري المفعول"[٢٤٠].

أما المجتمعات الوثنية في الهند واليابان والفلبين وإفريقيـا فيقوم تصورها الاعتقادي على تأليه غيـر الله كمـا تقـوم الشعائر التعبدية لشتى الإلهية والمعبودات وتقـيم الأنظمـة والشرائع المستمدة من العابدة والكهنة والسـدنة والسـخرة والشيوع أو هيئات مدنية علمانية تملك سلطة التشـريع دون الرجوع إلى الله. لها الحاكمية العليا باسم الشـعب أو باسـم كائن من كان ذلك لأن الحاكمية العليـا لا تكـون إلا لله ولا تُزال إلا بالطريقة التي بلغها عن رسله.

أما المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجـاء الأرض جميعا فإنها تقوم على تصور اعتقادي محرف يجعل للألوهية شركاء بالنبوة أو بالتثليث. كما تنبثـق شـعائرها التعبديـة ومراسمها وطقوسها عن هذه الاعتقادات الضالة. أما أنظمتها وشرائعها فإنها لا تقوم على العبودية لله وحده بـالإقرار لـه

---

[٢٤٠] المصدر السابق ص ٩٨ – ٩٩ ص ١١٦ في ظلال القرآن جـ ـ ٨ ص ١٧٥٥ – ١٢٥٨.

وحده بحق الحاكمية العليا التي لا تكون ألا لله. وقد وصـفهم الله بالشرك لأنهم جعلوا هذا الحق للأحبار الرهبان يشرعون لهم من عند أنفسهم ويقبلون ما يشرعون لهم. أما المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة فبالرغم من أنها تعتقد بألوهيـة الله وتقدم الشعائر التعبدية له ألا أنها لا تدين بالعبودية له في نظام حياتها، وتعطي أخص خصائص الألوهيـة لغيـر الله، فتدين بحاكمية غير الله، وتتلقى من هذه الحاكميـة نظامهـا وشرائعها وقيمها وموازينها وعاداتها وتقاليدها وكل مقومات حياتها تقريبا(٢٤١). هي المجتمعات التي لا تنكـر وجـود الله ولكن تجعل له ملكوت السموات وتعزله عن ملكوت الأرض فلا تطبق شريعته في نظام الحياة وتبيح للناس أن يعبدوا الله

---

(٢٤١) يذكر سيد قطب آيات الحاكمية المشهورة "ومن لم يحكم بما انزل ليه فأولئك هم الكافرون" (المائدة: ٤٤) "الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريـدون أن يتحـاكموا إلـى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به.. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكوك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضـيت ويسـلموا تسليما" – (النساء ٦١ – ٦٥) "وان تنازعتم في شيء فـردوه إلـى الله والرسول" (النساء : ٩٥) .

في البيع والكنائس والمساجد ولكن تحرم عليهم أن يطـالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم وهي بـذلك تنكـر أو تعطـل الألوهية، ألوهية الله في الأرض التي نصل القـرآن عليهـا "وهو الذي في السماء إله وفي والأرض إله" (الزخرف: ٨٤) إن الحكم إلا الله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه.. ذلك الدين القـيم" (يوسف: ٤٠). وتعلن هذه المجتمعات إما العلمانيـة وعـدم علاقتها بالدين أصلاً وإما احترام الدين ولكن تخرجـه مـن نظامه الاجتماعي لأنها تنكر الغيب وتقيم نظمها على العلمية التي تناقض الغيب وإما تكون الحاكمية فيها لغير الله يشـرع ما يشاء ويدعي أنها من عند الله. والإسلام يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها. فالحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده وتلتقي مع سائر المجتمعـات في صفة الجاهلية. وليس لأحد أن يقول بشرع يشرعه هـذا شرع الله إلا أن تكون الحاكمية العليا لله معلنـة وان يكـون مصدر السلطات هو الله لا الشعب ولا الحزب ولا أي مـن البشر. ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطان باسم الله الذي عرفته أوربا ذات يوم باسـم الثيوقراطيـة أو الحكـم المقدس. وليس شيء من هذا في الإسلام. وما يملك أحـد أن

ينطق باسم الله إلا رسوله "ليس المجتمع الإسلامي هو الـذي يضم ناسا ممن يسمون أنفسهم مسلمون بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع وإن صلى وصام وحج البيـت الحرام. وليس المجتمع الإسلامي هو الـذي يبتـدع لنفسـه إسلاما من عند نفسه يسميه الإسلام المتطور[٢٤٢].

وعلاقة المجتمع الإسلامي بـالمجتمع الجـاهلي علاقـة انفصال وتضاد وحرب فلا وجود لأحدهما مع وجود الآخر. ولا واسطة بينهما ولا أنصاف حلـول ولا تعـايش سـلمي. ليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ولا الأوضاع القائمة في كل مكـان. لـم تكن هذه وظيفته يوم جاء ولن تكون هذه وظيفته اليـوم ولا في المستقبل. فالجاهلية هي الجاهلية، هي الانحـراف عـن العبودية لله وحده وعن المنهج الإلهي في الحيـاة واسـتنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي. الإسلام هو الإسـلام ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام. الجاهليـة

---

[٢٤٢] المصدر السابق ص ١١٦.

هي عبودية الناس للناس بتشريع بعض الناس للناس بما لـم يإذن به الله كائنة ما كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع. والإسلام هو عبودية الناس لله وحـده بتلقـيهم منـه وحـده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم، والتحرر من عبودية العبيد.، إن الإسلام لا يقبـل أنصـاف الحلول مع الجاهلية لا من ناحية التصور، فإمـا إسـلام أو جاهلية. وليس هناك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية فيقبله الإسلام ويرضاه. فنظرة الإسلام واضحة في أن الحق لا يتعدد وان ما عدا هذا الحق فهو الضلال، وهما غير قابلين للتلبس والامتزاج وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية. وإمـا شريعة الله وإما الهوى. فهما أمـران لا ثالـث لهمـا، إمـا الاستجابة لله والرسول. وإما اتباع الهوى، إما حكم الله وإمـا حكم الجاهلية، إما الحكم بما أنزل الله وإما الفتنة عما أنـزل الله. وظيفة الإسلام إذن هي إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص. هذه الجاهلية خبثـت قديما وخبثت حديثًا. لا يوجد شيء اسمه ديموقراطية الإسلام أو اشتراكية الإسلام، إن الانتقال من الجاهلية للإسلام نقلـة بعيدة لا وساطة ولا ترقيع. والنفس البشرية فيها الاسـتعداد

للانتقال الكامل من حياة إلى حيـاة، إن الإسـلام لا يتخـذ المبررات له من النظم الجاهلية[٢٤٣].

ولا يمكن الالتقاء بين المجتمعين لأن المسألة في حقيقتهـا مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيـد، مسـألة جاهليـة وإسلام، إن الناس ليسوا مسلمين كما يدعون وهم يحيون حياة الجاهلية. والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلـى الإسلام ولتجعل منهم مسلمين من جديد.، إننا نحن الذين نقدم الإسلام للناس ليس لنا أن نجاري الجاهلية في شـيء مـن تصوراتها ولا شيء من تقاليدها التي يشتد ضغطها علينا، إن وظيفتنا الأولى هي إحلال التصورات الإسـلامية والتقاليـد الإسلامية في مكان الجاهلية ولن يتحقق هذا بمجاراة الجاهلية والسير معها خطوات أول الطريق.... لن يكون هـذا بـأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات..، إننا نعـيش وسـط جاهلية وإننا أهدى طريقًا من هذه الجاهلية وإنها هوة فاصلة لا يقام فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق ولكن ينتقـل

---

[٢٤٣] المصدر السابق ص ١٦٢ – ٢٧٢ في ظلال القـرآن ص ١٤٩ جـ ٧.

عليه أهل الجاهلية إلى الإسلام سواء كانوا ممن يعيشون في الوطن الإسلامي ويزعمون أنهم مسلمون أو كانوا يعيشـون في غير الوطن الإسلامي..، إن المعركـة بـين المـؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدية وليست شيئًا آخر على الإطلاق، وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان ولا يسخطون منهم إلا العقيدة، إنها ليست معركـة سياسـية ولا معركة اقتصادية ولا معركة عنصرية بل معركة عقيدة إمـا كفر وإما إيمان إما جاهلية وإما إسلام. فإذا اضطر المسـلم إلى التعامل مع الجاهلية دون أن يقاطعها وينزوي وينعـزل عنها فإنما هي المخالطة مع التميز والأخذ والعطاء مع الترفع والصدع بالحق في مودة والاستعلاء بالإيمان في تواضـع. التعامل بالبدن مع الانفصام بالروح، المؤمن هو الأعلى سندا ومصدرا وإدراكًا وتصورا للحقيقة والوجود، وتصورا للقـيم والموازين وضميرا وشعورا، وخلقًـا وسـلوكًا، وشـريعة ونظاما[٢٤٤]. ويتكون المجتمع الإسلامي بثلاثة أنفـار وحـين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر فان هذه العقيـدة ذاتهـا

---

[٢٤٤] المصدر السابق ص ٢٣٧ – ١٧٦ – ٢٠١.

تقول لهم أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصـل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ولا تسود فيه قيمها الأساسية.. والثلاثة يصبحون عشرة، والعشـرة مائـة والمائة ألفًا، والألف اثنى عشر ألفًا، ويبرز ويتقرر المجتمـع الإسلامي وفي الطريق تقوم المعركة بين المجتمـع الوليـد والذي انفصل بعقيدته وتصـوره ووجـوده عـن المجتمـع الجاهلي الذي أخذ منه أفراده. وهكذا ينشأ المجتمع الإسلامي ويتكون المجتمع الإسلامي ويتكون المجتمع المسلم. وينشـأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس العبودية لغير الله إلى العبودية لله إقامة نظام حياة هذه الجماعة علـى العبوديـة. عندئذ يولد مجتمع جديد من المجتمع الجاهلي القـديم. وقـد ينضم المجتمع الجاهلي القديم إلى المجتمع الإسلامي الجديـد وق لا ينضم. وقد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربـه وإن كانت السنة قد جرت على أن يشن المجتمـع الجـاهلي حربا لا هوادة فيها سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه أو على المجتمع نفسه بعد قيامه فعلا. طبيعي ألا ينشأ المجتمع المسلم ويتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة مـن القـوة يواجه بها المجتمع الجاهلي القديم بقوة الاعتقـاد التصـور،

وقوة الخلـق والبنـاء النفسـي، وقـوة التنظـيم والبنـاء الجماعي(٢٤٥).

وجنسية المسلم عقيدته. وجاء الإسلام ليرد الإنسان إلـى ربه وليجعل هذه السلطة الوحيدة التي يتلقى منهـا موازينـه وقيمه. هناك حزب واحد لا يتبدد هو حـزب الله وأحـزاب أخرى كلها للشيطان وللطاغوت. وهناك طريق واحد يصـل إلى الله، وليس كل طريق يؤدي إليه. هناك نظام واحد هـو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهـو جاهليـة "أفحكـم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكمـا لقـوم يفقهـون" (المائدة: ٥٠). هناك شريعة واحدة هي شريعة الله، وما عداها فهو هوى. وهناك حق واحد لا يتعدد وما عداه هو الضلال. وهناك دار واحدة هي دار السلام وما عداها فهو دار حـرب علاقة المسلم بها إما القتال وإما المهادنة على عهد أمان. كل أرض تحارب المسلم في عقيدته. وتصده عن دينه وتعطـل عمل شريعة فهي دار حرب ولو كان فيها أهله وعشـيرته،

---

(٢٤٥) المصدر السابق ص ٩٧ – ٩٨ في ظـلال القـرآن ص ١٤ ص ٢١٥٦.

قومه وماله وتجارته. وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعة فهي دار السلام. ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ولا قوم ولا تجارة. الوطن دار تحكمها عقيدة و منهاج حياة وشريعة من الله. لا وجود لشعب مختار إنما الشعب المختار الأمة المسلمة. لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام، ولا تقوم فيها شريعته، ولا دار إسلام إلا تلك التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه. وليس وراء الإيمان إلا الكفر وليس دون الإسلام إلا الجاهلية. وليس بعد الحق إلا الضلال[٢٤٦].

الإسلام إذن في حالة جهاد دائم ضد الجاهلية. والجهاد ليس كما يقول المدافعون عنه ضد اتهام المستشرقين له للدفاع فقط وليس الهجوم فيخلطون بين منهج السياسة المادية التي تحول بين الناس وبينه والتي تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله، إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعباد ومن العبودية لهواه أيضا وهي من العبودية للعباد وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه –

---

[٢٤٦] المصدر السابق ص ١٦١.

وربوبيته للعالمين! إن إعلان ربوبيـة الله وحـده للعـالمين معناها الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كـل صـورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها والتحرر الكامل من كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصـور أو بتعبير آخر مرادف. الألوهية فيه للبشر فـي صـورة مـن الصور ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر ومصدر السلطات فيه هم البشر هو تإليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أربابا من دون الله، إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله وطرد المغتصبين له الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأربـاب، ويقوم الناس منهم مكان العبيد، إن معناها تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض[٢٤٧]. فالجهاد إذن مـن طبيعـة الإسلام لتحرير الوجدان البشري وإعلان حرية العقيدة ضـد الغفلة والقهر الذي يسود نظم البشر. فقد تعهدنا "ألا نعبـد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون

---

[٢٤٧] المصدر السابق ص ٦٦ – ٧٦ في ظلال القـرآن جـ ـ ١٣ ص ٢١١٤ – ٢١٢٢.

الله" (آل عمران: ٦٤). ومملكة الأرض لا تقوم بأن يتـولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم وهم رجال الدين – كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الإله كما كان الحال فيما يعرف باسم الثيوقراطية أو الحكم الإلهي المقدس ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمية، وإن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شـريعة دينيـة.. وقيام مملكة الأرض وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السـلطان من ايدي مغتصبيه من الجهاد ورده إلى الله وحده، وسـيادة الشريعة الإلهية وحدها، وإلغاء القوانين البشرية. كل ذلك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان لأن المتسلطين على رقاب العبـاد والمغتصبين لسلطان الله في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان..، إن هذه الإعـلان العـام لتحريـر الإنسان في الأرض من كل سلطان غير سلطان الله بـإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين لم يكن إعلانـه نظريـا فلسفيا سلبيا إنما كان إعلانًا حركيًا واقعيا إيجابيا، إعلانًا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشـريعة الله

وبخروجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحـده بلا شريك[٢٤٨].

ويواجه هذا التحرير بعقبات اعتقادية وتصورية وأخـرى مادية واقعية وثالثة سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية. وفي مقدمتها عقبات السلطان السياسي القائم علـى العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية الاجتماعية والاقتصادية وليس المهم البيان بل الحركة. هذا الدين يـرد العالمين إلى ربهم وينتزعهم من العبودية لغيره. وبالعبوديـة الكبرى في نظر الإسلام يقرر أنها لا تكون ألا لله وإن مـن يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين وقد نص الرسول على أن الاتباع في الشريعة والحكـم هو العبادة التي صار بها اليهود والنصارى مشركين مخالفين لما أمروا به من عبادة الله وحده... الإسـلام إعـلان عـام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد. فهو يهدف ابتـداء إلـى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أسـاس حاكميـة البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان.، إن النظام الذي يحكم

---

[٢٤٨] المصدر السابق ص ٦٨.

البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحـده وذلك بتلقي الشرائع منـه وحـده[٢٤٩]. الانطـلاق الحركـي للإسلام في صورة الجهاد بالسياق إلى جانب الجهاد بالبيـان ليس حركة دفاعية فقط بل حركة اندفاع وانطـلاق لتحريـر الإنسان في الأرض دفاعا عن الإنسان ذاتـه ورد العـدوان البشري عليه. الجهاد إذن هو إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعـالمين وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض وإقامـة مملكـة الشرعية الإلهية في عالم الإنسان[٢٥٠]. لابد من إزالة العقبات بالقوة فالجهاد ضرورة للدعوة كي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله.

والناس ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنه، وأهل ذمة، وأهـل حرب، القسم الأول مسلم مؤمن به، والثاني مسالم لـه آمـن والثالث مخالف له محارب دعاه أهل الصلح والهدنة للإسلام فصار الناس قسمين أهل ذمة ومحاربين له. ولما كان أهـل

---

[٢٤٩] المصدر السابق ص ٧٢ – ٧٥.

[٢٥٠] المصدر السابق ص ٧٢ – ٧٥.

الذمة تحت أمن الإسلام أصبح هناك مجتمعان مجتمع الإسلام ومجتمع الحرب، وكلاهما ضدان لا يجتمعـان. "لا يتعـايش الحق والباطل في هذه الأرض وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعـاملين، وتحريـر الإنسـان مـن العبودية للعباد رماه المغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس مـن سلطانهم ويدفع عن الإنسـان فـي الأرض ذلـك السـلطان الغاضب"[٢٥١].

إن الجهاد في الإسلام لا يحتاج إلى مبررات أدبيـة بـل مبرراته فيه ذاته. "تقرير ألوهية الله فـي الأرض، وتحقيـق منهجه في حياة الناس ومطاردة الشياطين، وتحطيم سـلطان البشر الذي يتعبد الناس، والناس عبيد الله وحده. لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة مـن هواه ورأيه..، إنها مبررات التحرير العـام للإنسـان فـي الأرض... إخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبوديـة لله

[٢٥١] المصدر السابق ص ٧٦.

وحده بلا شريك"[٢٥٢]. وكان جواب المسلمين إذا ما سالهم أحد عن الإسلام: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده... وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء ولـو لـم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها، إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة وموقوته. فالإسلام يبدأ بتحرير البشر مما وقع عليهم من اعتداء من سلطان البشر الممثل في الأنظمة السياسية، إن الانطلاق بالمذهب الإلهي تقوم في وجهة عقبات مادية مـن سلطة الدولة ونظام المجتمع وأوضاع البيئة، وهذه كلها هـي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة كي يخلو له وجه الأفراد من الناس يخاطب ضمائرها وأفكارهم بعد أن يحررها مـن الأغلال المادية، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار[٢٥٣]، إن النظم الجاهلية بمعاداتها النظام الإسلامي إنما تدافع عن بقائها

---

[٢٥٢] المصدر السابق ص ٨٣ – ٨٤ في ظلال القـرأن جـ ـ ١١ ص ١٧٣٧ – ١٧٣٨.

[٢٥٣] المصدر السابق ص ٨٥.

بالهجوم عليه. حقًا إنه لم يكن بد لهـذا الـدين إلا أن يـدفع المهاجمين له. الآن مبرر وجوده في صـورة إعـلان عـام لربوبية الله للعاملين، وتحرير الإنسان من العبودية لغيـر الله وتمثل هذا الوجود في مجتمع تنظيمي حركي تحـت قيـادة جديد غير قيادات الجاهلية وميلاد مجتمع مسـتقل متميـز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية لأن الحاكمية فيه لله وحده، إن مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لابـد أن يـدفع المجتمعات الجاهلية من حوله – القائمة على قاعدة العبوديـة للعباد – أن تحاول سحقه دفاعا عن وجودها ذاته، ولابـد أن يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه... هذه ملابسة لابـد منها تولد مع ميلاد الإسلام ذاته. وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضا ولا خيار له في خوضها. وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً.. لابد للإسلام أن يدافع عن وجوده ولابد أن يخوض معركته دفاعية مفرضـة عليه فرضا، إن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الإمام ابتداء لإنقاذ الإنسان في الأرض من العبودية لغير الله.. هذه طبيعة هذا الدين، وهذه وظيفته بحكم أنـه إعـلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير الإنسان من كـل عبوديـة

لغير الله في الناس أجمعين... القضية هي قضية ألوهيـة الله وعبودية العباد[٢٥٤].

إن من حق الإسلام أن يبدأ الهجوم على الجاهلية إن لـم تبادئه الجاهلية بالهجوم. حتى إذا لم تهاجم الجاهلية الإسـلام فإن الإسلام لا يتركها تزاول عبودية البشر للبشر، ولا يدعها دون أن يمد إليها دعوته إلى التحريـر العـام. لا يهادنهـا الإسلام إلا أن تعلن استسلامها لسـلطانه فـي صـورة اداء الجزية ضمانًا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائـق ماديـة مـن السلطات القائمة فيها.. كان الإسلام مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها بحكم وجوده الذاتي ووجـود المجتمعـات الجاهلية الأخرى التي لابد أن تهاجمه. والإسلام بذاته يتحرك ابتداء فيدخل المعركة. الإسلام منهج إلهي جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض وعبودية البشر جميعا لإله واحد. ويصب هذا التقرير في قالب واقعي، هو المجتمع الإنساني الذي يتحـرر فيه الناس من العبودية للعباد بالعبودية لـرب العبـاد. فـلا تحكمهم إلا شريعة الله التي يتمثل فيها سلطان الله أو بتعبيـر

---

[٢٥٤] المصدر السابق ص ٨٦ – ٨٧.

آخر تتمثل فيه ألوهيته. فمن حقه أن يزيل العقبات كلها مـن طريقه ليخاطب وجدان الأفراد وعقـولهم دون حـواجز أو موانع مصطنعة من نظام الدولة السياسي أو أوضاع النـاس الاجتماعية...، إن من حـق الإسـلام أن يتحـرك ابتـداء. فالإسلام ليس نحلة قوة ولا نظام وطن ولكنه منهج إله ونظام عالم. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز عـن الأنظمـة الأوضاع التي تغل عن حرية الإنسان في الاختيار. وحسـبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرهم على اعتناق عقيدته إنما يهـاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التـأثيرات المفسـدة للفطرة لحرية الاختيار. من حق الإسلام أن يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ليحقق إعلانه العام بربوبيـة الله للعاملين وتحرير الناس أجميعن. وعبـادة الله وحـده لا تتحقق في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي إلا في ظـل النظام النظام الإسلامي فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم.. تشريعا واحدا يخضع له الجميع على السـواء. أما في سائر الأنظمة فيعبد الناس العباد لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد وهو من خصائص الألوهيـة اختصاصـا وعملاً سواء ادعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء. فأيما بشـر

آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف لـه بحـق الألوهية سواء سماها باسمها أم لم يسمها... الإسلام مـنهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كـل النـاس والتجمعات الأخرى لا تمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفـق منهجه هو. ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام. وهذا معنى أن يكون الـدين كله لله فلا تكون هنا دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاتـه كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد[٢٥٥].

قد يتأجل الجهاد إلى حين لمقتضيات المعركة ولكن ذلـك لا يعني إيقافه أو التخلي عنه. الإسـلام مـنهج الله للحيـاة البشرية. وهو منهج يقوم على أفـراد الله وحـده بالألوهيـة متمثلة في الحاكمية، وينظم الحياة الواقعية بكـل تفصـيلاتها اليومية... وحيثما وجد التجمع الإسلامي الذي يتمثـل فيـه المنهج الإسلامي فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم وتقرير النظام مع ترك مسـألة العقيـدة الوجدانيـة لحريـة

---

[٢٥٥] المصدر السابق – ٨٨ – ٩٠ في ظلال القرآن جـ ٢ ص ١٧٦.

الوجدان. فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ، مسألة مقتضيات حركـة لا مسألة عقيدة[٢٥٦].

ولتحقيق ذلك لابد من قيادة. فالعـالم الآن علـى حافـة الهاوية. والمجتمع في حاجة إلى قيادة جديدة. والمعسـكران الغربي والشرقي على حافة الإفلاس في عالم القيم بالرغم من الازدهار المادي، وبالرغم من تعاونيهما معا واقتبـاس كـل نظام ما ينقصه من النظام الآخر. فقد استعارت النظم الغربية بعض الأنظمة الاقتصادية مثل الاشتراكية كما انتهت الـنظم الشرقية بعقيدتها الجماعية إلى اقتصارها على الدولة لأنهـا نظم تعـارض الفطـرة البشـرية وتقـوم علـى التسـلط والدكتاتورية. لقد قام الغرب بنهضته العلمية التي أدت دورها منذ القرن السادس عشر حتى بلغت الذروة في القرن التاسع عشر ولكنها لم تعد قادرة على أن تقدم جديدا بـل ظهـرت مآسي العم وتطبقياته في القرن العشرين. كما أدت الوطنيـة والقومية أدوارها وأفلست بفعل حربين أوربيتين طـاحنتين.

---

[٢٥٦] المصدر السابق ص ٩٠ – ٩١.

كما فشل النظامان الرأسمالي والشيوعي، الفردي والجماعي ولم يعدا يقدمان للبشرية أي تقدم وازدهار. فقيـادة الغـرب أوشكت على الزوال والإنسـانية فـي حاجـة إلـى قيـادة جديدة.[(٢٥٧)].

والإسلام وحده هو القادر على هذه القيادة الجديـدة لمـا يملكه من قيم ومنهج فهو المنقذ للبشرية من حافة الهاويـة. ولما كانت الجاهلية سائدة في الأرض ولا خلاص منهـا إلا بالربانية فإن مهمة القيادة الإسلامية رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته، ونزع المجتمع من قيادته الجاهلية الوثنيـة مثـل الكهنـة والذمـة والسـحرة والعرافيـة أو السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية[(٢٥٨)]. وفي الإسلام وحده تتوافر شروط القيـادة. فهو أولاً لا يتنكر للإبداع المادي في الأرض لأن الإنسـان خليفة الله في الأرض. فالخلافة هنا تعني الإبـداع المـادي

---

(٢٥٧) المصدر السابق ص ٥ – ٧ في ظلال القـرآن ٢٦ ص ١٢٩ – ١٣٩.

(٢٥٨) المصدر السابق ص ٥٦.

والإنتاج والسيطرة على قوانين الطبيعة. ثانيا: بعث الأمة من جديد لأن الإسلام لا يقوم إلا بأمة. فالعقائد المجردة لا تقـود البشرية قبل أن تتمثل في مجتمع. الأمة ليست قوما أو أرضا بل جماعة بشرية تتحد بتصوراتها للكون وبأنظمتها وقيمها. وقد انقطع وجود هذه الأمة منذ توقف الحكـم بشـريعة الله. وبالتالي لابد وأن تعود هذه الأمة وأن يستمر وجودها عـن طريق بعثها من جديد. ثالثًا، أن تكون لهذه الأمة القيادة بعـد البعث بالرغم من المسافة الشاسعة بين مرحلة البعث ومرحلة القيادة، وبالرغم من رصيد الغرب الضخم من العلم والثقافـة والتي لا يمكن للبشرية التنازل عنها بسهولة. رابعا، مؤهلات الأمة لا يمكن أن تكون الإبداع المادي في هذه المرحلة وهو الضرورة الذاتية لوجودها باعتبارها خليفة الله فـي الأرض أي عبادة الله وتحقيقًا لغاية الوجود الإنساني. لابد من مؤهل العقيدة والمنهج الذي يسمح بالحفـاظ علـى نتـاج الإبـداع المادي[٢٥٩].

---

(٢٥٩) المصدر السابق ص ٨ – ١٠.

وهذا كله يتطلب قيادة. يتطلب طليعة تعقد العزم وتسير في الطريق، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في خضم الأرض جميعا. تمضي وهي تزاول نوعا من العزلة من جانب ونوعا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة[(٢٦٠)]. وتحتاج هذه الطليعة إلى "معالم في الطريق" لتعرف طبيعة دورها، وحقيقة وظيفتها، وطلب غايتها، ونقطة البدء، وتعرف خصائصها وخصائص الجاهلية، أين تلتقي مع الناس واين تفترق، وتعرف خصائصها وخصائص الجاهلية من حولها: كيف تخاطب الجاهلية بلغة الإسلام، وقيم تخاطبها، ومن أين تلتقي هديها وكيف فالكتاب إذن يصف الخطوات العملية لتحقيق حاكمية الله وتدمير حاكمية البشر. بالرغم من أنه يحتوي على مجرد مبادئ عامة دون إعداد تنظيم انقلاب فعلي. يعطي فقط الروح والفكر ويعبر عن القصد والهدف.

وتتحقق هذه القيادة عن طريق تربية الصفوة وإعدادها. والصفوة ظاهرة تاريخية يمثلها جيل الصحابة، هذا الجيل

[(٢٦٠)] المصدر السابق ص ١١ – ١٢.

القرآني الفريد. وليس المهم شخص الرسول كمركز للـدعوة لا تقوم بدونه بل تربية جيل قادر على الاستمرار بها. وقـد تحقق هذا الجيل في ثلاث مراحـل عـن طريـق القـرآن وتوجيهاته أولاً إلى التصور في نفوس الصفوة و ثانيا إلـى تغيير مجرى التاريخ.

أولاً: كان النبع الأول هو القرآن. والحديث من آثار ذلك النبع. لم يكن الرصيد حضارة أو ثقافة أو علما أو مؤلفات أو دراسات. كانت هناك حضارة اليونان والرومان التي مازالت أوربا تعيش عليها اليوم وكانت هناك حضارة الفرس والهنـد والصين وكلها تحيط بالجزيرة العربية كما كانـت اليهوديـة والنصرانية تعيش في قبها. ولكن للأسف اختلطـت الينـابيع فضاعت الأجيال وأخذ المسلمون تصـوراتهم مـن فلسـفة اليونان والرومان وأساطير الفـرس وإسـرائيليات اليهـود ولاهوت النصارى، واختلط ذلك بالقرآن تنتج علـم الكـلام والفقه والأصول وتخرجت أجيال تختلف عن الجيل الأول.

ثانيا: في منهج التلقي لم يقرأ الجيل الأول القرآن بقصـد الثقافة والاطلاع أو التذوق والاستمتاع بل لتلقي أوامـر الله وللعمل بها فور سماعها كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر

اليومي. لذلك لم يطلب أحد لاستكثار من الآيات بل طلب أول قدر منها للعمل بها أولاً.

كان لدى هذا الجيل شعور التلقي للتنفيذ، وكان هذا الشعور العملي هو الذي يفتح لهم فيما بعد آفاق المعرفة والبحث والاطلاع لم يكن المهم نقل التكاليف بل كان المهم اختلاط القرآن بذواتهم وتحويله إلى منهج لحياتهم وإلى طاقة وحركة. ليس القرآن كتاب معرفة نظرية بل منهاج حياة "وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا" (الأسراء: ١٠٦). نزل وفقًا للحاجات المتجددة والنمو المطرد في الأفكار والتصورات وفي المجتمع والحياة وفقًا للمشكلات العملية في حياة المسلمين الواقعية. فالآية وصف لواقع، وتحديد لمسار حركة، وإطلاق للطاقات ورسم لمنهج عمل. ومنهج القرآن منهج للتنفيذ والعمل. وفي الطريق يلتقي الإنسان بالجمال الفني في القرآن. وبالقصص الرائع في القرآن، وبمشاهد القيامة، وبالمنطق الوجداني بالتبعية وليس بالأصالة[٢٦١].

---

[٢٦١] المصدر السابق ص ١٨ – ١٩.

ثالثًا: بداية عهد جديد في حياة الفرد، وقلب من الجاهليـة إلى الإسلام وفصل بينهما. "كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسـلامه، تنشـأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي مـن حولـه وروابطه الاجتماعية. فهو قد انفصـل يأخـذ مـن بعـض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي. فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر. وكـان هنـاك انخلاع من البيئة الجاهلية، وعرفها وتصـورها، وعادتهـا وروابطها، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيـدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود، وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديـد بقيادته الجديدة، ومنهج هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائـه وكل طاعته وكل تبعيته"[٢٦٢].

والجاهلية الأولى فان المطلب الحالي هو القضاء على هذه الجاهلية الثانية. ثم لابد لنا من التخلص من ضغط المجتمـع الجاهلي والتصورات الجاهلية والتقاليـد الجاهليـة والقيـادة

---

[٢٦٢] المصدر السابق ص ١٩ – ٢٠.

الجاهلية في خاصة نفوسنا.. ليست مهمتنا أن نصـطلح مـع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا أن ندين له بالولاء له. فهـو بهذه الصفة، صفة الجاهلية، غير قابل لأن نصطلح معه، إن مهمتنا أن نغير أنفسنا أولاً لنغير هذا المجتمـع أخيـرا، إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع. مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه. هذا الواقـع الـذي يصـطدم اصطداما أساسيا بالمنهج الإسلامي وبالتصـور الإسـلامي والذي يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش، إن أولى الخطوات فـي طريقنـا هـي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراتنا قليلاً أو كثير لنلتقي معه في منتصف الطريق. كلا إننا وإيـاه علـى مفترق الطريق. وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله، ونفقد الطريق وسنلقي في هذا عنتا ومشقة، وسـتفرض علينا تضحيات باهظة، ولكننا لسنا خبرين. إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله بـه نتجـه الإلهـي ونصره على منهج الجاهلية(٢٦٣).

---

(٢٦٣) المصدر السابق ص ٢٢.

ومن هذه المرحلة الرابعة والأخيرة في حياة الإمام الشهيد نستخلص النتائج الآتية:

١. تأثرت الحركات الإسلامية المعاصرة – مع الأسف – بهذه المرحلة الرابعة والأخيرة في حياة سيد قطب والتي لا تمثل إلا جانبا ضئيلاً في فكره نظرا لأنها تعبر عن نفس المواقف النفسية التي مر بها الاثنان من اضطهاد وسجن وتعذيب وبراءة وظلم. توحدت في هذه المرحلة وأسقطت من حسابها المراحل الأدبية والاجتماعية والفلسفية فأعضاؤها ليسوا أدباء وليسوا ثوارا وليسوا فلاسفة. ليس منهم من يمثل حركة الأدباء الشبان كما كان سيد قطب في بداية حياته مع جيله من الأدباء. وليس منهم من نزل في الشوارع دفاعا عن الجياع والمحرومين والمعدات الخاوية كما كان ينادي الإمام الشهيد في المرحلة الاجتماعية وليس منهم من طور خصائص التصور الإسلامي أو أكمل مقوماته التي لم تسعفه حياته

لإكماله أو حقق مشروعه لنقد الغـرب وإعـادة كتابة التاريخ الإسلامي.

٢. إن الحركات الإسلامية المعاصرة بعدما أصابها من اضطهاد وقهر نتيجة أخطاء في التحليل السياسي نشأ فيها صراع على السلطة مع النظم القائمـة. هذه الحركات هي التي أثرت في الإمام الشـهيد بعد أن انضم إليها وهو فـي خضـم المرحلـة الاجتماعية وهي التي فرضـت عليـه تجاربهـا النفسية، تجارب الاضـطهاد والظلـم والبـراءة فخرج فكره الأخير يعبر عن فكر المضـطهدين وأعاد قراءة فكره القديم من خـلال سـيكولوجية الاضطهاد، فأسقط تجربتـه الحاضـرة تجربـة الاضطهاد على ماضيه الحافل بالنضال الأدبـي والاجتماعي والفكري واستقطب كل شـيء فيـه حتى خرج "معالم في الطريق" ليكشف عن صورة هذه الحركات في نفسه وإن لم يكن هـو الـذي أخرج هذه الصورة. بهذا المعنى لم يـؤثر سـيد قطب في الحركات الإسلامية المعاصرة بل هـي

التي أثرت فيه. ويدل على ذلك ظهور هذه الفكرة واختفائها "في ظلال القرآن" الذي يشمل الخمسينات كلها إذ تختفي الفكرة في الأجزاء الأولى قبل أن يتحول فكره إلى فكره المضطهدين ثم تعظم وتظهر الإشارة إلى المودودي في الأجزاء التالية تباعا ويظهر بصورة واضحة ابتداء من الأجزاء ٨ – ١١ (المجلد الثالث) أثناء الاعتقال الأول كما يتقبس منه فقرات طويلة في صلب تفسيره (جـ ٨، جـ ٩).

٣. ظهرت الحاكمية عند سيد قطب كإعلان تحرري للإنسان فالحاكمية حركة انطلاق وتحرير وثورة وتغير، حركة إبداعية شاملة من أجل حرية الاعتقاد وحرية الاختيار ولكن للأسف تحولت الحاكمية في الحركات الإسلامية المعاصرة إلى كبت وقهر وطغيان وتزمت وطاعة عمياء. كما أن التحرر عند سيد قطب يبدأ من الفرد وليس من الدولة في حين أن الحركات الإسلامية

المعاصرة بدأت من الدولة وتركت الأفراد في تخلفهم وتزمتهم وعمائهم.

٤. لا يفرق هذا التحرير العام بين مسلم وذمي، بل الحاكمية تحرير للإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن عقيدته وجنسه وقد تراجعت الحركات الإسلامية المعاصرة في هذا التصور الشامل ووقعت في الطائفية والحصار العقائدي وكأنها ليست مطالبة بإعلان التحرير الشامل. وقد يشارك أهل الذمة في العالم الإسلامي في التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون نظرا لمعايشتهم حضارة واحدة.

٥. الجاهلية عند سيد قطب تشير أساسا إلى النظم الغربية الاقتصادية الرأسمالية والشيوعية أو السياية مثل القومية والوطنية أو الاجتماعية مثل العلمانية أو الفلسفية مثل الوضعية والمثالية والتجريدية ولا تشير إلى مجتمعاتنا الحالية إلا بقدر تبعيتها لهذه النظم الغربية وتقليدها لها – أما الحركات الإسلامية المعاصرة فإنها جعلت

الجاهلية مجتمعاتنا الإسلامية ونظمنا القائمة وحولت المعركة من الإسلام في مواجهة الغرب إلى الإسلام في مواجهة المسلمين. وكان نقد الغرب عند سيد قطب قائما على علم بالثقافة الغربية وانفتاح عليها وتقدير لجهدها ولظروفها في حين انعزلت الحركات الإسلامية المعاصرة عن ثقافة الغرب وعادتها عن جهل بها وبظروفها. وإذا كان سيد قطب قد وصف المجتمعات الشرقية بأنها ملحدة لأن تصورها للإنسان وللكون واللحياة لا ينبثق عن التصور الإسلامي فإن الحركات الإسلامية المعاصرة جعلت هذا الوصف سلاحا فتاكًا لانظمة الغير واتهاما يبيح دماء أصحابه.

٦. إذا كان سيد قطب قد وصف علاقة المجتمع الإسلامي بالمجتمع الجاهلي على أنها علاقة تضاد وتعارض فإن المسلمين لا ينعزلون عن المجتمعات الجاهلية لا شعوريا ولكنهم يظلون فيها إلى أن تحين الفرصة لتغييرها لا يسايرونها

وفي نفـس الوقـت لا يقاطعونهـا أو ينـزوون وينعزلون عنها بل "المخالطة مع التمييز" والأخذ والعطاء مع الترفع، والصدع بالحق في مـودة، والاستعلاء بالإيمان في تواضع. ولكن الحركات الإسلامية المعاصرة خاصـة جماعـة التفكيـر والهجرة حولت هذه العزلة الشعورية إلى عزلـة جسدية اجتماعية ومنعت كل صور التعامل مـع المجتمع الجاهلي إمعانًا في الانفصال، إن العزلة الشعورية التي يصفها سيد قطب شرط الاستعلاء وهي عزلة صحيحة خلاقة تمنـع مـن الـذوبان والتسطيح والتوضع، تحولت إلى عزلة مرضـية وانعزال عن المجتمع وكراهية وعداء للآخـرين، تحول الاستعلاء إلـى غـرور، والتمـايز إلـى انفصال.

٧. ظهرت النزعة العملية واضحة عند سـيد قطـب فالإسلام حركة ونشاط، وجهد، والمنهج الإسلامي منهج حركي يهدف إلى التغيير والتطوير. ولكـن الحركات الإسلامية المعاصرة حولت هذه النزعة

العملية إلى خروج فعلي على النظام القائمة وإلـى نشاط دائب وحركة مستمرة تظهر وسط السكون والخراب. فالحركة الإسلامية حياة وتطور ونماء وحركة الجماعة الإسلامية موت وسكون وذبول.

خاتمة:

ويمكن تلخيص النتائج العامة للبحث كالآتي:

١. كان سيد قطـب مـرآة لتطـور الحيـاة الأدبيـة والاجتماعية والثقافية والسياسـية فـي مصـر. وعندما كانت الحياة في مصر طبيعيـة سـلمية صحية حدث التطور أيضا على نحو طبيعي سليم صحي. ولكن ما أن بدأت الأزمة في حياتنا، أزمة حصار الفكر والمفكرين، والقضاء علـى حريـة الفكر، وتخوين كل الاتجاهات باسـتثناء اتجـاه السلطة القائمة واضطهاد كل المعارضين نشأ فكر المضطهدين وظهر سلوك الجماعات السرية بين الحين والآخر في غياب حرية التعبير والنشـاط العلني. وقد وقع ظلم صارخ على نشاط الحركات الإسلامية المعاصرة فـي كـل أرجـاء العـالم الإسلامي وليس في مصر وحدها ضـد جماعـة الأخوان المسلمين في مصر، والجماعة الإسلامية في باكستان.. إلخ. وطالما لم يرفع هذا الظلم ولم

يرد الاعتبار لها سيظل فكر المضطهدين سـائدا وسلوكهم مهددا ونشاطهم سـاريا. ولمـا كانـت جماعة الأخـوان المسـلمين هـي التنظـيم الام للحركات الإسلامية المعاصرة فان ما وقع عليها من اضطهاد منذ ١٩٥٤ إبان الثورة المصرية هو المنبع الرئيسي لهذه الحركات. ولن ينضب هـذا النبع مالم يرفع الحظر عن النشـاط الإسـلامي العلني للحركات الإسلامية وتنظيمها الأم خاصـة وأنها تتمتع بشعبية من رصيدها النضالي الطويل منذ نشأة الجماعة في ١٩٢٧ في الإسماعيلية في مواجهة جنود الاحتلال حتى ١٩٥٤ أي أكثر من ربع قرن. ثم تحولت منذ ذلك الوقت إلى نشـاط سري أو شبه علني على مدى ربع قرن آخر. أي أنها اختلطت بتاريخ البلاد لحوالي نصف قـرن وأصبحت جزءا من تراثها الوطني. ولا يجـدي غض البصر عن نشاط الجماعة أو ترك الـدعوة والتسامح مع أعضائها والسماح بنشـاطها فـي الجامعات وذلك لأن سيف القانون مازال مسـلطًا

عليها يستعمل إذا مازاد النشاط عن حده في نظر الدولة. فهو نشاط تحت سلاح الإرهـاب ولـيس نشاطًا شرعيا قانونيا. وهو نشاط في رأى البعض كجزء من صفقة لتحقيق مصلحة مشـتركة بـين الحركات الإسـلامية والنظـام تقـوم بتطهيـر الجامعات من الحركات اليسارية في مقابل تأييـد الدولة لهذه الجامعات على أن يقتصر نشاطها في الجامعات. فإذا ما زاد النشاط عن الإنفاق وخرج عن الموضـوعات الدينيـة المحـددة لـه إلـى الموضوعات السياسية هددت الدولة. وكل طرف متربص بالآخر، يظن أنه يستعمل الآخر لحسابه الخاص. فالدولـة تسـتعملهم ضـد خصـومها السياسيين، وفي نفس الوقت تراقـب نشـاطهم و تحجمه وتوجهه لتحقيـق أغراضـها الخاصـة والجماعات الإسلامية تظن أنها تستعمل الدولـة لحسابها الخاص نظرا لأنها تقضي علـى إلحـاد وكفر الجماعات اليسارية من الجامعات والتي هي خصم الطرفين. وفي نفس الوقت تستعد وتكسـب

أنصارا، ويظهر نشاطها وتصبح قوة جذب للشباب أمام ضعف الدولة. وتستعمل الجماعات الإسلامية الدولة مرحليا حتى يقوى نفوذها فتنفض عليها لأنها البديل الوحيد في ظنها ولكنها لا تود الإسراع بذلك كما أسرع التنظيم الأم أعني الأخوان المسلمون بمحاولة الانقضاض على الثورة في ١٩٥٤ واستعجال الحكم الإسلامي. وحتى يضيع جو الضغينة التاريخي والرغبة في الأخذ بالثأر مما لحق بالتنظيم الإم من ظلم واضطهاد فإنه لا يكفي فقط السماح بالنشاط الإسلامي العلني يجب رفع الغبن القانوني عن الجماعة وذلك بإلغاء قرار الحل ومصادرة الممتلكات وإرجاع المركز العام لها وتعويض أسر الشهداء والمعتقلين والمعذبين، والاعتراف بدور الجماعة الوطني والتربوي على مدى نصف قرن، وإلا فسيظل هذا الجو النفسي "معمل تفريخ" لأعضاء جدد أكثر جذرية من الأجيال السابق.

٢. إن غياب حرية التعبر لجميع الاتجاهات الفكرية والسياسية المستقلة عن نظام الدولة وعما تسمح به ومالا تسمح به جعل نشاط الحركات الإسلامية أكثر انتشارا لأنها أكثر قوة وأصالة وتعبيرا من تراث الأمة وأقرب اتصالاً بجماهير الشعب، وإن عدم وجود أي نشاط فكري أو سياسي هو الذي يسمح بسرعة انتشار الحركات الإسلامية. لذلك فإن إعطاء الجميع حق التعبير وحرية الممارسة يجعل الحياة الثقافية والسياسية أكثر غنى وتنوعا، فلا تبقى الحركات الإسلامية الفارس الوحيد في الميدان. وإن هذا التعدد في الاتجاهات سيسمح بالحوار الوطني بينها جميعا، وبإعمال العقل، وبالاختيار عن رؤية وتدبر، ويقل الانفعال، وتخف حدة التشنج. وهو الشرط الأساسي لتحقيق الوحدة الوطنية التي تنصهر فيها الأمة من خلال وحدة فكرها أولاً وجعل البرهان والدليل هو محك التعامل ومقياس الاختيار.

٣. إن تدخل الدولة في الحوار الوطني بين الاتجاهات المختلفة ونصرة فريق على فريق أو تبني اتجـاه وتخوين كل الاتجاهات الأخرى ومطالبة الجميـع بتبرير ما اختارته وتبنيه يقضي على حرية الفكر بالقضاء على المساواة بين الاتجاهات في القـوة وجعل البرهان والدليل والحجة وحدها هي وسيلة التعامل وليس الاعتقال والإدانة والاتهام. ويكون مقياس نجاح كل اتجاه هو مدى إقناعه الجمـاهير بشرعيته ومدى إنجازاته على مستوى الواقع في المعارك الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فلـم تتحول الحركات الإسلامية إلى معارضة للنظـام إلا بعد أن انحسرت عن المعـارك الاجتماعيـة بالاعتقال وإخراجها عن الممارسة الوطنية كمـا حدث لسيد قطب وهـو فـي خضـم المعركـة الاجتماعية في أوائل الخمسينات وإخراجه منهـا بالاعتقال الأول في ١٩٥٤ وعلى هـذا النحـو يضيع فكر المضطهدين وما يتسم به من سـرية وباطنية وعزله وعدوانية ويتحـول إلـى فكـر

شرعي علني متجه نحو الخارج مفتوحـا علـى الآخرين محاورا كافة الاتجاهات المعارضة.

٤. تطويرا للفكر الديني المعاصر الذي بدأ بداية طيبة عند الأفغاني والكواكبي بمناهضـة الاسـتعمار والإقطاع والتسلط والظلـم والطغيـان وتحويـل الإسلام إلى حركة ثورية للمسلمين تحافظ علـى أصالتهم ووحدتهم. ولكن للأسف خبا هذا الفكـر إلى النصف عند محمد عبده ثم خبا النصف إلـى النصف عند رشيد رضا. ثم حاول أن ينهض من جديد على يد حسن البنا وهو تلميذ رشيد رضا ثم سيد قطب لاحقًا بالأفغاني من جديد. ولما كان من عيوب الفكر الإصلاحي هو شجاعته على الواقع وتقليديته في الفكر فإن تطوير الفكر الإصـلاحي النظري ودفعه خطوات أكثر نحو التنوير الـديني وما يمثله من استقلال للعقـل وحريـة الإرادة، والأخذ بأسباب القـوة والعلـم والتقـدم ونظـام الشورى يسمح بتطور الفكر الديني مـن داخلـه وتتم حمايته من التعصـب والتشـنج والتصـلب

والعدوانية والعزالة. وما أسهل أن يتم ذلك. فمن الملاحظ مثلاً في فكر الإمام الشهيد أنـه يغلـب عليه التكرار، تكرار الحدس الواحد وترديد نفس الأفكار. كما يلجأ إلى الخطابة دون أحكام نظري لبناء الأفكار وهو ما يحدث أيضا لدى الحركـات الإسلامية المعاصرة. كما يغلب علـى الحاكميـة التصور الغيبي لها. فالحاكمية والخلافة والألوهية عقيدة "من خارج النطاق الأرضي ومن خـارج المحيط البشري"(٢٦٤)..

٥. حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر ربـاني مـن وراء الواقع البشري ومن وراء الوجود المـادي مما يوقع في الثيوقراطيـة والتسـلطية لإغفـال مصالح الناس ووضعية الشـريعة. ومـا أسـهل العودة إلى الواقع كطرف مقابل للألوهية والمنهج الإسلامي ذاته منهج واقعي. وما أسهل أن يكون طريق معرفة الحاكمية ليس فقط هو الرسول بل

---

(٢٦٤) المصدر السابق ص ١٢٨ – ١٢٩ ص ١٣٢.

أيضا العقل والمصلحة. ومادامـت لـيس هنـاك قوانين في كل شيء فلابد من الاستنباط والاجتهاد وبالتالي لابد من معرفة كيفية عمل العقل البشري في الواقع البشري.

إنه يصعب نقد مصلحة البشر ودافعهم كمصـدر مسـتقل للتشريع لأن مصلحة البشر متضمنة في شـرع الله. ولكـن المهم معرفتها بمناهج واقعية وإحصائية سماها الأصـوليون القدماء تحقيق المناط وتخريج المناط وتنقيح المناط أو السبر والتقسيم.. إلى آخر ماقالوه في مناهج استنباط العلـل عامـة والعلة المؤثرة أو المناسبة أو الملائمة خاصة. صحيح أن الله يعلم وأن البشر لا تعلم ولكن العلم الإلهي ذاته لا يعـرف إلا من خلال العلم الإنساني. فما التفكيـر الربـاني إن هـو إلا عرض له من وجهة نظر الإنسان أن الحاكمية ذاتها إن هـي إلا مجرد مبدأ أو صورة في حاجة إلى مضمون واقعي فـي زمان ومكان معينين والمجتمع محدد في التـاريخ. فـالمهم معرفة مدلولها بالنسبة للنظـام الإقطـاعي والرأسـمالي أو التسلط في واقع المسلمين الحاليين في مصـر والحجـاز أو إيران. لا يكفي أن تكون الحاكمية مجرد شعار يكون الجانب

السلبي فيه أكثر من الجانب الإيجابي أو يكون الرفض فيـه أكثر من القبول بل تكون مضمونًا وبرنامجا للعمل الـوطني تبدأ بتطوير الواقع وبالتعامل مع ما هو موجـود أي إعـادة تفسير الألوهية والربانية بالواقعية والإيجابيـة وكلهـا مـن خصائص التصور الإسلامي. فإذا حدث تطوير سيد قطـب وروافد الفكر الديني المعاصر مثل حسن البنا والمودودي من الداخل أمكن الإقلال من هذا الجانب الغيبي الإلهـي الـذي يعتمد على الصفوة وتغليب الجانب الواقعي الإنساني الـذي يعتمد على الجماهير وقدراتهم. وبالتالي يمكن أيضا معرفـة مضمون النظم الجاهلية والفرق بينها وبين النظام الإسـلامي وهل هما مجتمعتان متعارضان أم هناك درجـات بينهمـا، ويكون حينئذ المطلوب هو زيادة النظام الإسلامي والإقـلال من النظام الجاهلي فيحدث التقدم في المجتمعات الإسـلامية دون هدمها أولاً من أجل إعادة بنائها ثانيا: لا يمكن أن إيقاف نشاط الحركات الإسلامية المعاصرة التي تستعمل العنف إلا بتطوير فكرها من منابعه الأولى.

٦. إظهار اليسار الإسلامي و تقوية الإسلام الثـوري حتى يظهر البديل الإسلامي لتفسـير الجماعـات

الإسلامية وحتى يجد الشـباب بـلاء الحسـنيين الإسلام والتقدم، الإيمان والتنمية، الشعائر والتغير الاجتماعي، العقائد والعدالة الاجتماعيـة، الـدين والثورة، ولكن للأسف هذا التيار، وهو الوحيـد القـادر علـى احتـواء الجماعـات اليسـارية والجماعات الدينية، في وقت واحد، هو في نظر الدولة ماركسية مقنعة متخفية تحت ستار الـدين، وفي نظر الجماعات الإسلامية ذاتهـا ماركسـية صريحة وفي نظر الجماعات الماركسية مشروع مستحيل أو على أكثر تقدير نقص في الشـجاعة والممارسة الفعلية هي التي ستحيله إلى ماركسية فعلية.

٧. الحركات الإسلامية المعاصرة هـي فـي النهايـة مسؤوليتنا نحن كباحثين ومثقفين ومواطنين. فهي حتمية ما حدث في جيلنا من مآسي وأحزان. وقد تكون أيضا مسئولية الدولة أقل من مسئوليتنا نحن باتباعها أساليب العنف والقمع ضد حركات هـي السئولة عن نشأتها. والعنف لا يولد إلا العنـف،

دائرة مغلقة لا نهائية لا يمكن ايقافها وكسرها إلا من خلال مسئولية الباحث وقيام دولة تقوم علـى البحث والعلم. والدولة أكثر قدرة علـى التحليـل والفهم من الجماعـات الإسـلامية. والاحتـواء الطبيعي أكثر قدرة على التعامل مع الخصوم من الاصطدام والمناطحة.

المراجع

مؤلفات سيد قطب (مرتبة ترتيبا زمانيـا طبقًـا للطبعـة الأولى).

١- الشاطئ والمجهول ـ (بلا تاريخ أو ناشر).
٢- مهمة الشاعر في الحياة ـ (دار الشروق)
٣- المدينة المسحورة ـ (دار الشروق)
٤- طفل من القرية ـ (لجنة النشر للجامعيين).
٥- أشواك ـ (دار سعد مصر)
٦- التصوير الفني في القرآن ـ (دار الشروق)
٧- مشاهد القيامة في القرآن ـ (دار الشروق)
٨- النقد الأدبي، أصوله ومنهاجه ـ (دار الشروق)
٩- العدالة الاجتماعية في الإسلام ـ (دار الشروق)
١٠- معركة الإسلام والرأسمالية ـ (دار الشروق)
١١- السلام العالمي والإسلام ـ (دار الشروق)
١٢- في التاريخ، فكرة ومنهاج ـ (دار الشروق)
١٣- دراسات الإسلامية ـ (دار الشروق)
١٤- هذا الدين ـ (دار الشروق)
١٥- المستقبل لهذا الدين ـ (دار الشروق)

١٦- نحو مجتمع إسلامي ـ (دار الشروق)
١٧- خصائص التصور الإسلامي ـ (دار الشروق) ومقوماته
١٨- في ظلال القرآن (ستة أجزاء) ـ (دار الشروق)
١٩- تفسير آيات الربا ـ (دار الشروق)
٢٠- تفسير سورة الشورى ـ (دار الشروق)
٢١- الإسلام ومشكلات الحضارة ـ (دار الشروق)
٢٢- معالم في الطريق (دار الشروق)

وللأسف لم نستطع الاطلاع على المؤلفات الآتية إما لأنها نفذت أو لأنها غير موجودة داخل مصر أو لأنها لم تصدر.

١- نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر (نفد)
٢- الأطياف الأربعة (بالاشتراك مع أخوته الثلاثة) (نفد)
٣- إخراج الروح (نفد)
٤- فقه الدعوة (نفد)
٥- كتب وشخصيات[٢٦٥] (نفد)

---

[٢٦٥] طبع فيما بعد "كتب وشخصيات" أيضا في دار الشـروق ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ وهو يمثل المرحلة الأدبية.

٦- معركتنا مع اليهود[٢٦٦] (خارج مصر)

٧- إسلام أو لا إسلام (خارج مصر)

٨- حلم الفجر (ديوان شعر) (لم يصدر)

٩- لحظات مع الخالدين (لم يصدر)

١٠- وطن ينهار (لم يصدر)

١١- أمريكا التي رأيت (لم يصدر)

وقد أعلن عن قرب صدورها في الطبعة الثانيـة للعدالـة الاجتماعية في الإسلام.

---

[٢٦٦] وجدت نسخة في المغرب مطبوعة في دار الشـروق ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

النهضة الإسلامية المعاصرة

(خطة بحث)

أولاً: الجذور التاريخية للنهضة الإسلامية.

١. تمتد النهضة الإسلامية الحديثة تاريخيا إلى الإصلاح الديني في القرن الماضي بل ويمتد عند البعض إلى القرن الثامن الهجري إلى ابن تيمية وتلميذه ابن القيم حتى محمد بن عبد الوهاب في القرن الحادي عشر. وتصل إلى مدرسة الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب والكواكبي وعبد القادر الجزائري وعبد الحميد بني باديس والبشير الإبراهيمي. وقد تحول البعض منها إلى حركات اجتماعية وسياسية مثل المهدية والسنوسية ورابطة علماء المسلمين بالجزائر. نجح البعض في تأسيس دولة إسلامية مستقلة مثل محمد بن عبد الوهاب بينما لم يقدر البعض الآخر ذلك بالرغم من أثره البالغ على الحركات الوطنية التي انتسبت إليها مثل المهدية.

وانقطع فريق ثالث عن التواصل وظل رائدا في مرحلة الرواد مثل الكواكبي.

٢. ومنذ هزيمة العرب في يونيو ١٩٦٧ بدأت مظاهر العودة إلى الإسلام تأخذ شكلاً فعليا في حياة الناس وممارستهم اليومية. كانت الدعوة قائمة باستمرار على مختلف العصور وفي أعماق الشعور الإسلامي ولكنها لم تظهر إلى السطح إلا بعد الهزيمة كمؤشر فعلي على صحة هذه الدعوة وعلى توقيتها. وقد ظهر ذلك على جميع المستويات: القيادة السياسية والمؤسسات الدينية، والثقافية الشعبية. في صورتين:

(أ) إن البعد عن الله هو السبب الأول في الهزيمة.

(ب) إن العودة إلى الإيمان هو الطريق إلى النصر.

٣. وقد استرعت هذه الحركة انتباه المسلمين وغير المسلمين منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران ١٣٩٩/ ١٩٧٩، وتحدث العالم الغربي عن

صحوة الإسلام، يقظة الإسلام، الإحياء الإسلامي، الأصولية الإسلامية. وصاحب ذلك في شتى أرجاء العالم الإسلامي وخاصة في مصر ظهور الجماعات الإسلامية كظاهرة في حرم الجامعات. واندلعت الحرب العراقية الإيرانية، وظهرت الاضطرابات في الحرم المكي.... الخ كل ذلك ليحول الحركة الإسلامية من مجرد إصلاح ديني إلى تغيير شامل في نظام الحكم وثورة على الوضاع القائمة.

ثانيا: المظاهر المختلفة للنهضة الإسلامية.

وتبدو النهضة الإسلامية حاليا وعند البعض في عده مؤشرات مرئية حسية قد تكون كذلك بالفعل وقد لا تكون مثل:

١. الجماعات الإسلامية ونشاطها في كل أنحاء الإسلامي وعلى اختلاف مسمياتها، الجماعة الإسلامية، الحركة الإسلامية، النهضة الإسلامية، الدعوة الإسلامية، الإصلاح الإسلامي... الخ.

ونظرا لقدرتها على التنظيم وفي مواجهة تنظيمات سياسية بيروقراطية حكومية فإنها تبدو نشطة وحاضرة في الشـارع وبين الجماهير وكأنها تعمل بين أهليها وفي وطنها.

٢. الشعائرية مثل الزي وخاصة الحجـاب والنقـاب، وفصل الطلبة عن الطالبات، وعدم السلام بالأيدي بين الرجال والنساء.... الخ.

٣. كثرة بناء المساجد، والأذان بمكبـرات الصـوت، وإقامة الصلوات داخل الكليات، وتخصيص أماكن للصلاة للطلبة والطالبـات، وايقـاف الأعمـال الجارية أثناء أداء الفرائض، وتحول المساجد إلى دور للمناسبات وعيادات طبية، ومدارس لتعلـيم، وفصول للتقوية.

٤. نشر كتب التراث، ورواج الكتب الدينيـة، وكثـرة المعارض الإسلامية، ومسابقات حفـظ القـرآن، وتبادل المصاحف كهدايا، وتعليق الآيات القرآنية وكتاباته على قطـع البلاسـتيك وتعليقهـا فـي العربات.

٥. انتشار المجلات الدينية، وتأسيس الجرائد الدينية الملحقة بالجرائد الأسبوعية، وتخصيص صفحات للفكر الديني.

٦. كثرة البرامج الدينية في أجهزة الإعلام مثل:العلم والإيمان. المصحف المفسر، هدى النور، والإعلان عن الصلوات أثناء البرامج الترفيهية، والتواشيح الدينية والبداية بالقرآن والختام به.

٧. المناداة بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتكوين اللجان في مجلس الشعب لهذا الغرض، والمعركة حول قانون الأحوال الشخصية، والصراع بين الدينية والعلمانية... الخ.

٨. ظهور الطائفية واشتدادها إلى درجة الحرب الأهلية في لبنان، والتوتر الطائفي في صعيد مصر، وازدواجية الولاء الديني والوطني في كثير من أنحاء الوطن العربي في سوريا والعراق والخليج العربي.

٩. الغزل بين القومية والإسلام، ومحاولة أنصار التيار القومي أخذ الإسلام في الاعتبار كثقافة وحضارة

وهوية قومية. فالسلام عروبي أنزل للعرب وبلغة العرب ولتوحيد العرب.

١٠. كثـرة المـؤتمرات والأبحـاث حـول الهويـة والتغريـب، الأصـالة والمعاصـرة، والتـراث والتجديد حيث يبرز الدين كعنصر رئيسـي فـي الأشكال.

١١. ظهور التزمت الديني الفكري في إعادة تحـريم "الفتوحات الملكية" لابن عربي وإعادة تكفير طـه حسين "في الشعر الجاهلي". ومصادرة كل كتاب به فكر ديني مستنير، وتحريم كل مجلة بها نقـد للأوضاع القائمة.

١٢. ظهور البنوك الإسلامية والانفتـاح الاقتصـادي على الغرب. وشركات توظيف الأموال، فالتزمت الفكري يقابله انفتاح اقتصادي وكان الأول غطاء الثاني وتشريع له.

ثالثًا: العوامل التـي سـاعدت علـى ظهـور النهضة الإسلامية.

وقد ساعدت على تكوين النهضة الإسلامية عدة عوامـل أهمها:

١. فشل الاتجاهات العلمانية في التحديث ممـا جعـل الجماهير تعود إلى ذاتها بعد أن سـئمت وضـع نفسها كتجارب لمذاهب الآخرين وأشهرها ثلاثة:

(أ) الليبرالية العلمانية الغربية والتي ارتبطت في إحدى لحظاتها بالحركة الوطنية فقـد انتهـت إلـى التغريب والقضاء على الهوية والولاء للآخر.

(ب) الاشتراكية العربية أو القومية العربية والتي سادت إبان الثورات العربية الأخيرة. وبالرغم مـن إنجازاتها الضخمة مـن أجـل التحريـر الـوطني والاستقلال الاقتصادي إلا أنها جاءت كبـديل عـن الحركة الإسلامية، وقامت باستبعاد هـذا المنـافس الشرعي الخطير عن الحياة السياسية، وظلت علـى الهامش أو في السجون في مصر وسوريا والعراق.

(ج) الماركسية في أفغانستان واليمن الديموقراطية أو في تحالف مع حزب البعث في سوريا والعـراق وحصارها من جماهير الشعب ومن ثقافته الوطنية.

٢. التحدي للآخر وهو الغرب ضد محاولاته لتشـويه الحضارة الإسـلامية بعـد أن اسـتعمر العـالم الإسلامي ثم انحسر عنه. ويبعـث علـى هـذا التحدي صورة الإسلام في الاستشراق وفي علوم الأنثروبولوجيا الثقافية.

٣. قدرات الشعوب على أخذ مصائرها بأيديها بـدليل ثوراتها الأخيرة ونجاحهـا فـي التحـرر مـن الاستعمار ثم اندلاع الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، ويقظة الجمهوريات الإسلامية في أواسط آسيا، وانتشار الحركات والأحـزاب الإسـلامية النشطة في ربوع العالم الإسلامي.

٤. المحافظة التلقيدية كنتاج تاريخي مستمر منذ القرن الخامس حتى الآن وعلى مدى الف عـام حيـث أزدوجت الأشعرية بالتصوف، أيديولوجية السلطة وأيديولوجية الطاعة، مما يجعل الـدين الوعـاء الطبيعي للحركات الفكرية والسياسية.

رابعا: خصوصيات الحركات الإسلامية.

بالرغم من وجود تيار عام يجمع بين كل حركات النهضة الإسلامية المعاصرة إلا أن كل قطر إسلامي له خصوصيته التي تجعله متميزا عن القطر الآخر. ويمكن التميز بين أربعة مناطق رئيسية:

مصر، والسودان، والصومال، وتتميز هذه المنطقة بالآتي:

(أ) تراث ليبرالي طويل واتصال بالغرب على مدى عدة أجيال.

(ب) ظهور حركات إسلامية قوية ونشطة مثل الأخوان المسلمون.

(ج) الناصرية فيها قوية خاصة في مصر، حصيلة الثورة الحديث.

(د) رفض العنف، والاتجاه نحو التغير السلمي، وفشل محاولات التغيير بالعنف.

(هـ) نشاط الحركة الشيوعية خاصة في السودان، والتحاكم الشيوعيين بالحركات الوطنية.

(و) انتشار الطرق بين عامة الناس كعنصر استقطاب رئيسي.

١. الشام (سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين) والعراق. وتتميز هذه المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية بالآتي:

(أ) ظهور القومية العربية كمنافس للإسلام مما يسبب أحيانًا لدى السكان ولاء مزدوجا أو محاولة للاختيار أو التوفيق.

(ب) اشتداد العلمانية نظرا لارتباط المنطقة بالغرب الحديث منذ مدة طويلة.

(ج) وجود كثير من المسيحيين خاصة في لبنان مما يجعل الولاء للعروبة بديلاً مطروحا باستمرار عن الهوية الإسلامية.

(د) خطورة الطائفية خاصة في لبنان وسوريا والعراق مما يؤدي أحيانًا إلى الحرب الأهلية.

٢. المغرب العربي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) ويمتاز بالآتي:

(أ) اتحاد الإسلام بالوطنية كما هو الحال في تونس والجزائر والمغرب، وغياب القومية كعنصر متوسط بين الإسلام والوطنية.

(ب) تحول الإسلام إلى أسلوب حياة، ونمط حضارة، ثقافة وفن، كما هـو واضـح فـي العمـار العربيـة والموسيقى الأندلسية.

(ج) الارتباط بالمشرق عند جماهير الشعب بـالرغم من ارتباط بعض المثقفين بالغرب مما يسبب خلافًا بين الجماهير والقادة.

(د) ظهور بعض النعرات العرقية بين البربر خاصة في الجزائر والمغرب.

(هـ) وجود الدولة القوية على مدى التاريخ خاصة في المغرب.

(و) ارتباط الإسلام بالطبيعة والحياة خاصـة فـي المغرب أكثر من ارتباطه بالحلال والحرام كمـا هـو الحال في المشرق.

(ز) عشق الثقافة الشرقية واللهجات الشرقية خاصة المصرية، والتتلمذ على أيدي أساتذة المشرق. فلا توجد حركة مشرقية إلا ولها ارتداداتها في المغرب.

٣. شبه الجزيرة العربية. وتمتاز بالآتي:

(أ) القبلية العشائرية، وعدم وجود علاقات اجتماعية إلا من خلال القبيلة.

(ب) اجتماع الثروة النفطية مع المحافظـة الدينيـة جعل الإسلام يستعمل كأكبر مشرع وحارس للاسـتيلاء على الثروة.

(ج) مخاطر الثورة العربية أولاً ثم الثورة الإسلامية ثانيا جعل النظم السياسية تمثل أداة قهـر دفاعـا عـن نفسها.

(د) مخاطر الوهابية الجديدة في الداخل التي تـرى البون الشاسع بين آراء محمد عبد الوهاب وما يجـري حاليا في الحجاز.

(هـ) وجود بعض أنظمة أكثر ليبرالية وانفتاحا علـى أطراف شبه الجزيرة في الشمال (الكويـت) والشـرق (الكويت) والشرق (البحرين وعمان) والجنوب (اليمن) مما يجعل الوسط التقليدي محاطا بأطراف أكثر التصاقًا بالحداثة.

(و) وجود الحرم الشريف في مكة وموطن ميلاد الرسول وذكريات الصحابة يجعل الحجاز قبلة للمسلمين جميعا، ويعطيها نوعا من الزعامة الدينية.

(ز) وجودها وسط الصحراء جعلها أقل تعرضا للحداثة وأكثر ارتباطا بالتقليد.

(ح) نظرا للثروة النفطية والحكم القبلي، تركزت الثروات في أيدي العائلة الحاكمة والتي يضرب بها المثل في الغنى والترف والأسراف في نفس الوقت الذي يموت فيه الآلاف من المسلمين جوعا وقحطًا في تشاد وغيرها من المناطق الصحراوية.

هذه الخصوصيات تؤخذ في الاعتبار عند وصف الحركات الإسلامية المعاصرة كتيار عام حتى يظهر الجدل بين الخاص والعام.

هذا مجرد تخطيط عام في حاجة إلى توثيق، وإطار شامل يحتاج إلى ملأ الفراغات بالبحث العلمي الرصين والمسح الاجتماعي الدقيق.

الحركات الدينية المتطرفة

(ورقة موقف)

١. هل فكر الجماعات الدينية "المتطرفة" هـو الفكـر الإسلامي الصحيح؟

يصعب الاجابة على هذا السـؤال لسـببين: الأول لأنـه يصعب التعرف على فكر الجماعات الدينية تعرفًا عليما دقيقًا نظرا لأنها مازالت في أيدي أجهزة الأمن، تعتبرها خطـار على الأمن العام، في أحراز القضايا، وفي ملفات السـجون. والقدر الضئيل المعروف عنه لم يطبع طبعات علمية محققـة حتى يمكن التحقق مـن مصـادره ثـم يقـرأ مـن كافـه المتخصصين للصحول على وجهـه نظـر متكاملـة فيـه، والانطباعات العامة ادى بعض الباحثين عنه لا تكفي لتكوين رأي علمي دقيق. والثاني لأنه لا يوجد شيء يسـمى الفكـر الإسلامي "الصحيح" لأن الفكر الإسـلامي نتـاج التـاريخ، وحصيلة عدد من القوى السياسية والاجتماعية المتصـارعة كما هو واضح في الفرق الإسلامية، وكلها شرعية، تنتسـب إلى الإسلام، وتعتمد على الكتاب والسنة كمصدر أساسي لها،

وتعلم قواعد التفسير، وتخلص النية. والنصوص هو الاتساع والتنوع إلى حد أنها تسمح بكل هـذه الاتجاهـات والعقائـد والنظريات أو كما يقول الشاعر "وكلهـم إلـى رسـول الله منتسب" وعادة ما يكون الفكر "الصحيح" هو فكر السلطة في مقابل الفكر "الضال" وهو فكر المعارضة. أو ينقلب الحـال فيكون فكر المعارضة هو الفكر "الصحيح" وفكر السلطة هو الفكر "الضال" وذلك لتقويض السلطة والإحلال محلها فهـو إذن سلاح ذو حدين. وغالبا ما يصبح الفكر "النضال" بعد أن يصل إلى السلطة هو الفكـر "الصـحيح" ويصـبح الفكـر "الصحيح" للسلطة بعد أن ينهار النظام هو الفكـر الضـال. فكلمة الصحيح إذن تقوية إذن تقوية للذات واتهام الغير، دفاع عن النفس ودرأ لأخطار الغير، ويكون المحك فـي النهايـة ليس إلى "الصحة النظرية" أو "الخطأ النظري" بل لمن بيـده الأمر ولمن تكون السلطة، ولمن يكون الحكم. وتاريخ البلاد النامية وانقلاباتها المتكررة شاهدة على ذلك.

ويؤيد ذلك ما يعرف في العلوم الإنسانية باسـم "نظريـة التفسير" سواء تفسير النصوص أو تفسير الظـواهر، وهـي جزء من نظرية الفهم أو المعرفة بوجه عام. فلا يوجد معنى

موضوعي للنص مستقل عن القـارئ، أو الفـاهم، يدركـه الجميع في حياد تام وبموضوعية كاملة. فهذا ادعاء وغرور إنساني، وعود إلى اعتبار فهمي الخاص فهو "الموضـوعي" وفهم الآخرين هو "الذاتي" وبالتالي يكون فهمي هو "الصحيح" وفهمه هو "الباطل". فما دام النص مكتوب في لغـة طابعهـا الاشتباه على فرض صحة النقل والرواية وطالما أن الإنسان محدود بظروفه النفسية والاجتماعية والتاريخية فإن تأويـل النص يكون ضروريا للفهم. والتأويل ذاته إنما يعكس ظروف الإنسان ووضعه الاجتماعي عن طريق إسقاطها على النص فيظن الإنسان أنه فهم النص "الموضوعي" في حين أنه قـرأ نفسه، وعبر عن احتياجاتها وفهم الفهم "الصـحيح" وعنـدما يتطابق الموقفان الحيان، الموقف الأول للنص معناه ولـيس النص هو الذي يعطـي معنـاه للإنسـان. ويحـدث الفهـم "الصحيح" عندما يتطابق الموقفان الحيـان، الموقـف الأول الذي خرج منه النص، والموقف الثاني الـذي يوجـد فيـه الإنسان. هذا التطابق بين الماضي والحاضر هو الذي يجعل الفهم ممكنًا. وبالتالي كان فهم الـنص هـو مجـرد قـراءة الحاضر في الماضي أو التعرف على الماضي في الحاضر.

فالحاضر هو الذي يعطي الماضـي معنـاه. وإنمـا يرجـع الخلاف في التفسير أساسا إلى خلاف في المواقف الحاضرة النفسية والاجتماعية والسياسية والتاريخية.

ولما كان سلاح العقائد في المجتمعات التقليدية من أمضى الأسلحة ومن أقوى العوامل في الحـراك الاجتمـاعي فإنـه سرعان ما يتم اسـتخدامه مـن كافـة القـوى الاجتماعيـة والسياسية. كل منها يسقط أهدافه على النص ويقرأها فيـه. فالخلاف في التفسير هو في حقيقة الأمر صراع بين القـوى الاجتماعية والسياسية ولا يوجد واحد منها "صحيح" والبـاقي "باطل" إلا لهذا الذي يحسم الصراع لحسابه ويستولي علـى السلطة فيعم تفسيره، ويفرز اتجاهه، ويسود المذهب الرسمي للدولة في مقابل الاتجاهات الأخرى التي تصبح مـن قـوى المعارضة المناهضة للسلطة ويشهد على ذلك التاريخ القـديم والحديث للفرق الدينية فقد سادت "الأشعرية" كمذهب رسمي للدولة "السنية" في مقابل فرق الخـوارج والشـيعة أساسـا والمعتزلة بدرجة أقل، بعد أن حسم الصـراع بـين الدولـة الأموية من ناحية والشيعة والخوارج، ثم حسم الصراع مـن

جديد بين الدولة الأموية وأوائل المعتزلة لصالح الأمويين وانتهت المعارضة من الداخل.

ويتكرر التاريخ بالنسبة للصراع بين الدولة العلمانية القائمة التي تقوم على الشرعية وبين قوى المعارضة الإسلامية الممثلة في الأخوان المسلمين أولاً ثم في الجماعات الإسلامية ثانيا، حزب التحرير الإسلامي والتكفير والهجرة، جماعة الجهاد... الخ.

ومن التاريخ القديم يمكن إعطاء الأمثلة الآتية:

١. بعد انتصار الدولة الأموية ابتداء من يزيد واستقرارها بدأت تفرز عقائدها ضد معارضيها من الشيعة والخوارج أولاً ثم من المعتزلة ثانيا. تصور علماؤها التوحيد على أنه أساس الإيمان بالله، قادر قدرة مطلقة، وأنه يخلق الأشياء من عدم بالقدرة، وأنه يسيطر على الطبيعة بالإرادة، وأنه موجود في كل مكان، يرى ويسمع كل

شيء، لا يقف أمامه قانون، ولا يستطيع أحـد أن يعارضه، كل شيء بمشيته وإذنة[٢٦٧].

وكان الهدف من هذا التصور هو إعادة البنـاء النفسـي لجماعات المعارضة القائدة لجماهير المسلمين على الخـوف من هذه القدرة المطلقة والإرادة النافذة والتي تتوحد السـلطة السياسية بها، وتنفذ إلى قلوب الجماهير من خلالها، فتحثهـا على الطاعة والتسليم والرضا بالمشيئة والتي يصعب بعـدها التمييز بين مشيئة الله ومشيئة السلطان. في حين أفرزت قوى المعارضة الداخلية من المعتزلة تصورا آخـر يقـوى فـي النفوس المعارضة والاستمرار في المطالبة بالشـرعية فـي نظام الدولة، وهو التصور الذي يجعل من التوحيد الإيمـان بالله كمبدأ عام شامل، يتصف بصفات عامة وشـاملة مثـل "العدل" حتى يمكن به القضاء على تسلط الأمويين وتكبـرهم

---

[٢٦٧] هناك لوحة فنية على مدخل مبنى مباحث أمن الدولة بهـا عـين مفتوحة مثل عيون قدماء المصريين ومكتوب عليها من أسفل "عين الله الساهرة".

واعتلائهم رقاب الناس، وأمام هذا المبدأ يتساوى الجميع ويعقله كل الناس.

٢. كما أفرزت الدولة القائمة على اللاشرعية عقيدة القضاء والقدر، وأن الإنسان ليس له الخيرة من أمره، وأنه كالريشة في مهب الريح، وأنه كالجثة الهامدة يقلبه الله كيف يشاء، وأنه لا يستطيع من أمره شيئًا، لا في حياته ولا في مماته. ثم خفت العقيدة بأخرى أكثر ذكاء لاحتواء المعارضة وهي عقيدة الكسب الأشعري التي تعطي للإنسان قدرة على الفعل ولكنها مشروطة بتدخل الإرادة الإلهية حتى يمكن للفعل أن يتم في لحظة إتيان الفعل. ولكن ليس للإنسان قدرة قبل الفعل أو بعد الفعل على أن يتمه بنفسه. ومن ثم فهو غير مسئول عن شيء، وما لم تتدخل الإرادة الإلهية في فعله، ويتعلق هو بها كتعلق الراكب بالمركبة فإنه لن يقدر على فعل شيء. وفي مواجهة هذه العقيدة اكدت قوى المعارضة الداخلية (المعتزلة) والخارجية (الخوارج) على حرية الإنسان،

وقدرته على الفعل قبل الفعل وأثناء الفعل وبعـد الفعل، كما أثبتت مسئوليته عن أفعالـه الداخليـة منها (مثل الهداية والتوفيـق) أو الخارجيـة أي أفعال الشعور وأفعال الجوارح.

٣. وأكدت الدولة القائمة دور الوحي والنبوة، وطعنت في قدرة الفعل على الاستقلال بالرأي، وأنه فـي حاجة إلى و حي عليه من النبي، فالنقـل أسـاس العقل. ولما كانت سلطة التأويل للنقل ترجع إلـى الدولة نتج عن ذلك تبعية العقـل للنظـام القـائم وبالتالي تمحى حرية التفكير. في حين أكدت قوى المعارضة العقيدة المضادة من أن العقل أسـاس النقل، وأن العقل قادر على الاسـتقلال بـالرأي، والتمييز بين الحسن والقبيح، وإدراك الغائية فـي الكون، وأن الحسن والقبـيح موضـوعيان فـي الأفعال والأشياء، وليسا مرتبطان بإرادة خارجية، إرادة الله أو إرادة السلطان، وبالتالي يمكن دفـع الوصايا عن الإنسان والدفاع عن استقلال عقلـه وحريته وإرداته.

٤. كما أفرزت الدولة عقيدة أن هذا العالم لا يحكمه قانون ثابت، وأن قوانين الطبيعة لا تقوى على شيء أمام إرادة الله المطلقة بدليل المعجزات، وأن الشمس قد تشرق من المغرب وتغرب من المشرق بإذن الله، وان الحجر قد لا يسقط ويظل معلقًا في الفضاء بإذن الله، وأن السهم قد لا يصيب الرمية ويظل معلقًا في الهواء بإذن الله. وكما لا يوجد قانون ثابت في الدنيا كذلك لا يوجد قانون ثابت في الآخرة. فقد يعاقب الله المحسن، ويثيب المذنب، وقد يدخل المؤمن في النار، والكافر في الجنة. في حين أكدت قوى المعارضة قوانين الطبيعة الثابتة، وأنه لا تحدث معجزات إلا طبقًا لقوانين طبيعية أخرى ثابت لا نعلمها حتى الآن، وأن هذا العالم يسير طبقًا لقانون، وأن العالم الآخر أيضا يسير طبقًا لقانون، فيثاب المحسن، ويعاقب المذنب، ويدخل المؤمن الجنة والكافر النار وأننا نعيش في عالم يحكمه قانون. وبالتالي يرتبط الحاكم بالمحكوم برباط القانون

وليس برباط مشيئة الحاكم المطلقة، وحقه المطلق على المحكوم.

٥. ثم نشرت الدولة عقيدة "الإرجاء" على لسان أهـل السنة المرجئة وجعلت المسلم بشـهاديته بلسـانه حتى ولو أضمر الكفر، ويرجـئ الحكـم علـى أعماله حتى يوم القيامة فالعمل ليس جـزءا مـن الإيمان بل خارج عنه. كل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أصـبح جـزءا مـن الأمـة الإسلامية. وبالتالي يمكن التغاضي عـن عمـل الحكام حتى تسقط حجة الشرعية، وأنه لا فـرق بين يزيد بن معاوية والحسين بـن علـي، فـالله يتولاهما يوم القيامة. في حين جعلت المعارضـة خاصة الخارجية العمل جـزءا لا يتجـزأ عـن الإيمان، وأن من لا عمل له لا إيمان له. والعمل وحده مقياس الإيمان حتى يمكـن الحكـم علـى الحكام طبقًا لأعمالهم وليس طبقًا لأقوالهم.

٦. وقد أصدرت الدولة حكما شرعيا من فقهـاء أهـل السنة بطاعة أولي الأمر طبقًا للآيـة المشـهورة

"يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعـوا الرسـول وأولي الأمر منكم" (المائدة، ٥٩) مادام النظام قد استتب، وملكت الدولة أسباب القـوى والمنعـة، وأصبح أمل المعارضة ضعيفًا في الوصول إلـى الحكم، فالاعتراف بالأمر الواقع هو الاجدى مـن التمسك بالشريعة النظرية (مالك بن انس). فـي حين أصرت المعارضة على الشرعية في صور مختلفة ضد حجة الأمر الواقع، فاستمر الخوارج في قتال أئمة الكفر، وجعـل المعتزلـة "الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر" أصلاً من أصـول الدين حتى تستمر الأمة فـي مواجهـة الحكـام، وفصلوا في "عزل" الإمام قـدر تفصـيلهم فـي "تنصيب" الإمام[٢٦٨].

وهذه أمثلة من تاريخ الفـرق الـذي تعلمـه الجماعـات الإسلامية جيدا مما يجعلها استمرار للخلاف القديم مع تغيـر

---

[٢٦٨] انظر مقالنا: "اليمين واليسار في الفكر الديني) الطليعـة، أكتـوبر ١٩٧٦. الجزء السادس: اليمين واليسار في الفكر الديني.

الظروف السياسية والاجتماعية من حيث الوقـائع وإن لـم تتغير الاساليب. فالدولة القائمة لا شـرعية لأنهـا لا تحكـم بالكتاب والسنة ولان النظام الحـالي أتـى نتيجـة انقـلاب عسكري ورث النظام العلماني القديم قبل ١٩٥٢ الذي أتـى نتيجة للانفصال عن الخلافة الإسلامية وتمزيقـا لهـا. وأن عقائد الجماعات الإسلامية لتمثل قوى المعارضة في مواجهة عقائد الدولة التي تمثل النظام المستتب وتفرز المذهب السائد القديم، الأشعرية، بالاعتماد على فقهائهـا الجـدد، مشـايخ الأزهر، ويدل على ذلك الأمثلة الآتية:

١. تتمسك الجماعات الإسلامية الحالية بفكر فقهاء أهل السلف الذين قاوموا فقهاء السلطان مثل ابن حنبل وابن تيمية والذين انتهوا إلى السجون ولاقوا شتى أصناف التعذيب. ففقهاء السلف هـم الحارسـون للشرع، المدافعون عن مصالح الأمة، المتصدون للحكام لم يكن نموذجهم من الفلاسفة أو المتكلمين أو فقهاء "الحيض والنفاس" أو الصوفية بل كـان علماء الأمة على مـدى التـاريخ مـن الفقهـاء والمصلحين من السلف والخلف منذ أحمـد بـن

حنبل حتى سيد قطب. فقد تمثلوا فكر المعارضة في مواجهة فكر الدولة.

٢. قرأت الجماعات الإسلامية نفسها في التاريخ، ووجدت في "مجموعة فتاوي ابن تيمية" خير معبر عن حاضرها. فقد كان حكم التتار إسلاميا في مظهره لا إسلاميا في جوهره "يحكمون بشريعة مغلقة من الديانات لسابقة اليهودية والمسيحية والوثنية ومن الشريعة الإسلامية". وقد أفتى ابن تيمية بكفرهم ووجوب قتالهم. وهو نفس الحال اليوم، وحكام اليوم الذين لا يحكمون بالشريعة وإن كانوا يحرصون على مظاهر الإسلام مثل الشهادتان، والشعائر، وبناء المساجد، فتتار الأمس مثل مسلمي اليوم، وحكام اليوم مثل جانكيز خان!

٣. ظهرت فكرة "الحاكمية" تأكيدا للشريعة في مواجهة النظم اللاشرعية القائمة كما كان الحال بين الحسين ويزيد، والخوارج والشيعة في مواجهة الدولة الأموية. فالحاكمية تمثل سلاح المعارضة

العقائدي في مواجهة النظام القائم، وتقوضه من أساسه لأنه لا يحكم بشرع الله.

٤. ورفض الموالاة للكفار والمشركين والصليبيين إنما جاء نظرا لأن النظام القائم قد والاهم على حساب المؤمنين، فاعترف بالصهيونية، وحالف الصليبية، وعادى المسلمين، وهو محرم بنصوص القرآن والحديث التي لا تحرم الموالاة مثل: "يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصار أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (المائدة، ٥١). وإبراز التعارض بين المؤمنين والكفار، بين الإسلام والجاهلية إنما جاء نتيجة لتمييع الأمور، والقضاء على الهوية الوطنية.

٥. إن اعتبار القلة المؤمنة هي القادرة على تغيير النظام إنما جاء نتيجة للأوضاع القائمة التي تعتمد على الكم دون الكيف، ولكنه كم كغثاء النحل، وقد كان ذلك سبب هزيمة المسلمين بحفنة من اليهود.

والقرآن ينص على الكيف في مواجهة الكم، فالقلة المؤمنة خير من الكثرة الكافرة.

٦. وإذا كان الأمل يعود في قلوب المسـلمين بفضـل الجماعة الإسلامية مـن أجـل إعـادة الدولـة الإسلامية طبقًا لحركة التاريخ ونبؤات الرسـول فإنما ذلك كرد فعل على هزائم المسـلمين وروح اليأس والاستسلام أمام أعداء الأمة.

لا يوجد إذن فكر صحيح، وفكر خاطئ، بل يوجد فكر في ميدان الصراع بين القوى الاجتماعية والسياسية المتعارضة، ومدى تعبير كل منها عن الشرعية.

٧. ما معنى ومدى إمكانية تطبيق الشريعة الإسلامية؟

"تطبيق الشريعة الإسلامية" شعار ينـادي بـه فريقـان.؟ الأول الدولة القائمة، والثاني الجماعة الإسلامية المعارضـة، شعار يرفعه الحاكم، وشعار يرفعه المحكوم. وعند كل فريق له معنى معين، واستخدام خاص، وهدف يرمي إليه، كل طبقًا لموقفه من الحكم، الأول لتدعيم شرعيته والثاني لانتزاع هذه الشرعية وتقويضها. وقد رفع هذا الشعار في الآونة الأخيرة من جانب النظام على النحو الآتي:

١. احتياج النظام القائم إلى مزيد من الشرعية بعـد أن قل رصيدها التاريخي من الشرعية الثورية كمـا كان الحال في الستينات، وبعـد صـراع علـى السلطة واقصاء أحد أجنحتها الذي كان يمثل هذه الاستمرارية التاريخية، وبعد اشتداد المعارضـة السياسية أو والدينية ثانيا ضد سياسات النظـام. ولما كانت الشرعية الرئيسية في الـبلاد وللـدين وللشريعة الإسلامية، فقد لجأ النظام لهذه الشرعية الدينية في وجدان الناس لتدعيم شرعيته السياسية الخاصة ونظامه في الحكم بإعلان التزامه بها.

٢. المزايدة على المعارضـة الدينيـة الممثلـة فـي الجماعات الإسلامية، والإسراع برفـع شـعارها حتى لا يكون لها مبـرر لوجودهـا وحتـى لا تستجيب الجماهير لندائها مادامت الدولـة قائمـة على تنفيذ هذا المطلب بما لها من قوة وسـلطان ومجالس تشريعية ولجان وبنود فـي الدسـتور،

وتصريحات للقادة، خاصة إذا كان سلوك رئـيس الدولة ومظاهره كلها إسلامية[٢٦٩].

٣. تبرئة الذمة، ذمة الحكـام، أمـام النـاس، بـأنهم مخلصون للإسلام، ويسعون لتطبيق الشريعة حتى يمحى مبرر وجود أية حركة إسلامية تنادي بهذا المطاب، خاصة وأن الحكام يعلمون مدى التخلف في الوعي السياسي للناس. فتقتنع بأن الحكام قـد أدوا واجبهم وأن الباقي على الله! وقد تكون تبرئة الذمة أمام الله أيضا، فقد قـام الحكـام بمحاولـة تطبيق الشريعة ولكن الواقع كان أقـوى مـنهم،

---

[٣٦٩] لذلك كان سؤال المحققين باستمرار في قضية اغتيـال الـرئيس السابق عن مدى الخلاف بينه وبين الجماعات اذا كان قد كون لجنة في مجلس الشعب لتقنين الشريعة، وجعلها المصدر الرئيسي للتشريع فـي الدستور، وجعل الإسلام الدين الرسمي للدولة.. الخ. انظـر دراسـتنا "الاصولية الإسـلامية" جـذورها التاريخيـة، وروافـدها الفكريـة، وانفجاراتها السياسية (دراسة في التحقيقات حول اغتيال الرئيس) الجزء الخامس.

وإنما الأعمال بالنيات وكأن الله تخفى عليه مـالا ترى الأعين وما تكن الصدور!

٤. البعد عن الجانب السياسي والاجتماعي في الشريعة الإسلامية دفاعا لا شعوريا وأحيانًا عـن النظـام القائم واللجوء إلى قـانون الأحـوال الشخصـية فتصول فيه الدولة وتجول، وتقيم المعارك، وتعقد الندوات، وتستفتي الكبار، وتدخل فيه الجمعيـات النسائية، وتكثر حوله الأفلام، مـادام الأمـر لا يتعدى نطاق الزواج والطلاق، وتعدد الزوجـات، الحضانة، وملكية الشقة، ومقدار المهر والصداق.

أما النظام الإسلامي والسياسي والاقتصادي الاجتمـاعي، نظريته في الملكية، وفي الأجـور وفـي الزراعـة وفـي الصناعة، نظريته في الشورى والبيعة، نظريته في وجـوب خلع الحكام والخروج عليهم، نظريته في اسـتقلال القضـاء وعدم جواز عزل القاضي، نظريته في الحسبة والرقابة على الأسواق، نظريته في بيت المال والخراج، نظريته في تحرير أراضي المسلمين وجهاد الكفار والمعتدين. كل ذلـك غيـر مقصود بتطبيق الشريعة الإسلامية!

٥. انتفاء الحدود والدعوة إلى تطبيقها، وكأن الشـريعة الإسلامية لا تحتوي إلا على العقوبات والـردع والاقتصاص، والقتل، والرجم، والجلد، والتعذيب! وكأن القصد هو إرهاب الناس وتخـويفهم مـن الشريعة الإسلامية وليس تطبيقها! أمـا إعطـاء حقوق الناس قبل مطالبتهم بواجبـاتهم، وإيجـاد عمل للعاطل وقوت للفقير قبل قطع يد السـارق ومنع الإثارات الجنسية في الصـحف وأجهـزة الإعلام وتوفير سبل استقرار الحياة الزوجية قبل رجم الزاني فكل ذلك غير وارد وكأن الغاية من تطبيق الشريعة هو عقاب الناس والقصاص منهم! أما قطع يد الحاكم إذا سرق، ورجم الشـريف إذا زنا فذلك أيضا غير وارد لأن تطبيق الحود موجه ضد الأغلبية أولاً دون الأقلية، وأن تحريم شرب الخمر على المصريين المسـلمين ولـيس علـى الأجانب السياح بما فيهم العرب المسلمون تنشيطًا للسياحة! وان قتل المرتد إذا أعلن كفره وامتنـع

عن الصـلاة وأداء الشـعائر مثـل مـا تفعـل المعارضة السياسية الملحدة!

٦. الغاية إذن من رفع هذا الشعار "تطبيـق الشـريعة الإسلامية" هو الحد مـن التغيـر الاجتمـاعي، وإيقاف عملية التطـور الطبيعـي للمجتمعـات، والدفاع عن النظـام القـائم وإرهـاب النـاس، والمزايدة على الجماعات الإسـلامية، والتغطيـة على المشاكل الاجتماعية والسياسـية الجوهريـة والتستر عليها، والتغطية عل المشاكل الاجتماعية والسياسية الجوهرية والتستر عليهـا، والابتعـاد عنها لأنها حكر على السلطة تقرر فيها ما تشـاء أو لأنها سياسة صرفة ولا سياسة في الـدين ولا دين في السياسة أو لأنها من عند الله الحاكم فيها بما شاء! يستخدم هذا الشعار في معرض "النفاق" الديني مما يسبب غضب الجماعـات الإسـلامية وثورتها على من يتمسح بالدين لضرب الدين.

ولما كانت المجتمعات الإسلامية كلها حكاما ومحكـومين تمر بمرحلة من التخاف، نظرا لطبيعة المرحلة التي تمر بها

بعد ألف عام من سيادة الأشعرية المزدوجة بالتصوف منذ هجوم الغزالي على العلوم العقلية والدعوة للتصوف كطريق للخلاص حتى الدولة العثمانية وقبيل الإصلاح الديني الأخير، فإن "تطبيق الشريعة الإسلامية" يعني عند الجماعات الإسلامية المعارضة نفس المعنى الذي يعنيه عند الحكام بهدف سياسي آخر وهو تفويض النظام لما كانت الدولة تحكم بالقانون الوضعي وليس بالشريعة الإسلامية بالرغم مما تضعه الدولة في دساتيرها وقوانينها ومؤسساتها من مظاهر للنفاق الديني. ونظرا لنقص في وعيها السياسي والاجتماعي فإن تطبيق الشريعة الإسلامية ظل أيضا مجرد تعبير عن الحاكمية استنباطًا من مبدأ عام دون أن يقدم برنامجا اجتماعيا سياسيا محددا لمعرفة مدى اتفاقه واختلاف مع برامج الاتجاهات والقوى والأحزاب الأخرى. مما يدل على أن هذا الشعار مازال موجها أساسا ضد النظام القائم كمعول لتقويض كيان الدولة. أي أن جانبه إلهدمي أكبر بكثير من جانبه البنائي. وأن الرفض والمعارضة فيه أقوى من الوضع والإثبات.

ومع ذلك فان تطبيق "الشريعة الإسلامية" الذي لا ترفضه الجماعات الإسلامية لأنه يحقق شعارها بوعي سياسي حاضر ودون رغبة في تقويض نظام الدولة القائم أو الثأر منها والذي لا ترفضه الدولة القائمة لأنه لا ينافسها في السلطة، ولا يبغي القضاء عليها بل يساعدها على تكوين مشروع قومي لها يحمي الشباب، ويجدد طاقاته، ويكون عونا لها لا خارجا عليها، هذا التطبيق يجمع بين مبادئ الإسلام ومتطلبات الثورة، ويصيغ الإسلام من خلال روح العصر ومطالب الجماعة ومصلحة الأمة. ويعني الآتي:

١. تأسيس مجتمع يقوم على الحرية والديمقراطية تنفيذًا لقول الله "لا إكراه في الدين" وتأكيدا على مبادئ الإسلام في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ووظيفة "الحسبة" وهو ما يعني بلغة العصر ضرورة المعارضة السياسية، وحرية الصحافة، وضرورة الرقابة على مؤسسات الدولة، وانتخاب مجالس نيابية، والتزام الحاكم بإرادة الأمة ومصلحة الشعب. فأي قهر للحريات

وأي منع للرأي، وأي تكفير يخرج عـن الحكـم الإسلامي.

٢. تحقيق نظام اجتماعي يقوم على أكبر قدر ممكـن من العدالة والمساواة. فمشكلة المسلمين الثانيـة، بعد مشكلة القهر والتسلط والطغيان، هي مشـكلة الفقر والجوع الحرمان وسـوء التغذيـة حتـى يضرب بمجتمعاتهم المثل في الفقر والغنى في آن واحد، فقر الأغلبية وهلاكها من الجوع والقحـط وغناء الأقلية وبطانتهم وتكديسهم الأمـوال فـي البنوك الأجنبية. فالمال مال الله علـى مـا هـو معروف في نظرية "الاستخلاف" أودعه كوديعـة بين أيدي الإنسان. له حق التصرف، والاستثمار، ولانتفاع ولكن ليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز. وما تعم به البلوى، ويمـس صـالح المسلمين يكون مشاعا بين الناس، ويوجه لصالح الأمة مثل الماء والكلأ أي الزراعـة والنـار أي الصناعة. أما التجارة فكما يقول ابن خلـدون لا تزيد إنتاجا، ومن يعيش عليها يكون طفيليا علـى

المجتمع. لا يسمح الإسلام بنظام اجتماعي يقوم على التفاوت بين الطبقات فالمجتمع الواحد الذي فيه إنسان واحد جائع تبرأ ذمة الله منه.

٣. توجيه الأمة كلها إلى الوقوف في مواجهة أعدائها، الاستعمار والصهيونية. فقد أخذ الاستعمار أشكالاً متعددة منذ الحروب الصليبية حتى أشكال الأحلاف العسكرية والتسهيلات والمعونات الحالية. والصهيونية مازالت تحتل أراضي المسلمين بالتعاون مع الاستعمار. وبالتالي تكون المواجهة بين الحق والباطل، بين العدل والظلم بين الإيمان والكفر، بين الإسلام والجاهلية. يتحول هذا التقابل في الوعي الإسلامي المعاصر إلى وجهته الصحيحة ضد الأعداء في الخارج بدل أن يتوجه نحو قسمة المجتمع في الداخل إلى قسمين وشق الجبهة الوطنية، وإحداث الفتن، وضياع الشوكة.

٤. تجنيد الجماهير لتحقيق هذا المشروع بدل التسيب والتميع السعي وراء الدنيا وحظوظها أو الهجرة

وترك البلاد، وبالتالي يكـون للجهـاد معنـى، ويتحقق كفريضـة كمـا تنـادي بـه الجماعـة الإسلامية، وتجند طاقات الشباب، ويتدرب علـى القتال للذود عن البيضة، وحماية الديار، وتقويـة الثغور، وحراسة الحـدود، وتشـييد الحصـون، وتكوين الكتائب وإرسال السرايا، والنداء للجهاد، وطلب الشهادة.

٥. توحيد الأمة بعد أن تقطعت أوصالها، وتمزقت اربا حتى يسهل ابتلاعها من أعدائها "إن هذه أمـتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون" (الأنبيـاء، ٩٢). وبالتالي تتحقق الوحدة بين مشروع الأمة القومي في قيام الوحدة بين شعوب المنطقة وبين مطلـب الجماعة في توحيد الأمـة الإسـلامية، ويتوحـد مطلب الواقع ومطلب المبدأ، فـلا خـلاف بـين القومية أحد مراحل الوحدة الإسلامية الشاملة.

٦. الدفاع عن استقلال الأمة وحيادها وعدم انحيازهـا شرقًا أو غربا، فالشرق والغرب كلاهمـا يريـد نهب ثـروات المسـلمين واحـتلال أراضـيهم،

والقضاء على هويتهم، ومحو تاريخهم، وبالتـالي يتحقق مطلب الدولة في عدم الانحيـاز ويتحقـق مطلب الجماعة الإسلامية فـي مواجهـة الأمـة لاعدائها "لا شرقية ولا غربية" وقد كانت الحركة الإسلامية أول مـن أكتشـف فكـرة الآسـيوية والإفريقية وعدم الانحياز[٢٧٠]. وعلى هذا النحـو يصبح شعار "تطبيق الشريعة الإسلامية " ممكن

التطبيق لا خلاف عليه بين الدولة أو أي نظام قائم وبـين الجماعة الإسلامية الحاليـة أو أيـة دعـوة إسـلامية فـي المستقبل[٢٧١].

٧. ما هي العوامل التي أدت إلى ظهـور الجماعـات الدينية "المتطرفة"؟

إن الحكم "بالتطرف" على الجماعات الإسلامية هو حكـم مسبق أو حكم قيمة يحتوي على الرغبة في إدانة المعارضـة

---

[٢٧٠] مالك بن نبي: فكرة الاسيوية والافريقية.

[٢٧١] وقد حاولنا تحقيق هذا المشروع في "اليسار الإسلامي" انظر العدد الأول، ١٩٨١.

لصالح النظام السياسي القائم. فالتطرف هنا يعني الخـروج على النظام لما كان طاعة النظـام هـو مقيـاس السـلوك الاجتماعي الرشيد! وأحيانًا يكون التطرف رد فعـل علـى تطرف آخر، فالتطرف في الجهاد رد فعـل علـى التمـايع والمصالحة والتسليم بأهداف الأعـداء، والتطـرف لصـالح الفقراء رد فعل على نهب الأغنياء، واستعمال العنف رد فعل على عنف مضاد تقوم بـه الدولـة بأجهزتهـا القمعيـة أو بسيطرتها على وسائل الإعلام فتمنع الحوار، وتقهر الـرأي المعارض فلا يجد وسيلة أخرى للتعبير عن نفسه ألا تغييـر الوضع بالقوة.

ومع ذلك يمكن رصد بعض العوامل التي أدت إلى ظهور الجماعات الإسلامية على النحو التالي:-

١. إن المطلع على تاريخ الإسلام ويكون فـي نفـس الوقت غيورا عليه شابا طاهرا بفكرها وممارستها الحالية، لم تغره مطامع الدنيا، ولم تفسده أوضاع المجتمع ليحزن أشد الحزن، ويشـعر بـالمرارة والأسى إذا ما قارن الماضي بالحاضر، ماضـي الإسلام التليد، وحضارته الزاهرة، ومجده وآثاره

وفتوحاته وانتصاراته، إذا ما قـارن ذلـك كلـه بأوضاع المسلمين اليـوم، بهـزائمهم وتخلفهـم، بضياع دولتهم وشوكتهم، بنظمهم التسلطية القائمة على القهر والطغيان، وبأوضـاعهم الاجتماعيـة المزرية، وبتقدم غيرهم من الشعوب التي كانـت تتعلم من المسلمين بالأمس فأصبحت سـادة لهـم اليوم يتعلم المسلمون منهم، وينسون دينهم. هـذه القراءة المتطهرة للتاريخ هي التي دفعت أعضاء الجماعة الإسلامية إلى الانضمام إلى أية دعـوة تهدف إلى العودة إلى عـزة الإسـلام، ونصـرة المسلمين، وتتجاوز أحداث العصر، وتنهي عصر الانهيار والانحطاط، وتعيد إلى الإسلام مكانتـه ودولته، تحقيقًا لنبؤة الرسول أنه لا يصلح آخـر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. وكلمـا ازدادت الأزمات، وتوالت الهزائم زاد الارتباط بالإسـلام كمنقذ وحيد للمسـلمين والشـاهد فـي التـاريخ والآثار. فلو اتبع الخلف آثار السلف لنهض مـن جديد، وقام من كبوته. هـذا الإحسـاس بـدوره

التاريخ هو الأساس الوجداني الذي تقـوم عليـه الصحوة الإسلامية في قلوب الناس والتي منهـا تتبلور الجماعات الإسلامية وتأخذ أشكالها الحالية التي تفرضها الظورف الوقتيـة فـي الماضـي القريب.

٢. ولقد قام الإصلاح الديني من نفس الـدافع ولـنفس الهدف. وبدأ بداية طيبة منذ الافغاني الذي حـدد مشروع نهضة المسلمين وشروط قيـام دولـتهم بمواجهة الاستعمار في الخـارج والتسـلط فـي الداخل، والدعوة إلى وحدة الأمة، وجاهد لتحقيق ذلك المشروع، وقامت حركات وطنية فـي كـل أرجاء العالم الإسلامي، وأسس في مصر الحزب الوطني، وقامت الثورة العرابية علـى مبادئـه، ودبت الحياة في الأمة الإسلامية من جديد، ولكن الإصلاح الديني هبط إلى النصف عند محمد عبده بإيثاره الوطنية الضيقة على الجامعة الإسـلامية الشاملة، وبتفضيله مناهج التربية والتعليم الطويلة المدى على مناهج الانقلابات السياسـية وتغييـر

السلطة القصيرة المدى، وبتراجعه عن الثورة العرابية وتعاونه مع أعدائها في الداخل وفي الخارج بعد أن أنضم إليها وشارك فيها، وتفرقته بين الدين والسياسة في قوله المشهور "لعن الله ساس ويسوس"! ثم هبط إلى النصف مرة أخرى على يد رشيد رضا، ووضع واقع المسلمين كله في القرآن في تفسير المنار بدلاً من أن يضع واقع القرآن في واقع المسلمين فتتفجر الثورة، وتحول الإصلاح على يديه إلى سلفية وقل ارتباطها بحياة الناس اليومية. وعاد الإصلاح من جديد يأخذ[٢٧٢]. دورة جديدة على يد حسن البنا تلميذ رشيد رضا في دار العلوم من أجل إعادة إصدار المنار ولكن الصحوة الإصلاحية الجديدة ظهرت في حركة "الأخوان المسلمين" عقائد واضحة بسيطة، وإسلام كلي شامل، وتنظيم

---

[٢٧٢] حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية ص ٢٥٤ – ٢٥٥ الشهاب، القاهرة.

جماهيري فعال، وتدريب وإعداد لجند الإسلام. واستطاعت الحركة الجديدة أن تفرض نفسها على الساحة الوطنية المصرية في الأربعينيات وفي أوائل الخمسينات، وكانت إحدى روافد الضباط الأحرار، وقبل الثورة في ١٩٥٢ كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر لولا جماهيرية الوفد وشعبيته الكاسحة في انتخابات ١٩٥١. فالجماعات الإسلامية، وليد الأخوان المسلمين واستمرار لهذه الصحوة الإسلامية ولكن من خلال الصيغ والأشكال التي فرضتها الظروف.

٣. ولكن بعد اضطهاد الأخوان إبان الثورة المصرية (١٩٥٣ – ١٩٧١) وحدوث أبشع صدام بين أنجح تنظيم سياسي حديث عقد آمال الأمة عليه وأنجح تنظيم عسكري تحققت الثورة عليه في مارس ١٩٥٤ ظهر الإسلام والثورة نقيضين، وتحول الإسلام إلى داخل السجون، يلاقي أعضاؤه أبشع أنواع التعذيب البدني والمعنوي، فنشأ ثأر مبدئي بين الإسلام والثورة، وظهر

الإسلام معاديا للثورة، والثورة معادية للإسلام بصرف النظر عن أدبيات الدعاية حول الاشتراكية في الإسلام التي كثرت في الستينات، وتحول داعية الإسلام الأول، وأكبر مفكر شهده العالم الإسلامي منذ أبي الأعلى المودودي، وهو الإمام الشهيد سيد قطب، تحول من "العدالة الاجتماعية في الإسلام" ومن "معركة الإسلام والرأسمالية" ومن "السلام العالمي والإسلام" حيث كان قد بدأ في صياغة الإسلام الثوري أو الثورة الإسلامية كملتقي لكافة الاتجاهات الوطنية، وكبوتقة للحركة الوطنية المصرية في أواخر الأربعينيات، تحول ذلك كله إلى "معالم في الطريق"، وقسمة العالم إلى أبيض وأسود، والناس إلى مؤمنين وكافرين، والمجتمع إلى إسلام وجاهلية، تعبيرا عن "سيكولوجية الاضطهاد" وإنه لا سبيل إلى اللقاء أو التعاون أو التوسط بين الطرفين، وإنه لا بقاء لأحدهما إلا بفناء الآخر، وأن الحاكمية لله وليست للبشر، وأن لا إله إلا الله

تحرير لوجدان البشر مـن رق الطـاغوت، وأن المنوط بتحقيق هذا المثل هم القلة المؤمنة، الجيل القرآني الجديد، الصفوة المختارة[٢٧٣]. وفي داخل السجون وعلـى البرشـي تكونـت الجماعـات الإسلامية من نقاش حول مصير الأخوان وأسباب محنتهم واضطهادهم، واستحالة التعاون مع الدولة الكافرة أو نظام الحكم التي لا تقبل تطبيق شـرع الله. فلولا اضطهاد الأخوان، ولولا توقف نشاطها لما خرجت الجماعات الإسلامية شـاردة علـى الحركة الإسلامية وتعبر عن ظروف اضطهادها.

٤. ولما احتاجت الدولة إلى الشرعية، واحتاج النظـام الجديد في مايو ١٩٧١ إلى نـوع مـن التأييـد الشعبي خاصة وأنه لم يكن له رصد تاريخي كما كان للنظام في الستينات، اعتمدت علـى أعـداء النظام السابق أي الأخـوان المسـلمين وشـكلهم

---

[٢٧٣] انظر بحثنا: أثر الامام الشهيد سيد قطب على الحركات الإسلامية المعاصرة في هذا الجزء.

الجديد الذي تكون داخـل جـدران السـجون أي الجماعات الإسلامية. وكلما كشف النظام الجديـد عن مرحلة من مراحل الردة عن النظام السـابق ازداد اعتماده على ضحاياه من الطـلاب آخـر أجيال الناصرية في الجامعة. وحدث نـوع مـن اتفاق المصالح بين الدولة والجماعـات، الدولـة تستخدم الجماعات لتصفية الجامعة من التكـتلات والتنظيمات والأندية الناصرية والتقدميـة بوجـه عام أي ضد خصومها السياسـيين، والجماعـات تستعمل الدولة وسلطانها تأكيدا لسلطتها، وتقويـة لنظامها، ونشر لدعوتها، وتأسيسـها لجماعتهـا، فنشأت الجماعات بتدعيم من الدولة وعلى مرأى ومسمع منها.

٥. استعمال الدولة للمحافظة الدينية خاصة بعد حـرب أكتوبر ١٩٧٣ كدليل على النصر وأحد أسبابه لما كان البعد عن الدين أحد أسباب هزيمـة يونيـو ١٩٦٧. وظهرت الحمية الدينيـة فـي أجهـزة الإعلام. وكثرت الشـعائر والمظـاهر. وإقامـة

الشعائر، وزيادة البرامج الدينية، وصفحات الفكر الديني، وصاغت الدولة أيديولوجيتة لها تعتمد في أساسها على الإيمان، وأطلقـت شـعار "العلـم والإيمان"، وركزت على قيم الأصالة والصلابة، ودعت إلى احترام التقاليد، وسنت قانون العيب.

٦. ولكن منذ معاهدة السلام المصرية الأسرائيلية فـي مارس ١٩٧٨ انتهى عصر الوفاق بـين الدولـة والجماعات الدينية وبدأ الخلاف. فقـد أراد كـل فريق أن يقوم بدوره الخاص، وتحقيـق أهدافـه الخاصة، استمرار الدولة استعمالها لتأييد سياساتها ضد خصومها السياسيين واستمرار المجاعات في الحصول على تأيد الدولة. فقـد أدت المعاهـدة واستمرار الجماعات في الحصور علـى تأييـد الدولة. فقد أدت المعاهدة والقوى الوطنيـة فـي مصر على رفضها سواء الليبرليون (الوفـد) أو الناصـــريون أو الماركســيون أو الحركـــات الإسلامية. وكان هناك حد للتعاون بـين الدولـة والجماعات لا يصل إلى حد التعاون على التسليم

بالصهيونية والوقوع في براثن الاستعمار وتحت مناطق النفوذ، وفي سياسة الأحلاف. واتفقت جميع قوى المعارضة على برنامج عملي واحد وهو رفض المعاهدة المصرية الأسرائيلية وما يتبعها من اجراءات التطبيع، ورفض التحالف مع الاستعمار، ورفض سياسة الانفتاح ونتائجها على الاقتصاد الوطني ومستوى الحياة الاجتماعية للأغلبية، ورفض جميع الإجراءات الاستثنائية المكبلة للحريات وجميع مظاهر الفساد والانحلال في الدولة ورفض عزلة مصر عن محيطها العربي والإسلامي. نشطت الجماعات الإسلامية كأحد فصائل المعارضة. ولما كانت أكثرها تنظيما واقتناعا وقدرة على الفعل فقد حدث على يدها انفجار ٦ أكتوبر ١٩٨١.

٧. نهاية الأيديولوجيات العلمانية للتحديث مثل الليبرالية (قبل ١٩٥٢) والاشتراكية العربية (بعد ١٩٥٢) والماركسية وفشلها في أحداث تغييرات جذرية في تاريخ البلاد ونهضة شاملة تحمي

الأمة. فقد تعاونت الليبرالية مع الغرب وأصبحت موالية له. ومن خلالها نشأ الإقطاع وازدهـرت الرأسمالية، وتدخل القصر والاستعمار في الحياة النيابية. كما انتهت الأشتراكية العربية إلى مزيد من احتلال الأراضي، وتكوين طبقة جديدة، وتعذيب في السجون، واضـطهاد للحركـة الإسـلامية، وقضاء على الحريات، وسيادة الانحلال والفساد. أما الماركسية فإنها مجتثة الجذور مـن تـاريخ الأمة، تدين بالولاء للغير، ولا تجد لها رصيدا في قلوب الناس. لم يبـق إذن ألا الجنـاح الآخـر، الحركة الإسلامية لما لها من رصـد تـاريخي، وتعاطف شعبي، وإمكانيات تربويـة وأخلاقيـة، وقدرة على التنظيم والمقاومة، وأهداف عليهـا. وبالتالي ظهرت الجماعـات الإسـلامية كبـديل محتمل لنظام الحكم السابق، والاكثر احتمالا مـن الليبرالية والقومية والماركسـية. وبـدأ النـاس يتساءولن لقد جربنا كل شيء فلمـاذا لا نجـرب

الإسلام هذه المرة، وهو ما نعرفـه أكثـر مـن غيره[٢٧٤]؟

٨. كان لانتصار الثورة الإسلامية في إيران أثر غير مباشر على ثقة الحركات الإسلامية بقدرتها على الفعل. فقد حيـت الجماعـة الإسـلامية الثـورة الإسلامية في إيران ونشرت صور الخيني علـى غلاف مجلاتها، وتظاهرت ضد قدوم الشاه إلـى مصر، وحيث نضال المجاهدين في أفغانسـتان. وبالرغم من ضيق أفق الجماعـات واعتبـار أن الخلاف العقائدي بين الشيعة والسنة مانعـا مـن التحالف الثوري، إلا أن نمط الثورة الإسلامية في إيران التعاون بين الجيش والشـعب كـان أحـد نماذج الثورة الإسلامية المقبلة في مصر[٢٧٥].

---

[٢٧٤] انظر بحثنا: نشأة الاتجاهات المحافظة في وطننا العربي الـراهن قضايا عربية، يناير ١٩٨٠، الجزء الخامس.

[٢٧٥] هذا واضح من أقوال عبود الزمر في قضـية اغتيـال السـادات الجزء السادس: الاصولية الإسلامية.

٤- ما هو العمل والحل؟

ليست الجماعات الإسلامية مرضا خبيثًا يجب اجتثاثـه أو داء عضالاً يجب القضاء عليه أو ظـاهرة مرضـية تجـب معالجتها أو تنظيما إجراميا لابد من تقديمه للمحاكمة وإنهائه داخل السجون والمعتقلات. فلو كانـت هـذه هـي النظـرة لاستمرت الجماعات ولقويت، ولازدادت شوكتها والتـاريخ القريب شاهد على ذلك منذ واقعة الاسـتيلاء علـى الفنيـة العسكرية على يد حزب التحرير التحريـر الإسـلامي فـي ١٩٧٤ إلى مقتل الشيخ الذهبي على يـد جماعـة التكفيـر والهجرة في يوليو ١٩٧٧ حتى اغتيال الرئيس السابق علـى يد جماعة الجهاد في أكتوبر ١٩٨١. وفي كل مرة يزداد عدد المتهمين، ويتسع انتشار الجماعات. وليس الهدف هو القضاء عليها، ومنعها من الانتشار وانتشال أعضائها من الضـلال وإرجاعهم إلى حظيرة المسلمين وذلك بإرشاد رجال الـدين الذين يقومون بواجبهم وبحل مشاكل الشباب وزيـادة عـدد الأندية الرياضية! فالجماعات الإسلامية ظاهرة صحية فـي مضمونها وإن كان الشكل هو الـذي فرضـته الظـروف، ظروف الحركة الإسلامية خاصة إبان الثورة المصرية. وإن

الحل الوحيد، فيما يبدو، هو إعادة النظر في العوامـل التـي ساعدت على نشأتها ثم تحويل هذه العوامل نحو أشكال أكثر صحية وأكثر شرعية مـن الأشـكال التـي ظهـرت فيهـا الجماعات حتى الآن.

ويمكن تحديد ذلك على النحو الآتي:

١. ضرورة عودة الأخوان المسلمين كبرى الحركـات الإسلامية المعاصرة، والوريث الشرعي لحركـة الإصلاح الديني والباعث على نهضتها من جديد والتي أحيت في قلوب المسـلمين أمـل الدولـة الإسلامية وعزة الإسلام، ونصـرة المسـلمين. جهادهم التربوي من أجل إعداد الشباب معروف ومشهود، وجهادهم في فلسطين آثـار إعجـاب الجيش النظامي، وحربهم الإنجليـز فـي قنـاة السويس في ١٩٥١ بالتعاون مع الضباط الأحرار كان فخرا للحركة الوطنية المصـرية. وتوطيـد أوامر الصداقة والتعـاون بـين أرجـاء العـالم

الإسلامي كان بداية الحركات الحاليـة للوحـدة العربية وللجامعة الإسلامية[٢٧٦].

وقد كان الأخوان قاب قوسين أو أدنى من النصـر قبيـل الثورة المصرية وبعدها لولا حدوث الشقاق بـين أعضـاء مجلس قيادة الثورة، ووقوع الصراع على السلطة بين الثورة والأخوان، وحدوث أكبر مأساة في تاريخ مصر الحديث التي شقت الأمة إلى قسمين، وقسمت وجدانها شـقين، الإسـلام والثورة، الدين والوطنية، حاكمية الله وحاكمية البشـر. فـلا يمكن في مصر أو في أي بلد إسـلامي أن يغيـب تنظـيم إسلامي شرعي قادر على التعبير عن الإسلام باعتباره تاريخ الأمة وروحها، والمعبر عـن مطالبهـا، ووعـاء وحـدتها الوطنية، وبوتقة اتجاهاتها السياسية. فالجماعات الإسـلامية هي الجماعات الشاردة نظرا لغياب التنظيم الأم القادر علـى احتواء أبنائه. ويمكن للجماعة الإسلامية أن تكـون جناحـا

---

[٢٧٦] انظر مقالنا ماذا خسرت مصر بالقضاء على الاخـوان؟ ومـاذا كسبت مصـر مـن جماعـة الاخـوان. الجمهوريـة ١٩٦٧/٣/٢٠، ١٩٧٦/٥/١٠ الجزء السابع: اليمين واليسار في الفكر الديني.

جذريا داخل التنظيم الأم كما يمكن لجماعات الهداية والرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجمعية الشـرعية، وأنصار السنة المحمدية، والأزهر وغيره أن تكون جناحا لينا طيعا في مقابل جنـاح الشـباب الـذي تمثلـه الجماعـات الإسلامية. ولكن يظل تنظيم الأخوان المسلمين هو التنظـيم الأم القادر على احتواء أجنحته، والقادر على أن يعقد حوارا داخليا بين فرق المسلمين من منطلق واحـد وهـو الإسـلام ونحو هدف واحد وهو إقامة الدولة الإسلامية. ولكن قبل ذلك لابد من حدوث مصـالحة رسـمية وعلنيـة بـين الثـورة والأخوان، بين الدولة والحركة الإسلامية، وأن يتم اعتـذار رسمي من الدولة عما حدث لكبرى الحركات الإسلامية مـن اضطهاد وتعذيب اقترفه الأبرياء. وأن تلغى قـرار الحـل الصادر في ١٩٥٤، وأن يعاد إليهم المركز العام الذي اشتراه الأخوان بأموالهم وبحلى نسائهم والذي انقلـب مـن مركـز للهداية والدعوة الإسلامية، وقلب نابض للعالم الإسلامي إلى قسم الدرب الأحمر يسـجن فيـه المتسـولون والمجرمـون والقوادون! وعلى هذا النحو يمكن أن تمحـى الغصـة مـن الحلق والأسى من القلب والحزن من النفس، والثأر القديم بين

الأخوان والثورة. ويبدأ كل منها صفحة جديدة من أجل مصر وصالح الأمة ونصرة الإسلام وعزة المسلمين.

٢. ضرورة عقد حوار مفتوح بين كافـة الاتجاهـات الوطنية، والأحزاب السياسية، والقوى الاجتماعية حول القضايا المصيرية في البلاد وعلى رأسـها كيفية مواجهة الاستعمار والصهيونية في الخارج والقضاء على التسلط والفقر فـي الـداخل، وأن تكون هذه المحاور الأربعة هـي قلـب الحيـاة الوطنية وليس اتحاد الكرة أو أخبار الـدوري أو المسلسلات التلفزيونيـة أو إعلانـات البضـائع المستوردة. وعلى هذا النحـو تواجـه الـدعوة الإسلامية التحديات الحقيقية، وتشحذ ذهنها فـي صياغة برامج اجتماعية وسياسـية تسـتطيع أن تتمازي بها عن باقي الاتجاهات السياسـية فـي البلاد، ولربما يظهر على يديها أن الإسلام هـو النظرية الأكثر اتساعا والأقـدر علـى إكمـال البرامج الوطنية الأخرى، وعلى أن يكون بوتـه الوحدة الوطنية كما حدث في الثورة الإسلامية في

إيران. فطالما عقد هذا الحوار الوطني على الأعناق، وفي سرائر الناس وضمائرهم فلن تتحول الطاقات إلى الداخل في تنظيمات سرية ومنشورات مناهضة للحكم، وطالما عبر الناس عن آرائهم بصورة صحيحة، وظهر الخلاف في الرأي علنًا، وعلى الملأ، وأما أعين الجميع، فلن يحتاج أحد إلى أن يدير ظهره للنظام وأن يعمل بطريقته الخاصة ضد النظام، وأن يجد خير معبر عنه هذه المرة ليس الفكر بل المدفع والقنبلة، وفي هذه الحالة، لن يرى الآخرين مخالفين له في الرأي يحاورهم وهم أحياء على فراقهم وهم أموات بل أعداء ينهي حياتهم، ويفرح لمماتهم. فالعنف أو التطرف إنما هو نتيجة طبيعية لغياب الحرية والديمقراطية، وانعدام الحوار العلني المفتوح بين كافة القوى السياسية، وتحويل للطاقات للشباب ولقواهم النظرية والعلمية من العلن إلى السر، ومن الخارج إلى الداخل، ومن مواجهة النظام إلى طعنه في الظهر. فالفكر ليس

جريمة، والرأي ليس جنايـة، والإسـلام أكثـر الاتجاهات شرعية في الـبلاد، وأكثرهـا عمقًـا وأبعدها تاريخًا، وأوسـعها انتشـارا، وأقواهـا ضمانًا، وأحرصها على هوية الناس، لكل اتجـاه لسان حاله، جريدته اليومية ومجلته الأسبوعية أو الشهرية، وكتابه السنوي، ونشراته ومؤلفاته بـل ومطابعه ومعاهده وتنظيماته، وكل ذلـك ترعـاه الدولة وتؤيده، وما الدولة ألا كيان صوري وفكرة مجردة لا وجود لها ألا من خلال الجسـم الحـي للمواطنين، دمائهم وعظامهم ولحمهم وحيـاتهم. فان عادت الدولة قواها واتجاهاتها فإنها تقضـي على حياتها بيدها وتنتحـر دون أن تـدري، إن حرية الفكر هي شرط التقدم، وقد يكون خطؤنـا الحديث أننا بـدأنا بالضـباط الأحـرار ولـيس بالمفكرين الأحرار وبالتالي نكون قـد وضـعنا العربة أمام الحصان[٢٧٧].

---

[٢٧٧] انظر مقالنا الضباط الاحرار أم المفكرون الاحرار؟ قضايا عربية،

=

٣. وضع نهاية لكافة مظاهر النفاق الديني في أجهـزة الإعلام ومؤسسات الدولة وإعطـاء المؤسسـات الدينية استقلالها عن السلطة. والصيام الذي يكلف الدولة مئات الملايين مـن الجنيهـات بالعملـة الصعبة لتوفير المواد الغذائية واستيراد كماليـات رمضان، والشهادتان اللتان لا تتعـديان تمتمـة الشفاة، وتحويل الدور الأرضي من عمارات من عشرات الطوابق لإعفائها من العوائـد، وبنـاء المساجد من الفنانين والفنانات ورجال الأعمـال ووجهاء الدولة، والتكسب مـن الكتـب الدينيـة والبرامج الإذاعية والأحاديث التلفزيونية والثراء من قراءة القرآن والمناصب الدينيـة، وطبعـات

سبتمبر ١٩٧٩ وأيضا، الجزء الثاني: الدين والتحرر الثقـافي. ولـذلك وضع سبينوزا عنوانا فرعيا لرسالته في اللاهوت والسياسـة "فـي أن حرية الفكر ليست خطرا على التقوى ولا على سلامة الدولـة بـل أن القضاء على حرية الفكر فيه خطر على التقوى ويهدد سلامة الدولـة". انظر ترجمتنا وتقديمنا للرسالة، الطبعة الثانيـة، الانجلـو المصـرية ١٩٧٨.

القرآن وتغليفه بالقطيفة الحمراء ثم لا تفتح أو تقرأ بل نتبادلها كالهدايا أمام عدسات التصوير تعبيرا عن الإيمان، وجعل الشريعة المصدر الرئيسي في نطاق الحدود والأحوال الشخصية، وممارسة الانفتاح الاقتصادي وكبت الحريات والتسليم بالصهيونية والتحالف مع الاستعمار، وتكوين لجان لتقنين الشريعة من المهربين وتجار الحشيش والمقاولين والسماسرة والمضاربين، وتكوين هيكل عظمي يسمى جامعة الشعب العربية والإسلامية لسد فراغ الجامعة العربية، وإصدار "العروة الوثقى" كلسان حال للنظام السياسي، وتأييد مجاهدي أفغانستان، لا حبا في الإسلام ولكن عداء للاتحاد السوفيتي وتعاونًا مع الاستعمار الذي أصبح بين يوم وليلة مؤيدا للمسلمين وكأن شعب فلسطين ليس مسلما، ومعاداة الثورة الإسلامية في إيران باسم المحبة وكراهية للدم، واستعمال فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس لتحليل ما يريد الحاكم وتحريم ما

لا يريده، فلا يجوز الصلح أو المفاوضة أو الاعتراف بإسرائيل باسم الإسلام بعد هزيمة ١٩٦٧ تأييدا للخط السياسي آنذاك، ويجوز الصلح والاعتراف والتفاوض مع إسرائيل بدليل صلح الحديبية للخط السياسي بعدها بعشرة أعوام، والفتوتان من نفس المكان ومن نفس الرجال وبالاعتماد على نفس النصوص! فلماذا لا يثور الشباب المسلم إذن ضد مظاهر النفاق الديني ويحرمون الصلاة في مساجد الأوقاف ويشقون عصا الطاعة على رجال الدين، ويصلون في مساجدهم الأهلية ويثقون بأنهم الشرفاء[٢٧٨]؟

٤. دخول البلاد في مشروع قومي واحد حتى يمكن تجنيد كل القوى الوطنية حوله، ويجند الشباب المسلم الطاهر فيه تعبيرا عن معارك الإسلام ونداء للجهاد وطلبا للشهادة. لم تظهر الجماعات

---

[٢٧٨] انظر مقالنا: الوثنية الجديدة. الجمهورية ١٩٧٦/٧/١٦، الجزء السابع، اليمين واليسار في الفكر الديني.

الإسلامية في الستينات عندما كانت البلاد مجنـدة في مشروع قومي واحد، بناء الاشـتراكية فـي الداخل ومواجهة الصـهيونية والاسـتعمار فـي الخارج، ووجد الشباب كله البديل الوطني الذي لم يوجد في السبعينات فظهرت الجماعة الإسـلامية كبديل واحد وجذبت الشباب نحوها بعيـدا عـن الانفتـاح والاسـتهلاك والعمالـة والتسـليم والاستسلام. فالجهاد فرية لا شك فيهـا، وإقامـة الدولة الإسلامية مطلب إسلامي يقيني والشـباب مازال طاهرا يود الولاء لقضية عامة. وبالتـالي تكون مسئولية الدولة في غياب مشـروع قـومي واحد يمكن إطلاق طاقات الشباب فيه، وتحويـل المشروع الإسلامي. وعلى هذا النحو يمكن إعادة الجماعات الإسلامية إلى الوطنية كدعامـة لهـا، وتيار أصيل فيها، كما يمكن للحياة الوطنيـة أن تجد جذورها في التراث الإسلامي، ولا غرابة في أن يكون ذلك هو تراث الحزب الوطني القـديم،

وأن يكون الأفغاني رائـد الحركـة الإسـلامية الحديثة هو رافع شعار "مصر للمصريين".[٢٧٩]

---

[٢٧٩] انظر بحثنا: مخاطر السلام، قضايا عربية، الجزء الثالث، الـدين والنضال الوطني.